بسم اللـه الرحمـن الرحيـم

الحياة الادبية في تلمسان فـي القرن الثامن الهجرى

من اعـداد الطالـب :

احمـد عبدالقادر قريـش

تحت اشـراف :

الاستاذ الدكتور عبدالكريم خليفـة

مقدمة الى قسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة الاردنيـة

استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير لعام ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اهـــــــــــداء

الى التي قال الحق سبحانه وتعالى في شأنها :

" ووصينا الانسان بوالديه حملته أمـــه وهنا على وهـــــن وفصالـــــه

في عامين ان اشكر لي ولوالديك الىّ المصـــــــــير" .

عمان : ٢١ / ٧ / ١٩٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الموضوعـــــــات

المقدمـــــــة

أ ـ مدخل الى الموضوع : الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في تلمسان في القرن الثامن الهجرى ٠

ب ـ الحياة الادبية في تلمسان في القرن الثامن الهجرى :

الفصل الأول : الشعـــر وأغراضـــــــــــه

الفصل الثاني : النثـــر وأنواعـــــــــــه

الفصل الثالث : الخصائص الفنية

أولا : الشعـــــــر

ثانيا : النثـــــــر

الخاتمـــــــــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمـــــــــــــة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه ٠

ان دوافع اختياري لموضوع الحياة الادبية في تلمسان تنبثق عن جملة أمور من بينها :

تسليط الاضواء على مرحلة تاريخية ناصعة من تاريخ تلمسان ، وابراز الدور الذى قامت به في تلك الفترة من تاريخ الجزائر ، وذلك مساهمة مني في اثبات هوية الجزائر الثقافية ومشاركتها للفعالة في الحياة الادبية والفكرية ابان تلك المرحلة الزاخرة من تاريخ الحضارة والفكر الاسلاميين ٠

لا سيما في هذه المرحلة التي تحاول الجزائر احياء تراثها الثقافي والفكرى لاثبات هويتها وشخصيتها العربية الاسلامية التي كان للاستعمار دورفي محاولة طمسها ومسخها بعد الاحتلال ٠

ومن هذا المنطلق جاء اختياري لموضوع الحياة الادبية في تلمسان في القرن الثامن الهجيرى لما لهذا الموضوع من أهمية قصوى إذ أنه يتناول فترة تعتبر من أخصب الفترات في تاريخ المغرب العربي من حيث الانتاج الفكرى ، ساهمت فيها تلمسان بقسطها الوافر ٠

ومما شجعني على المضي قدما في هذا الاختيار أنه لم يفرد بحث جامعى لدراسة الحياة الادبية في تلمسان فى أيّ فترة من تاريخها ، فكان ذلك مساهمة مني في سد ثغرة في تلك الدراسات السابقة واضافة لبنة جديدة تضاف الى مجهودات بقية الدارسين ٠ ومما كان له أقوى الاثر على اقبالي على هذه الدراسة ما كان من تجشيع أستاذى الدكتور عبدالكريم خليفة الذى بارك هذا الموضوع وأثنى عليه ، فكان لتشجيعاتهولتوجيهاته القيّمة اكبر الاثر في اقبالي على هذا الموضوع من دون تردد على الرغم من قلة مصادره ٠

وتتألف هذه الدراسة من مدخل وثلاثة فصول وخاتمة.

أما المدخل فيقوم على رسم الأبعاد السياسية والاجتماعية والفكرية في تلمسان في القرن الثامن الهجرى وذلك لما تتركه هذه العناصر من أثر على الحياة الأدبية ، فاستعرضت بإيجاز الاطوار التاريخية التي مرت بها مدينة تلمسان الى أن اتخذها بنو عبد الواد قاعدة لهم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكرسيا لملكهم والى الظروف التي أدت الى برزوها على الساحة السياسية ، مركزا على أبرز الاحداث التي عرفتها دولتهم في القرن الثامن الهجرى .

واذا كانت الحياة السياسية تضع الاطار العام لتصور العصر ، فان الحياة الاجتماعية تصور البيئة التي عاش فيها الادباء . ولذلك فقد تحدثت في هذا المجال عن تكوين المجتمع الزياني وعناصره السكانية المختلفة .

وأشرت في نهاية المطاف الى مظاهر النشاط الاقتصادى الذى كان له دوره المهم في ازدهار الحياة الفكرية باعتباره يساعد على الاستقرار ويساهم في تقدم المجتمع ورقيه . "

وقد أشرت في حديثي عن الحياة الفكرية الى أشهر العلماء ورجال الفكر الذين انجبتهم تلمسان أو استقروا بها ، وكانت لهم مساهمة فعالة في ازدهار الحياة الفكرية في تلمسان وفي غيرها من بلدان المغرب في مختلف مجالات المعرفة .

وأما الموضوع الرئيسي وهو الحياة الادبية في تلمسان في القرن الثامن الهجرى فقد قسمته الى ثلاثة فصول .

خصصت الفصل الاول للشعر واغراضه ، فأشرت الى أهم الاغراض الشعرية السائدة مع التركيز على أهم غرضين كان لهما انتشارهما الواسع في هذا القرن وهما شعر الموالد النبوية ، وشعر المدح ،

وأما الفصل الثاني فيتعلق بالنثر الفني ، وقد حاولت ان أحصر الأنواع النثرية السائدة قدر المستطاع وعلى حسب ما تسعفني به المصادر ، ووجدت أنها تتمثل في بعض الرسائل وبعض المؤلفات الادبية التاريخية ، في حين لم تصلنا بقية الأنواع الاخرى .

وأما الفصل الثالث والاخير فكان تقييما للادب في تلمسان شعرا ونثرا ، وابراز سماته العامة ، ومدى ارتباطه بالادب العربي العام .

وأما خاتمة الرسالة فكانت استنتاجا لما توصلت اليه من نتائج حول هذا البحث وقد أشرت فيها الى سيادة شعر الموالد النبوية على سواه من الاغراض الشعرية وَعَزَوْتُ السبب الى سيادة الروح الصوفية ، والى الاضطرابات السياسية التي عرفها القرن الثامن الهجرى في تلمسان والمغرب ، كما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استنتجت ان النثر كان قليلا بالنسبة للمادة الشعرية وهو راجع حسب تقديري الى غياب المصادر ٠

وأما المصادر التي استقيت منها مـادة هذه الدراسة فيمكن تصنيفها الى قسمين :

الأولى ويمكن تسميتها بالمصادر الاساسية للبحث ويأتي في مقدمتها :

" بغية الرواد " ، لأبي زكريا بن خلدون ٠ وتكمن أهمية هذا المصدر في أنه يشتمل على مجموعة كبيرة من الاشعار ولا سيما المولديات والمدح ٠ وفضلا عن أهميته الادبية فله اهمية في المجال التاريخي إذ أن صاحبه كان شاهد عيان للاحداث التي يرويها ، فكانت مادته غالبا تركيزا على أحداث القرن الثامن الهجرى ولا سيما النصف الثاني منه .

ومنها السفر الثاني من كتاب " زهر البستان " ٠ وتكمن أهميته الادبية فضلا عن أهميته التاريخية في كونه يحتوى على مادة شعرية لا يستهان بها أغلبها في المولديات ٠

ومنها كتاب " واسطة السلوك " لأبي حمو وأهمية هذا المصدر تكمن في دراسته للسياسة وفن الحكم، كما يجد الباحث فيه التنظيم الاجتماعي والسياسي للدولة الزيانية ، ولا يخلو من مادة شعرية وان جاءت قليلة أغلبها في المولديات وبعض القصائد في الفخر وهي من أنشاء أبي حمو نفسه ٠

ومنها " نظم الدر والعقيان " لمحمد بن عبدالله التنسي ، وأخص بالذكر فيه الباب السابع الذى خصصه مؤلفه لتاريخ الدولة الزيانية ٠ ويعتبر هذا المصدر أحد الاركان التي يعتمد عليها الباحث في تاريخ بني عبد الواد وتاريخ المغرب الاوسط في عهدهم ، ويستطيع الباحث أن يجنى منه بعض الفوائد التي تتعلق بالحياة الفكرية والادبية في تلمسان خلال القرن الثامن الهجرى ٠

ومنها أيضا " نفح الطيب " للمقرى ٠ وهذا الكتاب يعتبر موسوعة شاملة في التاريخ والحضارة في الاندلس بشكل خاص والمغرب بشكل عام ، أما اهميته بالنسبة الى هذه الدراسة فتبدو في احتفاظه بمجموعه من النصوص الادبية شعرية ونثرية وبعض الاشارات التي تساعد على تبين ملامح الحياة الادبية في تلمسان ، فضلا عن اشارات المقرى الى كثير من المؤلفات لعدد من رجال الادب والفكر في تلمسان نقل عنها ، ولا نعرف لها اليوم وجود ٠

ويمكن أن نشير ايضا الى " ازهار الرياض " الذى يحتوى على أخبار ونصوص شعرية معظمها ورد في " النفح " وبعضها ينفرد بها " الازهار " ٠

ومن المصادر الهامة " الاحاطة في اخبار غرناطة " ويجد الدارس فيه أخبارا متناثرة ونصوصا شعرية ونثرية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا بأس بها لبعض أدباء تلمسان وشعرائها .

ومنها كتاب "العبر" لابن خلدون وقد أفادني في الجانب التاريخي والاجتماعي على وجه الخصوص .

ومنها "البستان" لابن مريم الذى لا يخلو من معلومات تاريخية وفوائد خاصة بالحياة العلمية والثقافية في تلمسان والمغرب الاوسط في العهد الزياني إذ ذكر المؤلف اكثر العلماء والادباء الذين عاشوا في ذلك العهد ، وأشار الى آثارهم الفكرية ، وأورد في الغالب أسماء شيوخهم وتلاميذهم والكتب المتداولة في وقتهم . ويشترك "البستان" مع "بغية الرواد" و"نظم الدر" في رواية الشعر .

ويأتي بعد هذه الكتب في مرتبة أدنى تواريخ الدول المعاصرة للدولة الزيانية مثل كتاب "اللحمة البدرية" وغيرها من كتب ابن الخطيب ، وكتابي "الفارسية" لابن قنفذ القسنطيني و"تاريخ الدولتين" للزركشي ، و"روضة النسرين" ، و"مستودع العلامة" وغيره من كتب ابن الاحمر ، و"المسند" لابن مرزوق وكتب الرحلات غير أن أهمية هذه المصادر المذكورة تكمن في الجانب التاريخي غالبا .

وأما أهم العقبات التي واجهتني فهي قلة المصادر ، ولعل هذه الصعوبة الناجمة عن فقدان المصادر جعلتني أحيانا الجأ الى التأويل والترجيح لأرقع ثغرات هذا البحث ، وأسد جوانب النقص فيه .

وأخيرا أسجل شكرى وامتناني وعرفاني بالجميل الى أستاذى الدكتور عبدالكريم خليفة الذى رعى هذه الدراسة منذ كانت فكرة ، وبذل قصارى جهده من أجل اخراجها على أكمل صورة ، والى الاستاذ الدكتور محمود ابراهيم الذى أثرى البحث وصوب الكثير من أخطائه والدكتور صلاح جرار الذى كانت له ملاحظات سديدة وجهت البحث نحو الاحسن . كما أسجل تقديرى واعترافي بالجميل الى مسؤولي المكتبة الذين أتاحوا لي فرصة الاطلاع على المصادر والمراجع والافادة منها وقدموا لي كل عون ومساعدة .

والذى آمله أن اكون قد وفقت بعض التوفيق فيما اجتهدت ، وعسى أن اكون بعملي هذا قد زدت لبنة متواضعة في احياء تراثنا العربي الاسلامي عامة ، والجزائرى خاصة ، ومن القيام بعمل متواضع في ميدان الادب الواسع ، والله ولي التوفيق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـأ ـ مـــــــدخـــــــل

الحيا ة السياسية والاجتماعيـــة والفكريـــة

فـــــــي

تلمســـــــــان

فـــــــي

القرن الثامن الهجـــرى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تـوطئـــــــــــه

تلمسان : موقعها الطبيعي وتطورها التاريخـــــي

تقع مدينة تلمسان في أوائل الاقليم الرابع من الأقاليم السبعة حيث الطول ١٤ درجة و ٤٠ دقيقـــــة والعرض ٣٣ درجة و ٤٢ دقيقة ٠ (١) ومما ينسب " للسان الدين بن الخطيب " في وصفها مـــــا صورته :

" تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف ، كأنها ملك على رأســـــه تاجه ، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه ٠٠٠" ٠ (٢) وهي مدينة محصنة منيعة مع أنهـــــا في وطاءة من الأرض ، وبلغ من حصانتها أن السلطان " أبا يعقوب المريني " (٣) حاصرها عشر سنـــين ، ووقف عاجزا عن فتحها (٤) فقد كان للمدينة أسوار كثيرة تحميها من أيدي الطامعين ٠ ولها أبـــواب ذكر " يحيى بن خلدون " منها خمسة هي : قبلة باب الجياد ، وشرقا باب العقبة ، وشمالا بـــاب الحلوي ، وباب القرمادين ، وغربا باب كشّوطة (٥) الا أن ذلك كله لم يحم المدينة في كل الفتـــرا ت والأوقات ، فقد تعرضت للغزو والاحتلال في عدة مناسبات وفترات متلاحقة ٠

---

(١) تـقويم البلدان ، ابو الفدا الملك المؤيد ص ١٣٦ باريس ١٨٤٠

(٢) " نفح الطيب " المقرى، ج ٧ ، ص ١٣٥ ، تحقيق د :احسان عباس بيروت ١٩٦٨

(٣) يوسف بن يعقوب بن عبدالحق المريني الملقب بالناصر لدين الله ، تولى الحكم سنة ٦٨٥ هـ توفي سنة ٧٠٦ هـ محاصرا لتلمسان " انظر : "روضة النسرين في دولة بـــني مرين " ابن الاحمر ، ص ١٦ ٠ تحقيق :عبدالوهاب بن منصور ، الرباط ١٩٦٢ ، "جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس" ، ابن القاضي ، ق ٢ ، ص ٥٤٧ الرباط ، ١٩٧٣

(٤) صبح الأعشى في صناعة الانشا " القلقشندى ، ج ٥ ، ص ١٥٠ بتصرف ٠ نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ٠

(٥) " بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد " ، ج ١ ، ص ٩٠ تحقيق : د : عبدالحميد حاجيات (الجزء الأول) الجزائر ١٩٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مرت مدينة تلمسان بمراحل تاريخية متعاقبة غير أن كتب التاريخ لا تدلنا على اسم المدينة في العصور القديمة ، ولم يصل منها الا اسمها الروماني وهو " پوماريا POMARIA " وهي تعني البستان ذلك أنها تتنعم بكثرة المياه والأعشاب بفضل موقعها الجغرافي الممتاز (١)

ولم تحتفظ تلمسان القديمة (يوماريا) الا بأطلال قليلة تعود الى عهد الرومان، بقايا من سور كان يحيط بها، ذكره كل من " اليعقوبي " (٢) وابن حوقل (٣) اللذين وفدا على المدينة في فترتين زمنتين مختلفتين .

وعلى الرغم من ذلك فان هذا لا يعني أن المدينة ذات تأسيس روماني، فالمؤسسون الحقيقيون لها حسب تقدير عبدالرحمن بن خلدون هم " بنو يفرن " (٤) الذين اختطوها (٥) وبعد تقويض نفوذ الرومان والوندال أطلقوا عليها اسم " أجادير " (٦) ونظرا لأهمية أجادير هذه وجمال موقعها نسج السكان حولها أساطير تدعي واحدة منها أنها مدينة قديمة عريقة في القدم ، أزلية الوجود حتى زعم بعضهم أن الجدار المذكور في القرآن الكريم حول قصة " الخضر " مع موسى عليهما السلام في قوله تعالى : " وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة " (٧) هو بناحية أجادير .

---

(١) تلمسان عبر العصور . محمد الطمار ، ص ٧ بتصرف . الجزائر ١٩٨٤

(٢) انظر كتابه " البلدان " ص ١٠٧ ، ط : الثالثة ، النجف ١٩٥٧. واليعقوبي هو أحمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح أبو يعقوب مؤرخ جغرافي من أهل بغداد ، توفي سنة ٢٩٢ هـ " انظر : معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، جـ ٥ ، ص ص ١٥٣ - ١٥٤ بيروت . الطبعة الاخيرة .

(٣) انظر كتابه : صورة الارض ق ١ ، ص ٨٩ ، ط : الثانية ، ليدن ١٩٦٧. وابن حوقل هو محمد بن حوقل المغدادى الموصلي ، أبو القاسم رحالة من علماء البلدان توفي سنة ٣٦٧ هـ " أنظر : دائرة المعارف الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٤٥١

(٤) من شعوب زناتة وأوسع بطونهم اخوة مغراوة وبني واسين " انظر : العبر وديوان المبتدا والخبر جـ ٧ ، ص ص ٢٢ - ٢٣ ط: ١٩٥٩

(٥) نفسه ، ص ١٥٦

(٦) وقد ذكرها ابن خلدون باسم أكادير انظر : المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ١٥٦ . وجاءت عند ياقوت أقادير انظر : معجم البلدان جـ ٢ ، ص ٤٤ ، بيرت ١٩٧٩ . ووردت عند يحيى بن خلدون كما اثبتنا أعلاه . أنظر : بغية الرواد " جـ ١ ، ص ٩٥ (٧) سورة الكهف ، الآية ٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن عبدالرحمن بن خلدون أنكر ذلك موضحا أن " موسى عليه السلام لم يفارق المشرق الى المغرب وبنو اسرائيل لم يتسع ملكهم لأفريقيا فضلا عما وراءها ، وانما هي من مقالات التشيع المجبول عليه أهل العلم في تفضيل ما ينسب اليهم أو ينسبون اليه من بلد أو أرض أو علم أو صناعة". (١) ثم سميت المدينة تلمسن والاسم في لغة " زناتة " سكان الاقليم مركبٌ من تلم ومعناه : تجمع ، ومن سن ومعناه : اثنان التل والصحراء ، ويقال أيضا تلمشان وهو مركب أيضا من تلم ومعناه : لها وشأن : اى لها شأن (٢) وأطلق الجغرافيون العرب كابن الفقيه الهمذاني (٣) وغيره على تلك المدينة اسم تلمسان . (٤)

يتضح مما سبق أن تلمسان اسم أطلق على المدينة منذ القرون الأولى للاسلام .

وفي عهد المرابطين وأثناء حصارهم لتلمسان القديمة " أجادير " سنة ٤٧٣ هـ ، أقاموا معسكرا لجندهم أطلقوا عليه سور (تاقرارت) وهي كلمة بربرية معناها المحلة (٥) وما فتىء هذا المعسكر الذى كان في البداية عبارة عن خيام ان استحال الى دور ، فقد شيد المرابطون قصرا ومسجدا جامعا بجانبه ، وأقاموا سورا جديدا حول المدينة الجديدة ، فأصبحت تلمسان مدينتين " تاقرارت "وفيها يسكن الجند وأصحاب السلطان ، وأصناف من الناس ، واسم القديمة" أقادير" يسكنها الرعية ، فهما كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر . (٦) وبنى المرينيون (٧) ابان حصارهم الطويل لتلمسان في نهاية القرن السابع ، وبداية القرن الثامن الهجرى مدينة جديدة سموها المنصورة (٨) تيمنا بالنصر وشيدوا بها مسجدا جامعا وقصرا وحصنا مسورا . واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة ، ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق . (٩)

---

(١) العبر ، جـ ٧ ، ص ١٥٦

(٢) نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ص ١٣٣ ـ ١٣٤ بتصرف

(٣) أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه المتوفى سنة ٦٣٦ هـ ، انظر : فوات الوفيات " محمد بن شاكر الكتبي ، جـ ٢ ، ص ص ٤١٣ ـ ٣١٤ . تحقيق د : احسان عباس بيروت ١٩٨٥ (٤) انظر كتابه : البلدان ، ص ٨٠ ليدن . ١٣٠٢ هـ

(٥) العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٨١ (٦) معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٤ .

(٧) نسبة الى بني مرين وهم من شعوب " بني واسين " اخوة بني بادين وعلى ذلك فهم أبناء عمومة مع بني عبد الواد . تطاولوا الى حكم المغرب الأقصى ابتداء من سنة ٦٤٢ هـ ، انظر : العبر ، ٧ ، ص ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ، ص ٣٥٢

(٨) بغية الرواد جـ ١ ، ص ٢١٠ ، أما التنسي فذكرها باسم تلمسان الجديدة ، انظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، مقتطف من نظم الدر والعقيان ، ص ١٣٠ تحقيق محمود بوعياد الجزائر ١٩٨٥ (٩) العبر ، جـ ٧ ، ص ص ١٩٨ ـ ١٦٩ بتصرف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكانت تلمسان تتألف من هذه المدن الثلاث المتعاقبة (أجادير) في الشرق، و (تاقرارت) في الوسط و (المنصورة) في الغرب . ولم يبق من هذه المدن الثلاث سوى المدينة الوسطى التي احتفظت باسم تلمسان الى يومنا هذا .

كان موقع تلمسان الجغرافي يساعدها في ربط المغرب الاوسط بالمغرب الأقصى (١) والاندلس ببلاد السودان ، ولعب دورا كبيرا في تطورها التجاري ونفاق أسواقها .

وازدادت اهمية تلمسان في عهد المرابطين باضافة " تاقرارت " اليها . فكثر سكانها وعظم شأنها وكان أهم عمل قام به المرابطون هو بناء مسجدها الجامع سنة ٤٧٣ هـ ، فكان يقام فيه الدروس ، فنفقت سوق العلم والمعرفة بها .

وأما الموحدون فقد اعتنوا بتلمسان ، فبنوا المنازل والقصور ، وندبوا الى عمرانها ، وقاموا بتحصينها حتى صيّروها أمنع معاقل المغرب (٢) ، وبفضل هذا التحصين تمكنت المدينة من الصمود والنجاة من عيث " ابن غانية " (٣) وأحلافه . وبرز في عهد الموحدين من زناتة بنو توجين ، وبنو راشد ولا سيما بـ عبدالواد " الذين تغلبوا على ضواحيها والمغرب الأوسط ، وملكوها وتقلبوا في بسائطها ، واحتازوا باقطاع الدولة الكثير من أرضها ، والطيب من بلادها والوفر للجباية من قبائلها " (٤) ومهّد ذلك لبني عبدالواد ليتخذوها عاصمة لهم ودار ملك ابتداء من القرن السابع الهجري .

---

(١) تعتبر مدينة تلمسان قفل بلاد المغرب فلا بد للداخل والخارج منه من الاجتياز بها " انظر : القارة الافريقية وجزيرة الاندلس ز مقتطف من كتاب " نزهة المشتاق في اختراف الآفاق " للادريسي ص ١٥١ بتصرف . تحقيق : اسماعيل العربي . الجزائر ١٩٨٣

(٢) العبر ، ج ٧ ، ص ١٥٧

(٣) يحيى بن اسحاق بن محمد بن علي المسوفي ابن غانية المتوفى سنة ٦٣٣ هـ ، آخر الامراء من بني غانية الذين كانت لهم ميورقة وماحولها " أنظر : المعجب في تلخيص أخبار المغرب " عبالواحد المراكشي ص ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ تحقيق : محمد سعيد العريان . القاهرة ١٩٦٣

(٤) العبر ، ج ٧ ، ص ١٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بنو عبد الواد : من قيام دولتهم الى نهاية القرن الثامن الهجرى

تعتبر قبيلة "بني عبدالواد "(١) فرعا من فروع الطبقة الثانية (٢) من قبيلة زناتـــة الكبيـرة (٣) وهـم من ولد بادين بن محمد اخوة بني توجين وبن مصاب وبنى زردال وبنى راشد (٤) .

وينقسم بنو عبدالواد الى عدة بطون ذكر ابن خلدون منها ستة هي : بنو ياتكين ، وبنو ولّلو وبنو ورسطف ومصوجـــة ، وبنو تومرت ، وبنو القاســـم . (٥)

وكان لهذا الفرع الاخير الرئاسة في عهد الموحدين لشدة شوكته واعتزاز عصبيته وقد حاول بعض المؤرخين ان يربط نسب بنى القاسم هؤلاء بنسب الادراسة العلويين كما ذهب " يحيى بن خلدون " في "بغيـــة الرواد " (٦) ومحمد بن عبدالله التنسي في " نظم الدر والعقيان " (٧) الا أن هذا الزعم لا يستند الى دليل ثابت كما ذكر عبدالرحمن خلدون (٨) بل حتى يَغْمْراسَن بن زيان (٩) مؤسس دولة بني عبدالواد

---

(١) ذهب يحيى بن خلدون ان اصل التسمية هو عابد الوادى رهبانية عرف بها جدهم من ولد سجيع بن واسين انظر : بغية الرواد جـ١ ، ص ١٨٦ .

(٢) هي الطبقة التي اسست الدول ومارست الحكم بعد انقراض ملك الموحدين كبني عبدالواد وبنـــي مرين وغيرهم في حين ان الطبقة الاولى منهم قد عرفت ممالكا ودولا قبل هذا الجيل ، وانقـــرض ملكهم بسيطرة صنهاجة والمرابطين من بعدهم ، فافترقت عصبيتهم كبني يفرن ، ومغراوة . انظر : العبر ، جـ ٧ ، صص ١٢٠ - ١٢٥

(٣) عن نسب زناتة انظر : جمهرة انساب العرب . ابن حزم ، ص ٤٩٥ بيروت ط:الاولى ١٩٨٣

(٤) العبر ، جـ ٧ ، ص ١٤٨ (٥) المصدر نفسه ، ص ص ١٤٩-١٥٠ (٦) انظر المصدر المذكور اعلاه جـ١ ، ص ١٩٠ (٧) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " من ص ١٠٩ - ١١٠

(٨) العبر جـ ٧ ، ص ١٤٩ ، وكذلك جـ ١ ، ص ١٣٣

(٩) يَغْمْراسَن بن زيان بن ثابت بن محمد ابويحيى " ٦٠٣ - ٦٨١" انظر : بغية الرواد جـ ١ ، صص ٢٠٤ - ٢٠٧ ، تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان صص ١١٥ - ١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفسه لم يستسغ ذلك وكان جوابه عندما أبلغ بهذا الامر "ان كان هذا صحيحا فينفعنا عبدالله واما الدنيا فانما نلناها بسيوفنا " . (١)

ومما يلفت الانتباه حقا أن " يحيى بن خلدون " ادّعى لهم النسب الشريف على الرغم من نقله لقول " يَغمْراسَن " السابق الذكر في كتابه(٢)وقدسار صاحب " نظم الدر والعقيان " في الاتجاه نفسه حينما صنّف كتابه المذكور لاثبات هذا النسب لهم ايضا . وموقفهما هذا ربما كانت تمليه مصالح خاصة بحكم موقعهما داخل البلاط الزياني ، فالاول كان يشغل منصب كاتب للدولة ، والثاني كان يتقرب من الدولة ولأحد سلاطينها (٣) الذى رعاه بعطفه وبكرمه .

ولعل السبب الحقيقي وراء تلفيق هذا النسب راجع الى أن شرعية الخلافة أو السلطة في ذلك الوقت كانت تستند الى أسس اكتسبت صفة اللزوم مثل النسب النبوى أو الاصل العربي " القرشي" . وهذا ما جعل كلا من يحيى بن خلدون و " التنسي " يقرّان بهذا الهدف السياسي الذى كانت دولة بني عبد الواد تسعى الى تحقيقه لتثبت أهليتها وشرعيتها للحكم . ومن هنا فقداستغل ملوك بني عبدالواد أو بعض سلاطينها على أقل تقدير هذه الفكرة ، وعملوا على تأكيد هذا النسب ولاسيما في عهد " أبي حمو الثاني " (٤) الذى ظهر هذا التأكيد واضحا في كتابه " واسطة السلوك في سياسة الملوك " عند افتخاره بالانتصار على المرينيين . وتنويهه بمساعدة عرب " بني عامر " في قوله :

تسربلت كردوسين من آل عامر ومن آل ادريس الشريف بن قاسم (٥)

وقد احتذى به كتاب البلاط وشعراؤه " كيحيى بن خلدون " الذى أطلق على السلطان لقب الامام ونصّ على وجوب خلافته الهاشمية شرعا . (٦)

---

(١) العبر ج ٧ ، ص ١٤٩

(٢) بغية الرواد ج ١ ، ص ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن أبي ثابت محمد عرف بالمتوكل ، تولى الحكم من سنة ٨٦٦ هـ الى سنة ٨٧٣ هـ .. انظر ترجمته وأخباره في :تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ، ص ص ٢٥٥ - ٢٨٤

(٤) موسى بن يوسف أبي يعقوب بن عبدالرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان " ٧٢٣ - ٧٩١ مجدد الدولة الزيانية سنة ٧٦٠ هـ .. انظر : بغية الرواد ج ٢ ، ص ص ١٢ - ٣٥ ، تحقيق : الفرد بيل . جزآت ، الجزائر ١٩١٣

(٥) انظر المصدر المذكور أعلاه ، ص ١٦ ط: تونس . ١٨٧٠

(٦) بغية الرواد ج ٢ ، ص ٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكتف بنو " عبدالواد " بتأكيد نسبهم الى آل ادريس ، بل تقربوا الى بعض الأشراف العلويين ، فقد عمل " أبوحموالثاني " على تدعيم هذه الصلة فقرّب الامام العالم " أباعبدالله محمد بن أحمد الشريف الحسني المعروف بالعلوىّ (١) وأصهر له في ابنته ، وبني له مدرسة لتدريس العلم.الى أن هلك سنة ٧٧١ هـ (٢).

وقد أُخلص " بنو عبدالواد " الطاعة للموحدين عندما ملكوا بلاد المغرب الأوسط ، فأقطعهم الموحدو ن بلاد " بنى ومّانوا " و " بنى يلوّمى " (٣) جزاء موازرتهم لهم ضد القبائل المعادية فأقاموا في تلك المواطن منذ ذلك العهد ، ولكن ا لنفوذ الحقيقي لبني عبدالواد " بدأ يبرز في المغرب الاوسط وفي مجال تلمسان ابتداء من أوائل القرن السابع الهجرى حينماكتب الخليفة الموحدى " ادريس المأمون " (٤) البيعة على تلمسان وسائر قبائل زناتة لزعيمهم " جابر بن يوسف " سنة ٧٢٧ . (٥)

بعد انتصاره على " يحيى بن غانية " الذى حاول احتلال مدينة تلمسان وكان كثير ا ما يجلب على تلمسان وضواحيها للعبث والفساد ، فاضطلع " جابر بالامر وقام يدبر شئونها ويدخل تحت نفوذه جميع بطون " بنى عبدالواد " ولم يخرج عن طاعته من حواضر تلمسان سوى " ندرومه " (٦) وكانت هذه الاحداث بداية لقيام دولة بني عبدالواد التي تسلم قيادتها " يغمراسن بن زيّان سنة ٦٣٣ هـ . (٧) فكان ذلك كما ذكر ابن خلدون " سلما الى الملك الذى أورثه بنيه. سائر الايام " (٨)

---

(١) نسبه الى قرية من اعمال تلمسان تسمى " العلوين " انظر : " التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا " ابن خلدون ، ص ٥٢ تحقيق ابن تاويت ط : ١٩٧٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٦ ، و " تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ص ١٧٩ - ١٨٠

(٣) عن اخبار هاتين القبيلتين انظر العبر ، ج ٧ ، ص ص ١١٤ - ١١٩

(٤) ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن " ابوالعلاء " الملقب بالمأمون . توفي سنة ٦٢٩ هـ ، عن ترجمته انظر : " الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى " الناصرى ، ج٢ ، ص ص ٢٣٣ - ٢٤١ تحقيق : جعفر الناصرى ، ومحمد الناصرى . الدار البيضاء ١٩٥٤

(٥) بغية الرواد ج ١ ص ص ١٩٩ - ٢٠٠

(٦) تقع هذه المدينة في شمال تلمسان وهي مدينة قديمة من بناء الرومان " انظر :وصف افريقيا " ج٢ ، ص ١٣ ، الحسن الزياني ، ترجمة محمد حجى ، ومحمد الاخضر الرباط ١٩٨٠

(٧) ورد هذا التاريخ في العبر ج ٧ ، ص ١٦٢ ، وكذا في " بغية الرواد " ج ١ ، ص ٢٠٤ اما في نظم الدر والعقيان " فقد بويع في سابع عشر جمادى الاخيرة من سنة ٦٣٧ هـ . انظر " تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ١١١ . في حين ذكر ابن الاحمر في روضة النسرين ص ٤٥ أن البيعة كانت سنة ٦٣١ هـ .

(٨) العبر ج ٧ ، ص ١٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان " يغمراسن " من أشدّ هذا الحيّ بأسا وأعظمهم في النفوس مهابة واجلالا، وأعرفهم بمصالح قبيله ، وأقواهم كاهلا على حمل الملك واضطلاعا بالتدبير والسياسة(١) وقد عمل كل ما من شأنه ان يساعد في اقامة ملك ثابت مستقل كتنظيم الجيش ، وحسن السياسة والتدبير لدى الرعية ، واتخاذه الوزراء والكتاب ، واتخذ لنفسه مظاهر الملك ، ولم يترك من رسوم دولة الموحدين والقاب ملكهم الا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش(٢) ذلك ان دولة الموحدين انذاك كانت تمرّ في طور الانحلال والاحتضار . فكل العوامل كانت مهيأة لسقوطها في أية لحظة ، فقد وصل الضعف الى اقصى درجاته . غير ان " يَغْمْراسَن " شق الطريق لدولته وسط الاشواك والحفر ، ذلك ان امارته كانت بين شقي الرّحا بين دولة بني حفص في تونس (٣) ودولة " بني مرين " في فاس ، وكل منهما يحاول جاهدا بسط سلطته على أراضي الدولة الموحدية معتبرا نفسه الوريث الشرعي لها .

ويعتبر الحفصيون اول خطر واجهه " بنو عبد الواد " بسبب تحالف الخليفة الموحدى مع الأمير الزياني " يغمراسن " للوقوف معا ضد " بني مرين " الذين كان نفوذهم يقوى ويتعاظم بالمغرب الاقصى على حساب الموحدين . فشعر الامير " ابو زكريا الحفصي " (٤) بخطورة هذا التقارب والتعاون بين الطرفين " الموحدي والزياني " على امارته ، فقام بغزو " تلمسان " سنة ٦٤٠هـ (٥)

---

(١) العبر ، ص ١٦٢

(٢) نفسه ، ص ص ١٦٢ - ١٦٣ بتصرف . ومراكش : اعظم مدينة بالمغرب وأجلها وبها سرير ملك بني عبد المؤمن انظر : معجم البلدان ، جـ٥، ص ٩٤ .

(٣) بنو حفص : نسبة الى جدهم وهو ابوحفص عمر الهنتاني المصمودى ، صاحب المهدى بن تومرت وأحد العشرة السابقين الى دعوته : انظر : العبر ، جـ٧، ص ٥٧٨ .

(٤) أبوزكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي اول من استقل بالملك ووطد اركانه من ملوك الدولة الحفصية بتونس تولى الحكم سنة ٦٢٥ هـ ، الى ان توفي سنة ٦٤٧ هـ ، انظر : " المؤنس في اخبار افريقيا وتونس " ابن ابي دينار ، ص ص ١١٨ - ١٢٠ تحقيق : محمد شمام . تونس ١٩٦٧

(٥) بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ ، اما في العبر ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ ، وفي تاريخ الدولتين "للزركشي " ص ٢١ ، فكان تاريخ هذا الغزو سنة ٦٣٩ هـ ، بينما انفرد " التنسي " بتحديد ذلك في سنة ٦٤٥ هـ " انظر : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان " ص ١١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعدما تهيأت له الاسباب التي من أهمها تأييد بعض القبائل الزناتية المعادية لبني عبد الواد كأولاد منديل من مغراوة " و " توجين " فضلا عن احياء زغبة من " بني سويد " و " بني عامر " أحلافهم من العرب (١) وارغم " يغمراسن " على الاعتراف بالسيادة الحفصية وأقطعه " أبو زكريا " في مقابل ذلك بلادا من افريقيا جبايتها مائة الف دينار(٢)،فقبل " يغمراسن " هذا الاعتراف بالخلافة الحفصية ليحول دون انهيار امارته ، لاسيما أنه كان يعلم مدى تضعضع جبهته الداخلية في هذه الفترة بسبب معاداة تلك القبائل المذكورة . وكان لهذا التحالف الجديد بين بني عبد الواد وبني حفص وقع شديد على الموحدين فحاولوا اخضاع " يغمراسن " ، ومن ثمّ تأديب الحفصيين وبسط سلطة الدولة على مناطقها الشرعية،فتحركوا بجيش ضخم تساندهم بنو مرين ، الا انهم فشلوا وانهزم جيشهم الذى قاده " الحسن السعيد " قرب وجده سنة ٦٤٦ واستولت بنو عبدالواد على أسلابه وذخائره بعد مقتله ، فمدح أحد الشعراء سبتة (٤) " يغمراسن " وعرض بالسعيد في قصيدة جاء فيها :

بشرى بعاجل فتح أوجب العرسا ... وأسفر الدهر عنه بعدما عبسا

فتح توقّفت الاذهان ذاهلة ... في كنه مالم يخله حادس حدسا (٥)

وقوله :

مضى كفرعون خاض اليمّ متخذا ... للحتف فيه طريقا ظنّها يبسا

رجا تلمسان ان تغدو فريسته ... فثلّ من دونها للوجه وافترسا (٦)

وهذا الانتصار الزياني على الخليفة جعل المرينيون لا ينظرون اليهم بعين الرضا خاصة أن المرينيين كانوا يطمحون الى بسط نفوذهم على المغرب الأقصى وعاصمة الخلافة مراكش فضلا عن توجهاتهم البعيده الرامية الى بسط نفوذهم وسيطرتهم على املاك الموحدين كلها ، فتضاربت مصالح الطرفين واختلفت تطلعاتهم ، فنجم عن ذلك عدة حروب بينهما (٧) كان آخرها غزو السلطان المريني أبي يوسف يعقوب (٨) لتلمسان وضربه عليها حصاره الطويل المشهور (٩) الا ان انبعاث هذه

٣٦١٨٤٣

(١) العبر ، جـ ٧ ، ص ص ١٦٤ ـ ١٦٥ (٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٦

(٣) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ، ص ص ١١٨ ـ ١١٩

(٤) هي قصيدة لشاعر مجهول ، ولم تورد الا في " نظم الدر والعقيان .. انظر : تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ، ص ١١٩

(٥) نفسه ، ص ص ١١٩ ـ ١٢٠ (٦) نفسه ، ص ١٢١

(٧) حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبدالحق .. انظر : العبر جـ ٧ ، ص ١٧٦ روضة النسرين ، ص ٤٧

(٨) أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبدالحق المريني الناصر لدين الله تولى الحكم سنة ٦٨٥ هـ ، توفي سنة ٧٠٦ هـ ، محاصرا لتلمسان، انظر : جذوة الاقتباس ،ق ٢ ، ص ص ٥٤٧ ـ ٥٤٩،

(٩) العبر جـ ٧ ، ص ١٩٦ ، بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ص ٢٠٩ ـ ٢١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، الدولة ظهر من جديد سنة ٧٠٦ هـ بعد انتهاء الحصار المذكور بفضل " أبي زيان الأول (١) الذي استطاع ان يسترجع سلطة دولته على المغرب الاوسط من وادي ملوية (٢) الى ضواحي الجزائر ، ثم تدعم هذا الكيان بمجيء ابي حمو الاول (٣) وهو أول من رتب مراسم ملك "بني عبدالواد" وهذّب قواعده وكانوا من قبل رؤساء باديـة " ٤) وكان اول ما افتتح به عهده ابرام الصلح وتحقيق السلم مع بني مرين تأمينا لظهره (٥) مما جعله يتفرغ لحرب اعدائه من زناتة ، فأخضع " بني توجين " و " مغرارة " الثائرين في الشرق ، ومدّ سيطرته الى " مَتِّيجَة " (٦) ومدينة الجزائر التي سلمها له اميرها " ابن علان " سنة ٧١٢هـ (٧) وتوغلت جيوشه شرقا في أراضي الدولة الحفصية فضيقت على بجاية ، ووصلت الى قُسطيـنَة وعَنَّابَـة . (٨)

---

(١) هو ابو زيان محمد بن عثمان بن يَغْمْراسَن ، تولى الحكم من سنة ٧٠٣ هـ الى سنة ٧٠٧ هـ انظر : العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٦ ، بغية الرواد جـ ١ ، ص ١٢٠

(٢) وادي ملوية يقع الى وادي صاع فيجتمعان معا ويصبان في البحر ما بين جراوة ابن قيس ومليلة انظر : " القارة الافريقية وجزيرة الاندلس " ص ١٤٩ .

(٣) هو موسى بن عثمان بن يغمراسن ، تولى الحكم من سنة ٧٠٧ هـ الى سنة ٧١٨ هـ ، انظر : بغية الرواد " جـ ١ ، ص ص ٢١٢ ـ ٢١٥ ، العبر ، جـ ٧ ، ص ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٤) العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٠٣

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤

(٦) هي مدينة على نهر كبير عليه الارحاء والبساتين ، ومنها الى جزائر بني مزغناى . معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٥٣

(٧) العبر ، جـ ٧ ص ٢٠٩

(٨) بغية الرواد جـ ١ ، ص ٢١٣ ، واما عنابة فذكرها صاحب العبر باسم بونه ، جـ ٧ ، ص ٣١٢ ، وذكرها ياقوت الحموى باسم بونة ، وقال : مدينة بافريقا بين مرسى الخرز وجزيرة بني مرغناني وهي مدينة حصينة " وهي على البحر انظر : معجم البلدان جـ ١ ، ص ٥١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كانت هذه الحملات لم تحقق كل اهدافها فقد استطاعت أن تمد من رقعة الدولة وتوسعها في الشرق ، وان تفرض هيبة الدولة واحترامها على الثائرين من " مغراوة " و " توجين " ، ويرجع ذلك كله الى صرامة " ابي حمو " وحزمه وقوة شكيمته ، وحنكته السياسيه . ولكن سرعان ما تآمر عليه المقربون من اهله ، وعلى راسهم ابنه ، فاغتيل سنة ٧١٨هـ (١) ، وخلفه ابنه " أبوتاشفين الاول " (٢) فتابع سياسة أبيه تجاه الحفصيين لتوسيع رقعة المملكة فضيق على " قسنطينة " وحاصر بجاية مرات ،(٣) واقام لهذا الغرض بعض المراكز لاحتشاد الجنود (٤)

وتعددت الوقائع بين الحفصيين وبني عبدالواد الى ان كان النصر فيها لبني عبدالواد سنة ٧٢٩ هـ ، واستولت جيوشهم على تونس واقامت فيها اربعين يوما واسلمتها الى ابن ابي عمران (٥)

وقفلت راجعة (٦) الا ان هذا الانتصار العبدالوادي لم يأت بثماره المرجوة ، بل كانت نتائجه عكسية على مستقبل دولتهم بما جرّ عليها من عداوة خصومها من بني مرين وبني حفص ضدها ،وكان ذلك داعيا للقضاء على كيانها ،إذ دخلها ابوالحسن المريني (٧) عنوة سنة ٧٣٧ بعد حصار دام سنتين وبضعة اشهر (٨) وبهذا التنسيق المحكم بين الطرفين تمّ القضاء على الامارة العبد الواديه ، وان كانت مساهمة بني مرين فيما تبدو اكبر واعظم خطرا من مساهمة الحفصيين ،مع اضافة عوامل

---

(١) بغية الرواد ج ١ ، ص ص ٢١٤ - ٢١٥ ،العبر ج ٧ ، ص ٢١٨ .

(٢) عبدالرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن ، تولى الحكم من سنة ٧١٨ هـ الى سنة ٧٣٧هـ انظر : بغية الرواد ج ١ ، ص ص ٢١٥ - ٢١٩

(٣) العبر ج ٧ ، ص ٢٢١

(٤) المصدر نفسه ، ص ص ٢٢١ - ٢٢٣

(٥) محمد بن ابي بكر المعروف بابن ابي عمران امير حفصي، نهض من طرابلس مطالبا بعرش تونس ، انظر : المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ص ٧٦٠ - ٧٦٥

(٦) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، ص ١٤٤

(٧) علي بن عثمان ابوسعيد المريني الملقب بالمنصور بالله ، تولى الحكم من سنة ٧٣١ الى سنة ٧٤٩ هـ ، انظر : جذوة الاقتباس ق ٢ ، ص ٤٦١ - ٤٦٢
الاستقصا ، ج ٣ ، ص ص ١١٨ - ١١٩ ، ص ص ١٧٤ - ١٨١

(٨) العبر ج ٧ ، ص ٥٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

داخليّة كان لها دورها الحاسم في التعجيل بسقوط الدولة وانهيارها ، من اهمها معاداة بعض القبائل الزناتية " كمغراوة " و " توجين " المنافسين التقليديين لبني عبدالواد ، ووجود بعض القبائل العربية المناصرة لاعدائهم المرينيين كالثعالبة وسويد وبعض المعقل .

وبهذا الانكسار ينتهي طور من حياة هذه الدولة لتخضع للحكم المريني ، الا أن أملا قد لاح في أفق تطلعات بني عبدالواد من جديد بعد نكبة السلطان " أبي الحسن المريني " قرب القيروان ، وكان لهم دور مهم في هزيمته تلك سنة ٧٤٩ هـ بانحيازهم الى العرب ضده (١) وبعثوا دولتهم من جديد بقيادة الأميرين الاخوين " ابي سعيد " و " ابي ثابت " ابنى الامير ابي زيد ، غير ان هذا الحكم لم يدم اكثر من اربع سنوات ، إذ إن " أبا عنان " المريني سرعان ما استرجع تلمسان بعد انتصاره على بني عبدالواد سنة ٧٥٣ . (٢)

بعث الدولة الزيانية .

وتبدأ هذه المرحلة بسيطرة " ابي حمو موسى الثاني " على تلمسان سنة ٧٦٠هـ بمساعدة عرب الدّواودة" من رياح (٣) وعرب بني عامر الخارجين عن سلطان " ابي عنان المريني " بقيادة صغير بن عامر ، (٤) فأعاد " أبوحمو" تجديد دولة آبائه وأجداده للمرة الثالثة على انقاض السلطة المرينية الراحلة ، وحاول أن يعيد لها شبابها وحيويتها من جديد ، فاهتم بتدعيم سلطته وامارته وقضى على نفوذ " بني مرين " في اغلب انحاء المغرب الاوسط ، فافتتح مليانة ، والبطحاء (٥) ووهران وتغلب على المدية (٦) والجزائر (٧) ولكن الخطر كان غالبا يأتي من

---

(١) بغية الرواد ج ١ ، ص ص ٢٣٥-٢٣٦ ، الاستقصا ج ٣ ، ص ص ١٦٠-١٦٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ص ١٥٤

(٣) نسبه الى ابيهم داود بن مرداس بن رياح بن ابي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر انظر : العبر ج ٦ ، ص ص ٦٩ - ٧٠

(٤) هو شيخ قبيلة بني عامر " انظر المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ . وذكره صاحب بغية الرواد باسم شيقر ، ج ٢ ، ص ٢٢

(٥) مدينة قرب تلمسان بينهما نحو ثلاثة ايام او اربعة انظر : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٤٦

(٦) المدية نسبه الى بطن من بطون صنهاجة وكان المختط لها بلكين بن زيرى " انظر : العبر ج ٧ ، ص ٣٢٥

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جانب " بني مرين " الذين كانوا يثيرون باستمرار القلاقل ضده وضد امارته ويهيئون اسباب الفتنة واثارة الحروب ومن ذلك مؤازرتهم ، وتشجيعهم للأمير " أبي زيان " (١) ابن عمه منافسه على الملك والسلطة وتأليبه ضده ، ومساندتهم للقبائل المعادية له كما حدث ذلك في اثناء استصراخهم من قبل احياء سويد والدّبالم والعطّاف من عرب بني مالك الذين كانوا على خلاف مع " أبي حمو " لمظاهرته عرب " بني عامر " دونهم ، (٢) كما كانوا يتدخلون أيضا حينما كان السلطان الزياني يقبل من ينزع اليه من خصومهم الناقمين على حكمهم .

وعلى العموم فقد احتل "بنو مرين " تلمسان مرات عديدة مما كان يضطر " أَبَاحَمُّو" في ضوء ذلك الى ترك عاصمته مع انصاره والالتجاء الى الصحراء ، الا انه كان يتصف بعزيمة فولاذية في الوقوف في وجه الصعاب ، واصرار عظيم لا ينثني من اجل استرجاع ملكه من اعدائه ، وبسط نفوذه على أرض اجداده كما كان يحصل في كثير من الأحيان ، غير أن الظروف لم تكن في صالحه في اواخر حياته ، فقد ثار عليه ابنه " أبوتاشفين " ((٣) الطموح الى الحكم مستعينا ببني مرين ، فادّى ذلك الى مقتل " أبي حمو" بالقرب من تلمسان في جبل " بني ورنيد " سنة ٧٩١ . (٤)

وعلى الرغم من تلك المعوقات التي وقفت في وجه " أبي حمو" والتي حالت دون تحقيقه لكل ما كان يصبو اليه من بناء دولة قوية ، فقد حافظت الدولة في عهده على استقلالها وفرضت احترامها ولكن ادّى مجيء ابنه " أبي تاشفين " الى الحكم الى تبعيتها من جديد . ففي هذه الفترة من نهاية القرن الثامن الهجرى أصبح " بنو مرين " يتدخلون في عرش تلمسان باستمرار وحسبما تمليه مصالحهم . و بعد وفاة " أبي تاشفين " سنة ٧٩٥ هـ (٥) واستيلاء " أبي الحجاج يوسف (٦)

:.....:

(١) هو محمد بن عثمان بن عبدالرحمن بن يغمراسن بن زيان ، المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ ، وعن حروب ابي زيان مع ابي حمو انظر : المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٤ ـ ٢٨٤

(٢) نفسه . ، ص ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ (٣) هو عبدالرحمن بن موسى ابي حمو الثاني تولى الحكم من سنة ٧٩١ هـ الى سنة ٧٩٥ هـ انظر : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان " ص ص ٢٨٤ ـ ٢٠٦، وروضة النسرين ، ص ٥٨ (٤) العبر ج ٧ ، ص ٣٠٥ . واما جبل بني ورنيد فهو يطل على تلمسان من ناحية الجنوب " انظر : المصدر نفسه ، ص ٣٠٤

(٥) نفسه ، ص ٣٠٦

(٦) هو ابو الحجاج يوسف المعروف بابن الزابية ، تولى الحكم في سنة ٧٩٥ هـ الى سنة ٧٩٦ هـ انظر : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ص ٢٠٩، وروضة النسرين ص ٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الحكم ساندوا " أبازيان " (١) ضده فاستولى على كرسى الامارة بتزكيتهم ، واستمر حكمه الى بداية القرن التاسع.وانطلاقا من الفترة التي تعنينا من تاريخ الدولة الزيانية اى خلال القرن الثامن الهجرى يمكن القول ان هذه الدولة عرفت مراحل قوة حقيقية وانتابتها فترات من الضعف والتمزق السياسي وذلك نتيجة لعوامل اهمها :

لقد اصطدم بنو عبد الواد بمشكا عويصة اثارها عليهم بقية زناتة وبخاصة من القبيلتين القويتين : توجين القاطنة بجبل " وانشريس " (٢) ونواحيه و " أولاد مندبل " من " مغراوه " المقيمين بوادى شلف .(٣) وهاتان القبيلتان تعتبران الحليفتين الطبيعيتين في كثير من الاوقات لكل اعداء بني عبدالواد من الحفصيين والمرينين . ويكفي ان نشير الى تاييدهم للمرينيين اثناء غزوهم للمغرب الاوسط في مرات عديدة . ولعل موقف هاتين القبيلتين من بنى عبدالواد يرجع الى اول يوم دخل فيه هؤلاء الأخيرون الى التلول في عهد الموحدين (٤)بعدما كانوا من قبل ينتجعون الصحراء . فكانت المنافسة بين هذه الاطراف حول امتلاك الاراضي الخصبة . وكذلك فان لقبيلة " مغراوة " ملكا سابقا عريقا في المغرب الاوسط أدركه الاسلام عليهم فأقرّه لهم(٥) لذلك لم ينظروا الى هذا الوضع بعين الرضا ، ولم يذعنوا " لبني عبدالواد الذين كانوا يعتبرون انفسهم اولى بالحكم والملك منهم .

وشكل عرب " زغبة " من بني عامر " وسويد ، وحصين ، و " المعقل " وغيرهم عنصرا رئيسيا في تطور الاوضاع السياسية والاجتماعية في المغرب الاوسط خلال القرن الثامن الهجرى ، فقد

---

(١) هو ابو زيان بن ابي حمو الثاني ، ولم يعرف الا بكنيته ، تولى الحكم من سنة ٧٩٦ الى سنة ٨٠١ ، انظر : تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ، ص ص ٢١٠ - ٢٢٨ ، العبر ، ج ٧ ص ص ٣٠٧-٣٠٩

(٢) ذكره صاحب معجم البلدان بسينين معجمتين اى وانشريش فقال : هو جبل بين مليانة وتلمسان من نواحي المغرب ، ج ٥ ، ص ٣٥٥ . وذكره ابن خلدون كما اثبتنا . العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨١

(٣) نهر كبير يصب بالبحر المتوسط قرب مدينة مزكران ، انظر : وصف افريقيا ج ٢ ، ص ٣٢ بتصرف

(٤) العبر ، ج ٧ ، ص ١٧٩

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان يقدم لبعض تلك القبائل امتيازات مالية او اقطاعها أراضي نظير تقديم خدماتها في حماية أراضي الدولة ، والدفاع عن حدودها وكسر شوكة القبائل المعادية ، لكن تلك القبائل العربية على وجه الاجمال لم تكن تعطي الود خالصا ، فولاؤها كان بين مد وجزر ، فقد تغير تحالفها أوحليفها بسهولة اذا اقتضت مصلحتها ذلك كمساعدة عرب سويد للغزو المريني عدة مرات بعد ان ناصروا الدولة وحالفوها من قبل ، ووقوف عرب " حصين والديالم والعطّاف " الى جانب الامير " أبي زيان " الثائر على " أبي حمو الثاني " ومناصرتهم له . (١)

ومن هنا كان للقبائل العربيه دور كبير في " دولة بني عبدالواد "حيث كانت تلك القبائل تلعب الادوار الرئيسة ، وتؤثر في توجيه الاحداث التي كانت تجرى في المغرب الاوسط خلال القرن الثامن الهجرى سلبا اوايجابا . ولا ننسى عاملا اخر لا يستهان به/بل لعله المحرك والمغذى لتلك الاحداث/ويتمثل في " بني مرين " الذين كانوا اكثر من بني عبدالواد عددا وأقوى مددا (٢) .

ولعل هذه العوامل السابقة أدّت الى طرح مشكل حدود هذه المملكة التي كانت بين مد وجزر ، فقد تضيق أحيانا كما هي الحال في وقت ضعفها وقد تتسع أحيانا أخرى في زمن قوتها ، الا أن الحدود التي استقرت عليها في غالب أيامها خلال هذا القرن تمتد من " نهر ملوية " غربا الى " الوادى الكبير " شرقا. (٣) ومن العوامل التي أثرت على استقرار الدولة وزعزعت امنها : ماكان يقوم داخل الاسرة الحاكمة نفسها من صراع من اجل السيطرة على مقاليد الحكم ، فتؤدى الى الاغتيالات والمؤامرات (٤) ولم ينج من ذلك حتى كبار الأدباء والعلماء اذا ظنّ انهم يحولون دون تحقيق اهداف الطامحين/(٥)

ولعل هذه الظاهره كانت عامة في المغرب كله ، حيث كان الأمراء يتهافتون على السلطة

.....

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ص ١٥٤ - ٢٠٨

(٢) العبر ، ج ١ ، ص ٢٨٨

(٣) وصف افريقيا ، الحسن الزياني ج ٢ ، ص ٧

(٤) مقتل ابي حمو الاول بمؤامرة دبرها ابنه ابي تاشفين سنة ٧١٨ هـ . وكذلك تآمر ابي تاشفين الثاني على ابيه أبي حمو الثاني ، الذى ادى الى مقتله سنة ٧٩١ ، انظر : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان . ص ص ١٣٨ - ١٣٩

(٥) مقتل كاتب سر أبي حمو الثاني المؤرخ الاديب " يحيى بن خلدون " بمؤامرة نسج خيوطها " أبوتاشفين الثاني " الذى اعتقد أن الكاتب المذكور كان يماطل في كتابة العهده على اقليم وهران . انظر : " العبر " ج ٧ ، ص ص ٢٩٢ - ٢٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والوصول اليها بأى وسيلة أو طريقة مادام ذلك يوصلهم الى أغراضهم الشخصية في الفوز بكرسي الامارة .

ومما سبق يمكن القول أن دولة " بنى عبدالواد " عرفت في هذا القرن أياما مضطربة سادتها الفتن والحروب وطبعتها الدسائس والمؤامرات . على أن أيام هذه الدولة لم تكن كلها شؤما ، فقد نعمت فيها المملكة بفترات هدوء ، انصرف فيها السلاطين الى البناء والتشييد وتشجيع الفقهاء والادباء والعلماء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحيـــــاة الاجتماعيـــــــــة

لما كانت البيئة الاجتماعية تتأثر بالحياة السياسية فقد كان من المحتم أن يتأثر المجتمع الزياني تأثرا واضحا وملموسا بتلك البيئة السياسية والاجواء السائدة فاوضاع الناس كانت تتسم بالقلق والخـــوف عندما تسود الفتن والاضطرابات ، وتميل الى الهدوء والاستقرار كلما زالت تلك الاسباب ، وفي هـــــذه الحالة ينصرف المجتمع بفئاته الى ممارسة نشاطه كل في موقع علمنه .

وكان المجتمع الزياني مثل غيره من المجتمعات المغربية الأخرى يضم عناصر سكانية مختلفة ، فهناك البربر ، ويتشكلون من عدة بطون وقبائل فمنهم أولاد مَنْدِيل من مَغْرَاوَة ، ومجالاتهم كانت بالقرب مـــن شلف ، وبنو توجين وهم أعظم أحياء بني باديين وأوفرهم عددا ، وكانت مواطنهم بتيطري . (١) وأما بنو عبدالواد أصحاب الملك في هذا العهد فتستقر قبائلهم ما بين البَطْحَاء شرقا الى ملوية غربا (٢) ومجالاتهم متاخمة للقبيلين السابقين ففي قبلة البطحاء مواطن توجين وفي شرقها مواطـــن " مَغْرَاوَة " . وكانت العداوة هي التي تطبع علاقة بني عبدالواد مع هاتين القبيلتين . (٣)

ومن هذه القبائل البربرية نذكر " كُومِيَّة " وتنتمي الى بني فاتن وهم بترکزناتة كما ذكر ابـــن خلدون ، وكانت تقيم في الجبال الواقعة شمال تلمسان . (٤) ومنهم بنو راشد وكانوا شيعـــــة لبني عبد الواد وأحلافهم ضد بني توجين وبني مرين . (٥) ومن قبائل صنهاجـــــــة نذكر " مَلْكِيش " ومجالاتها " مَتِّيجَة " من بسيط الجزائر . (٦)

---

(١) العبر ، جـ ٧ ، ص ٣٢٥
(٢) المصدر نفســـه ، ص ١٥٩
(٣) نفســـــه ، صص ١٧٨ ـ ١٧٩
(٤) نفســـــه ، صص ٣١٥ ـ ٣١٦
(٥) نفســـــه ، ص ٣١٦
(٦) نفســـــه ، جـ ٦ ، ص ١٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واما أشهر القبائل العربية فنذكر منها " بني يزيد " وكانوا يقيمون في أوطان حمزة (١) من نواحي " بجاية "، وبني عامر ومجالاتهم كانت جنوبي وهران ، وتلمسان (٢) وقد أخلص " بنو عامر " الطاعة للدولة و قاموا بدور ايجابي في مقاومة الغزو المريني لتلمسان ، واليهم يرجع الفضل في تخليص المغرب الاوسط من الحكم المريني ، وبعث الدولة الزيانية من جديد سنة ٧٦٠ هـ بمساعدتهم " أبي حمو الثاني " وتأثيرهم على بقية القبائل العربية الاخرى للمساهمة في هذا الدور، ونظرا لهذه الخدمات من قبل " بني عامر " ، فقد تملكوا اقطاعا من السلطان على أراض تمتد من تاسَاكَة، (٣) الى نواحي وهران . (٤)

ومن القبائل العربية التي ناصرت " بني عبدالواد " أولاد حسين ، من " ذوى منصور " ، وكانت مواطنهم الاصلية بالمغرب الاقصى ما بين " مَلْوِيَة " و "دِرْعَة " (٥) ثم لجأوا الى بني عبدالواد فرحبوا بهم ، وقلد " ابوحمو الثاني " وزارته لعبدالله بن مسلم "، فقام هذا الاخير بنقل معظم عرب " ذوى منصور " من العمارنة ، والمنبات ، وغيرهم من المعقل الى ضواحي تلمسان حيث اقطعهم الارض.(٦) اما القبائل العربية التي نافرت الدولة ، فنذكر منها قبيلة سويد بن مالك ، وكانوا يقيمون بالسَّرْسو قبلة جبل وَانْشَرِيس(٧)) ومنهم "العَطَّاف " و " الدَّيَالِم " ابني الحارث بن مالك ، وكانوا حلفاء " لسُوَيْد " وأوليائهم في فتنتهم مع " بني عامر "، لمكان العصبية من نسب مالك .(٨) وموطن العَطَّاف قبلة " مِلْيَانَة " (٩) والدَّيَالِم جنوب الوَنْشَرِيس . (١٠)

---

(١) نسبة الى اول من نزلها من بني سليمان وهو حمزة بن الحسن بن سليمان الطالبي ، وتقع بجوار مرسى الدجاج ، انظر : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ بتصرف .

(٢) العبر ج ٦ ، ص ٨٦

(٣) مدينة قديمة جدا في سهل فسيح ، انظر : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٢٥ وذكرها باسم تسّاله

(٤) العبر ، ج٦ ، ص ١٠٢

(٥) مدينة صغيرة بالمغرب في الجنوب الغربي ، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ ، اكثر تجارها يهود . انظر : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٥١

(٦) بغية الرواد ، ج٢ ،ص ٢٢٢ ، العبر ،ج٧، ص ص ١٢٤ - ١٣٢

(٧) العبر ج ٦ ، ص ٩٨ (٨) نفسه ، ص ص ١٠٢ - ١٠٣

(٩) هي مدينة رومية قديمة فيها آبار وانهارتطحن عليها الرحى جددها زيرى بن مناد واسكنها بلكين انظر : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٦

(١٠) العبر ،ج٦ ،ص ١٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما حصين فناصرت الغزو المريني للمغرب الاوسط وباركته ، واستقروا بجبل تيطرى وقاموا بدور كبير في صراع بني عبدالواد على السلطة ، فساندوا أبا زيان ، ضد السلطان " ابي حمو " ، واستولوا على المدية ، فاضطرت الدولة الى اقطاعهم ماولوه من نواحي المدّية وبلادصنهاجة.(١)واما ذوو عبيدالله من المعقل فكانوا مجاورين لبني عامر ، فمواطنهم ما بين تلمسان ونهر ملوية الى القبلة من ذلك . (٢) ونظرالقرب مواطنهم من حدود بني مرين ، فقد انحازوا اليهم خلال غزوهم لتلمسان والمغرب الاوسط . (٣)

والثعالبة من أعداء بني عبدالواد . وكثيرا ما ناصروا وساندوا الغزو المريني لتلمسان . وظهر موقفهم العدائي للدولة في فتنة " أبي زيان "حيث انظموا اليه ودعوا جميع القبائل العربية الى نصرته ومبايعته . (٤)

وفضلا عن هذه العناصر العربية والبربرية التي كان يغلب عليها الطابع البدوى القبلي)هناك سكان المدن من الحضر ، وهم يتشكلون من المولدين من اختلاط العرب بالبربر ، ونخص بالذكر عرب الفتح الذين استقروا بالحواضر منذ القدم .

وهناك الاندلسيون ، وكان ما ادى اليه من تساقط مدنهم العديدة في النصف الاول من القرن الثامن الهجرى بأيدى النصارى صدى في هجرة كثير منهم الى أرض الاسلام حيث فضلوا العيش تحدوهم الآمال الى استعادة بلادهم . فاستقرت الغالبية العظمى منهم في المدن المغربية ، وكان من بين هؤلاء المقيمين في المدن الزيانية رجالات العلم ، وكذلك الحرفيون الذين حملوا معهم فنونهم من الاندلس ، وهؤلاء الوافدون كانوا ينحدرون في الغالب من عائلات كبيرة ، ومن هنا لم يتوان ملوك عبدالواد في احضارهم الى بلاطهم ، والافادة مما يحملونه من حضارة وفكر يعوّل عليهما في البلاط الزياني ، وقد شغل كثير منهم مكانة لا يستهان بها ، ويمكن الاشارة هنا الى الدور المهم

---

(١) العبر . جـ٦ ص ٩٣
(٢) نفسه ص ١٢٣
(٣) نفسه ص ٦١
(٤) نفسه ، ص ٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذى قامت به اسرة الملّاح (١) ، و "هلال القطلاني " في عهد " أبي حمّو الاول " و "أبي تاشفين الاول " ٠

وعلى العموم فقد ساهم الاندلسيون في رقي هذا المجتمع في مختلف مجالات الحياة ، وتركوا بصمات واضحة في مجال الفكر والاجتماع ، وفي الحياة العلمية والأدبية ٠

ومن العناصر السكانية المماليك الغزّ ، وقد دخل هؤلاء الى المغرب عن طريق مصر (٢) وانخرط الاوائل منهم الذين عرفوا بالمغرب في الجيش الموحدى خلال القرن السادس الهجرى (٣) ومع زوال ملك الموحدين انخرط بعضهم في جيش " بني عبدالواد " وبعضهم الاخر في جيش كل من الحفصيين والمرينيين ، وقد ارتقي احدهم وهو " موسى بن على الكردى " (٤) في عهد " ابي حمو الاول " الى درجة عالية في الجيش ، وبقي في هذا المنصب زمن " أبي تاشفين الاول" الى ان حصلت بينهما جفوة فعزله ٠ (٥)

والى جانب المسلمين الذين كانوا يشكلون الغالبية من السكان كانت توجد جاليات من اهل الذمة كالنصارى مثلا،وكانت مجالات نشاطهم تتوزع على التجارة والجيش ، وكوّن التجار منهم جالية تقيم في بعض الاحياء وتحافظ على جنسيتها الأصلية ، وكانت تعيش في المدن غالبا ، ويمثلهم قنصل معتمد لدى العاهل الزياني (٦) وفيما يتعلق بالجيش،فان اول كتيبة نصرانية استخدمها بنو عبد الواد كانت سنة ٦٤٦ هـ في اثناء المواجهة مع الموحدين وكانت ضمن الجيش الموحدى ٠

---

(١) بنو الملاح اسرة منها عدة موظفين خدموا الدولة الزيانية اولهم " عبدالرحمن بن محمد بن الملاح الذى تولى منصب " صاحب الاشغال " للسلطان "يغمراسن" قال عنهم يحيى بن خلدون : " هم بيت سراوة من اهل قرطبة احترافهم السكاكة وأولو امانة فيها ودين " ، انظر : بغية الرواد ، جـ١ ، ص ١٢٧

(٢) العبر ، جـ ٧ ، ص ٢٣١ (٣) الانيس المطرب في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس " ابن أبي زرع ، ص ١٣٩ ، الرباط ١٩٧٢

(٤) اصله من قبيلة الكرد من اعاجم الشرق ، قتل اثناء احتلال بني مرين لتلمسان سنة ٧٣٧ هـ انظر : العبر ، جـ ٧ ، ص ص ٢٣٠ ـ ٢٣٤

(٥) العبر جـ ٧ ، ص ٤٣٣ ،

(٦) تاريخ افريقيا الشماليه ، شارك اندرى جوليان ٠ ص ١٨٢ ، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة ٠ تونس ١٩٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد هذه المعركة انضم جنود مسيحيون الى خدمة بني عبد الواد ، وتسمى هذه الفئة من الجند المسيحي باسم الاعلاج . (١)

وكان يوجد في المجتمع الزياني مجموعة من الاسرى النصارى نتيجة للحروب القائمة انذاك بين الاسطول الزياني والاساطيل المسيحية ، وكانوا يشغلون عدة وظائف ، وقد تحولوا مع الايام الى عبيد ، أي أنهم أصبحوا عنصرا لا يمكن الاستغناء عنه في المجتمع الزياني كغيره من المجتمعات الانسانية آنذاك يدل على ذلك رسالة " أبي تاشفين الاول " الجوابية الى ملك " أرجون " المتعلقة بتحرير الاسرى النصارى بتلمسان . قال أبو تاشفين :

" وأما ما أشرتم اليه من تسريح جميع من عندنا من الاسارى " فصعب لان ذلك يخلي المواضع ويعطل ما يحتاج اليه من أنواع الصنائع ..." (٢)

وقد ذكر يحيى بن خلدون وظائف هؤلاء النصارى أثناء وصفه لانجازات السلطان أبي تاشفين المذكور في قوله :

" ... ولع ببناء الدور و تحبير القصور ، وتشييد المصانع ، واغتراس المنتزهات ، مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة أسرى الروم بين نجّارين ، وبنّائين ، وزلّيجين ، وزوّاقين ، وغير ذلك . (٣)

وهذه العناصر السكانية المختلفة كان لها دور في إغناء السكان في هذا الوسط الحضري بفئاته الاجتماعية المختلفة . وقد ساهم الجميع كل في مجال اختصاصه وعمله في تقدم المجتمع في مختلف المجالات ، فعرف المجتمع الزياني ازدهارا عظيما ، ورخاء اقتصاديا كبيرا ، وقد عبر " يحيى بن خلدون " عن هذه النهضة المادية التي تمّت في تلمسان على عهد " بني عبدالواد " قائلا :

" وبها للملك قصور زاهرة اشتملت على المصانع الفائقة ، والصروح الشاهقة ، والبساتين الرائقة ، مما زخرفت عروشه ، ونمّقت غروسه ، وتناسب أطواله وعروضه فأزرى بالخورنق واخجل الرصافة وعبث بالسديـــر ... (٤)

---

(١) واسطة السلوك ، ص ص ٨٠ - ٨١ ، بغية الرواد ج ١ ، ص ١٤٣

(٢) نشرت هذه الرسالة التي تحمل رقم ٩١ في :

los documentos arabes diplomaticos del archivo de la corona de aragon. Alarcon santon et garcia de linares. Madrid - Grenade. 1940

أنظر :

Le royaume abdelwadide a l'epoque d'abou hamou moussa 1er et d'abou tachfin 1er. Atallah Dhina. Alger 1985

(٣) بغية الرواد ، ج ١ ، ص ٢١٦ (٤) نفسه ، ص ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ازدهرت الزراعة والصناعة . فكان بها من الصنائع صناعة الجلد وقد ترقت رقيا عظيما واصبح انتاجها مشهورا بالمغرب ، ومنها السروج البديعة والاحذية العجيبة ، والحياكة ، ومنها نسج الصوف ، وكان من أهمّ صنائعها . وقال " يحيى بن خلدون " في وصف سكان تلمسان ونشاطهم الصناعي :

" ويعمر كلتيهما (١) ، من البشر ناس أخيار أولوا حياء ووقار ، ووفاء بالعهد وعفاف وديانة واقتصاد في المعاش واللباس والسكن على هدى السلف الصالح رضي الله عنه ، غالبُ تكسبهم الفلاحة وحوك الصوف يتفانون في عمل أثوابه الرقاق فتلفى الكساد ، والبرنس عندهم من ثماني اواق والاحرام من خمس ، بذلك عرفوا في القديم والحديث ، ومن لدنهم يجلب الى الامصار شرقا وغربا . " (٢)

وكانوا يشتغلون بصناعة الحرير قال " القلقشندي " في لبس سلطان افريقيا :

" وقماش يعرف بالتلمساني يعمل بتلمسان : اما صوف خالص او حرير خالص مختم وغير مختم (٣)

ووصف ابن سعيد تلمسان ومصنوعاتها قائلا :

" ومنها تحمل ثياب الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في بلاد المغرب وتحمل منها الجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك ، والاندلسيون يقولون كأنها من مدن الاندلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها . " (٤)

ومما يدل على تقدم الصناعة في تلمسان صناعة " المنجانة " التي اخترعها " ابن الفحّام " (٥)

---

(١) اى تاقرارت وتُجادير اللذان يشكلان تلمسان انظر : بغية الرواد ج ١ ، ص ص ٩٠ - ٩٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٢

(٣) صبح الاعشى ، ص ١٤٢

(٤) نفسه ج٥ ، ص ١٣٦

(٥) هو العالم الرياضي ابوالحسن على بن احمد المعروف بابن الفحّام ، قال عنه يحيى بن خلدون " اعرف اهل زمانه بفنون التعاليم " .. ظهر على يديه من الاعمال الهندسية المنجانة المشهورة بالمغرب ، توفي سنة ٧٤٩ هـ في تونس بالطاعون .. انظر : البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان " ابن مريم ، ص ١٦٥ . الجزائر ١٩٠٨ بغية الرواد ، ج١ ، ص ١١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسيأتي الحديث عنها .

واما التجارة فقد اتسع نطاقها في تلمسان حيث قصدها تجار الآفاق ، فاصبحت عدة الاتصال ، وملتقى طرق القوافل الى السودان ، قال المقرى يذكر نشاط اجداده التجارى " فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار ، وتأمين التجار،واتخذوا طبلا للرحل ، وراية تقدم عند المسير وكان ولد "يحيى" الذين احدهم ابوبكر خمسة رجال ، فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال،فكان ابوبكر ومحمد،وهما ارومتا نسبي من جميع جهات امي وابي بتلمسان ، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الاكبر بسجلماسة[1] ، وعبدالواحد وعلى وهما شقيقاهم الصغيران بايولاتن ، فاتخذوا بهذه الاقطار الحوائط والديار . فكان التلمساني يبعث الى الصحراوى ، بما يرسم له من السلع ، ويبعث اليه الصحراوى بالجلد والعاج والتبر ، والسجلماسي كلسان الميزان ، يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما باحوال التجار وأخبار البلدان " .(٢)

وهذا النشاط الزراعي والصناعي والتجارى قد أدى الى رخاء اقتصادى كبير، ولم يحجم هذا النشاط أو يتأثر الا في ظل بعض الاوضاع والظروف،كأيام الفتن والحروب،وبخاصة أثناء حصار تلمسان الطويل الذى كان تأثيره البالغ بالخصوص على سكان تلمسان .

وهذه النهضة المادية كان لها تأثير على الحياة الفكرية والادبية بما خلقت وهيّأت من ظروف تساعدهم على استتباب الامن،فنفقت بتلمسان " أسواق العلوم والصنائع ، فنشأت بها العلوم ، واشتهرت فيها الاعلام وضاهت امصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية . " (٣)

---

(١) مدينة في جنوب المغرب وطرف بلاد السودان ، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب وهي في منقطع جبل درن .. انظر : معجم البلدان ج٣، ص ١٩٢

(٢) نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٢٠٥

(٣) العبر ، ج٧ ، ص ص ١٦١ - ١٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحيـــاة الفكريـــــة

لقد شجع ملوك هذه الدولة العلم والعلماء بفتحهم باب الهجرة للعلماء على مصراعيه ، فجلبـــوا النخبة منهم من مختلف بلاد المغرب وخاصة من الاندلس التي ادى تفاقـم الوضع وتأزمه الـــى توافد علمائها على الحواضر المغربية ، فاستقر الكثير منهم بمدن المغرب الاوسط كوهران والجزائر وبجاية وتنس وتلمسان وغيرها من المدن مما كان له صدى في تطور الحياة الفكرية بهذه الديـــار . ومما ساهم في نماء هذه الحركة العلمية والفكرية في تلمسان وتألقها ايضا ما كان قائما بين ملـــوك المغرب الاسلامي من تنافس في مجال العلوم والآداب وعنايتهم بانشاء المؤسسات العلميـــة واستدعائهم لاشهر العلماء للتدريس فيها .

وأول من دشّن هذه الحركة الفكريه بتلمسان " يغمراسن بن زيّان " ، مؤسس هذه الدولة الذى شجـــع رجال العلم واعلى من مكانتهم وشأنهم . فاستقدم " أبا اسحاق ابراهيم بن يخلف التّنسي " (١) اعلم اهل زمانه وكانت الفتاوى تاتيه من افريقيا وتلمسان الى تنس . (٢) فقربه " يغمراسن " وادناه وكان عنده اثير المنزلة لا يوجه في الرسائل غيره . (٣) ووفد على السلطان " يغمراسن " مـــن الاندلس ابوبكر بن خطّاب (٤) فأحسن نزله وجعله صاحب القلم الاعلى . (٥) وكان ابن خطاب ذا مكانة علمية شهيرة لا سيما في الادب الذى برز فيه على سائر كتاب عصره حتى اعتبره بعض المؤرخين خاتمة اهل الآداب (٦) وسار السلطان " أبو سعيد عثمان " في الاتجاه نفسه ، فاحتفظ بمن كان في بلاط

---

(١) ابو أسحاق ابراهيم بن يخلف التنسي عالم وصالح ، الف كتبا كثيرة ، توفي بتلمسان سنـــة ٦٨٠ هـ ، وقبره بالعباد ، انظر حياته بالتفصيل في : بغية الرواد ، جـ١ ، ص ١١٤ ، تاريـــخ بن زيان ملوك تلمسان " ص ١٢٦

(٢) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ، ص ١٢٦

(٣) نفســه ، ص ١٢٧

(٤) محمد بن عبدالله بن داود بن خطاب الغافقي الاندلسي ، توفي سنة ٦٨١ هـ بتلمسان انظر : الاحاطـة جـ ٢ ، ص ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ،

(٥) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ، ص ١٢٢ (٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابيه من علماء وأدباء ، وحلّى بلاطه بالشاعر الكاتب " عبدالله بن خميس " (١) وجعله كاتب انشائه سنة ٦٧١ هـ (٢) وأما السلطان ، " أبو حمو الاول " فكان يسعى في ان تصبح تلمسان قبلة قصاد العلم مثلما غيرها من العواصم الاسلامية ورد عليه بعد انتهاء الحصار المريني لتلمسان الفقيهان العلمان " أبو زيد وأبو موسى " ابنا الامام " (٣)، فقربهما واكرم مثواهما وبنى لهما المدرسة التي تسمى بهما (٤) وكان يكثر من مجالستهما والاقتداء بهما ، وهذان الفقيهان من بلدة " برشك " (٥) سافرا الى المشرق فحصّلا علوما شتّى نقلية وعقلية ، لقيا بالشام " الجلال القزويني " صاحب التلخيص، وناظرا " تقي الدين ابن تيمية " فظهرا عليه (٦) وكان لهما بالشام ومصر صيت عظيم ، ثم دعتهما دواعي الاوطان بالرجوع الى المغرب فاعرضا عن بلدتهما وتوجها الى تلمسان فكانت لهما بها الرياسة وتخرج عليهما كثير من فضلاء المغرب ، ونشرا بها من

---

(١) ابو عبدالله محمد بن خميس ، شاعر متصوف ، توفي سنة ٧٠٦ قتيلا بغرناطة ... انظر : بغية الرواد ، ج ١ ، ص ص ١٠٩ ـ ١١٢ ، " نفح الطيب " ج ٥، ص ص ٣٥٩ ـ ٣٧٨ " الاحاطة اخبار غرناطة " ج ٢ ، ص ص ٥٤٧ ـ ٥٦٢ تحقيق : محمد عبدالله عنان . القاهرة ١٩٧٥

(٢) بغية الرواد ، ج ١ ، ص ٢٠٨

(٣) هما عبدالرحمن أبو زيد ، واخوه ابو موسى عيسى ابنا الامام محمد بن عبدالله ابن الامام ، توفي عبدالرحمن حسب صاحب " نيل الابتهاج " ص ١٤١ في سنة ٧٤٣ هـ ، وأخوه سنة ٧٤٩هـ ، راجع ترجمتهما في : المصدر المذكور ، ص ص ١٣٩ ـ ١٤٢ ، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ، ابن مرزوق التلمساني ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ تحقيق : د ماريا خيسوس بيغيرا الجزائر ١٩٨١ " بغية الرواد " ج ١ ، ص ١٣٠

(٤) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ص ١٣٩

(٥) مدينة صغيرة على تل ، وعليها سور تراب ، وهي على ضفة البحر ، ومنها الى شرشال عشرون ميلا ... انظر : القارة الافريقية وجزيرة الاندلس ص ١٥٨

(٦) نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٢١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلوم ما بقيت آثاره . (١) وفي عهد السلطان " ابي تاشفين الاول وفد على تلمسان الفقيه العالم المتفنن الجمّاعة " أبوموسى عمران بن موسى بن يوسف المشدّالي" (٢) اعرف اهل عصره بمذهب مالك . فأكرم نزله وأدام المبرّة به ، وولاّه التدريس بمدرسته الجديدة التي تعتبر من بدائع الدنيا (٣) على حد تعبير المقرى . ذلك ان " ابا تاشفين " كان مولعا ببناء الدور وتحبير القصور . (٤) وبناؤه لهذه المدرسة بهذا المستوى الفني الرفيع يدل على انه كان يقدر العلم واهله ويحب ان ينشر العلم والادب في عاصمته التي كان يريد لها ان تضاهي تونس وفاس وغرناطة ، لا في الميدان الثقافي فحسب، بل في الميدان المعمارى ايضا .

وفي اثناء الحكم المريني للمغرب الاوسط شيدت مدرسة بقرية " العبّاد " (٥) خارج تلمسان بأمر من السلطان " أبي الحسن المريني " سنة ٧٤٨ هـ (٦) واضاف ابنه " أبو عنان" مدرسة اخرى بجانب ضريح ومسجد " أبي عبدالله الحلوى (٧)سنة ٧٥٤ هـ ، فكان لتأسيس المدارس بتلمسان أيا م " أبي حمو الاول " وابنه " ابي تاشفين " ثم اثناء الحكم المريني، أثر هام في بعث الحركة الفكرية وازدهارها ، واقبال الكثير من الطلبة على اقتناء العلوم المختلفة من نقلية وعقلية واتقانها واما اعتناء " أبي حمو الثاني " - مجدد الدولة - بالعلم واهله فكان أشد وأقوى، لما امتاز به من الما م

---

(١) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ١٣٩

(٢) ابوموسى عمران المشد الى من اكبر فقهاء عصره ، واصله من بجاية ، لم يكن في معاصريه احد مثله علما بمذهب ما لك ، وحفظا لاقوال الصحابة ، وعرفانا بنوازل الاحكام ، وصوابا في الفتيا توفي سنة ٧٤٥ هـ انظر : بغية الرواد جـ ١ ، ص ص ١٣٠ - ١٣١ ، ونفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ص ٢٢٣ - ٢٢٤

(٣) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ص ١٤١ - ١٤٢

(٤) بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ٢١٦

(٥) العباد" مدينة صغيرة شبه ربض تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان انظر : وصف افريقيا " ص ٢٤

(٦) " المسند .

(٧) ابو عبدالله الشوذى الاشبيلي المعروف بالحلوى ،نزيل تلمسان ، متصوف ، توفي أواخر القرن السادس ، انظر : بغية الرواد " ، جـ ١ ، ص ص ١٢٧ - ١٢٨ ، البستان" ص ص ٦٨ - ٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالعلوم،واستعداد للمساهمة في النشاط الادبي ونظم الشعر،(١) فحظى العلماء والطلاب بعطفه وتشجيعه ، ونال الكتاب والشعراء من عطائه وكرمه . وأما اهتمامه بالمؤسسات العلمية،فيتمثل في بنائة لمدرسة سنة ٧٦٥ هـ بجانب الضريح الذى أقيم على قبور أبيه أبي يعقوب يوسف ، وعمّيه أبى سعيد وأبي ثابت (٢) وقد عهد للتعليم فيها الى أشهر علماء تلمسان آنذاك :أبى عبدالله الشريف التلمساني،(٣) وكان معظّما له وحفيّا به ومكرما ، وكان يوجهه في الرسائل المهمة (٤) وهكذاكانت تلمسان في عهد " أبي حمو الثاني "بفضل مدارسها الخمس ومسجدها الجامع مركزا ثقافيا هامّا ، وبلد اشعاع علمي يضاهي أهم مراكز المغرب الثقافية وغيرها ، وكان أُولو العلم يولون هذه المؤسسات العلمية عناية خاصة ، ويجدون الارزاق والمنح للاساتذة والطلاب والموظفين بها ، ويعهدون بالتدريس فيها لأشهر العلماء ، (٥) وأما طريقة التعليم بتلمسان ، فقد امتازت باعتمادها على البحث والتفكير،الامر الذى جعل " ابن خلدون " في حديثه عن صناعة التعليم يستحسن تعليمها وتعليم بجاية وتونس لاتصال سند التعليم وطريقته في هذه البلدان ، وانتقد تعليم " فاس " بأنه لا يكسب ملكة،ولا يفتق لسانا ولا يقرب مطلوبا،لخلوّها من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم،فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم . (٦)

---

(١) كان شاعرا ، وله كتاب أدبي ملوكي كتبه لولي عهد أسماه " واسطة السلوك في سياسة الملوك " انظر : تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ، ص ١٦١

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤١

(٣) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن علي الادريسي الحسني ، ولد سنة ٧١٠ هـ انتهت اليه امامة المالكية بالمغرب ، توفي سنة ٧٧١ هـ، .. انظر " التعريف بابن خلدون ، ص ٦٢ و ص ٤٤٨، " نيل الابتهاج " ص ص ٢٥٧ - ٢٦٩ " شجرة النور الزكية " " محمد بن مخلوف " ص ٢٣٤. بيروت . طبعة مصورة عن الاولى ١٣٤٩ هـ

(٤) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ، ص ١٧٩

(٥) " المسند " ص ص ٤٠٦ - ٤٠٧ بتصرف

(٦) مقدمة ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٧٧٢ - ٧٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذا كان لا بد ان تثمر تلك العوامل والاسباب عن نتائج طيبة في مضمار الفكر والثقافة بظهور اعلام مشاهير في مختلف فروع العلم ساهموا في تقدم واثراء الحركة العلمية الاسلامية في عصرهم في شتّى المجالات .

ففي العلوم الدينية برزت جلّة من العلماء منهم : أبو اسحاق ابراهيم بن يخلف بن عبدالسلام التنسي " ، وكان واحد عصره علما ودينا ، روى عن ابي على ناصر الدين المشدّالي " (١) ببجاية ، ورحل الى المشرق فأخذ المنطق والكلام وغير ذلك من العلوم عن كثير من علماء تونس والقاهرة منهم " القرافي " (٢) وابن دقيق العيد (٣) وروى عنه بتلمسان ابوعبدالله بن الحاج العبدرى (٤) وابن مرزوق الجد وغيرهما . وابو اسحاق الانصارى التلمساني (٥) الذى استقر " بسبتة " وبها توفي كان مبرزا في الفرائض ، وقد ألف منظومة في الفرائض تعرف بالتلمسانية (٦) . وابو عبدالله محمد التميمي (٧) وهو ينتمي الى اسرة عريقة من اسر تونس . قدم تلمسان وعيّن بها قاضيا

---

(١) هو منصور بن احمد بن عبدالحق المشدّالي ناصر الدين ابوعلى الزواوى البجائي نبغ في علوم شتى في الاصول والفقه والادب والكلام والتصوف . توفي سنة ٧٣١ انظر : " الدرر الكامنة " جـ ٥ ، ص ١٣١ ، عنوان الدراية ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠ . تحقيق عادل نويهض . بيروت ١٩٦٩

(٢) احمد بن ادريس بن عبدالرحمن ابوالعباس ، من علماء المالكيه ، وهو مصرى المولد والمنشأ والوفاة ، توفي سنة ٦٨٤ هـ ، انظر : شجرة النور الزكية " ص ١٨٨

(٣) محمد بن علي وهب بن مطيع ، ابو الفتح المعروف بابن دقيق العيد ، قاضٍ من اكابر العلماء بالاصول ، توفي سنة ٧٠٢ هـ ، انظر : فوات الوفيات جـ ٣ ، ص ص ٤٤٢ - ٤٥٠ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي ، جـ ٦ ، ص ص ٥ - ٦ بيروت ١٩٧٩

(٤) محمد بن محمد بن الحاج ابوعبدالله العبدرى المالكي الفاسي ، نزيل مصر ، توفي سنة ٧٣٧ هـ انظر : شجرة النور الزكية ، ص ٢١٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٩ ، ص ٣٠٢

(٥) ابراهيم بن محمد بن ابي بكر الانصارى توفي سنة ٦٩٠ هـ انظر : الاحاطة جـ ١ ، ص ١٨١ ، بغية الرواد جـ ١ ، ص ١٠٩

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٩

(٧) أبو عبدالله محمد بن احمد بن على بن أبي عمرو التميمي ، توفي سنة ٧٤٥ هـ ، بغية الرواد جـ ١ ، ص ١٣١ ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودرس العلوم الدينية ، وروى عنه " ابوعبدالله الشريف " و " المقرى الجد " وغيرهما ، ومن تآليفه " ترتيب كتاب اللخمي على المدونة " في الفروع (١) .

ومن أعيان فقهاء المالكية ، " محمد بن يحيى بن النجّار التلمساني "(٢) اخذ العلم بتلمسان عن جملة شيوخ منهم " الآبلي " الذى قال فيه :-

" ما قرأ على احد حتى قلت له : لم يبق لي ما اقول لك غير ابن النّجار" واعجب " المقرى " بذكائه فقال : " لم يكن ابن النّجّار بصيرا بالفقه)وانما عنده ذكاء زائد " (٣) وابوعبدالله المقرى (٤) الذى ولد بتلمسان في عهد " ابي حمو الاول " ونشأ بها ، ودرس على علمائها امثال الاخوين ابني الامام ، وابي موسى عمران المشدّالي ، وابي عبدالله التميمي ، وابن النّجار وغيرهم.(٥) ولما احتل " ابوالحسن المريني " تلمسان سنة ٧٣٧ هـ ، قدم معه علماء فاس)فدرس عليهم " المقرى " واستفاد من " ابي محمد عبد المهيمن الحضر مي في الحديث والعربية.(٦)ومن اشهر تلامذ ته " لسان الدين بن الخطيب " و " عبدالرحمن بن خلدون " والشاطبي " (٧) وابن زمرك (٨) وغيرهم وقد ترك بعض التآليف منها : كتاب الحقائق والرقائق " في التصوف ، وكتاب المحاضرات

---

(١) بغية الرواد جـ ١ ، ص ١٣٢

(٢) أبو عبدالله محمد بن على بن النجار التلمساني ، توفي سنة ٧٤٩ بتونس انظر : " نفح الطيب " جـ ٥ ، ص ص ٢٣٦ - ٢٣٨ ، " رحلة بن خلدون " ص ٤٧

(٣) نفح الطيب جـ ٥ ، ص ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٤) محمد بن احمد بن ابي بكر بن يحيى بن عبدالرحمن بن ابي بكر بن على القرشي التلمساني المقرى ، توفي بفاس سنة ٧٥٠ ، انظر : " الاحاطة " جـ ٢ ، ص ص ١٩١ - ٢٠٣ " نفح الطيب " جـ ٥ ، ص ص ٢٠٣ - ٢١٤ ، " بغية الرواد " جـ ١ ، ص ١٢١ وذكر انه توفي سنة ٧٥٦ هـ .

(٥) ولمزيد من الاطلاع انظر شيوخ المقرى في " نفح الطيب " جـ ٥ ، ص ص ٢١٥ - ٢٥٤

(٦) عبد المهيمن بن محمد بن عبدالمهيمن ابو محمد الحضرمي ، كان غزير العلم بالادب والتاريخ ولد ونشأ بسبتة ، توفي بتونس في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ ، انظر : جذو ة الاقتباس" ص ص ٤٤٤-٤٤٥ ، شجرة النور الزكية " ص ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٧) ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي : اصولي حافظ كان من ائمة المالكية ، توفي سنة ٧٩٠ هـ ، انظر : نيل الابتهاج " ص ص ٤٦ - ٥٠

(٨) محمد بن يوسف ، أبو عبدالله المعروف بابن زمرك ، وزير ، من كبار الشعراء والكتاب . الاندلس ، توفي سنة ٧٩٣ هـ .. انظر : " نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ص ١٤٥ - ١٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكتاب " عمل من طبّ لمن حبّ " وكتاب القواعد . (١)

وممن اشتهر في العلوم الدينية ايضا ابنا الامام أبو زيد عبدالرحمن وأبو عيسى موسى ، وأبو عمران موسى المشدّالي ، ومحمد بن مرزوق (٢) وغيرهم .

وممن اشتهر بالتصوف أبومحمد عبدالله بن عبدالواحد المجّاصي الملقب بالبكّاء لكثرة بكائه وخشيته وتقواه ، رحل الى الشرق لطلب العلم وانتصب بتلمسان للتدريس والوعظ ، ومن تلامذته ابوعبدالله الشريف ، وابن مرزوق الجد ، والمقرى الكبير ، وتاريخ وفاته مجهول.(٣) واما في مجال العلوم الطبيعية،وهي تشمل علوم الطب والرياضيات والكيمياء وغيرها،فقد عرف ابوعبدالله محمد بن علي بن النّجّار التلمساني الذى اخذ عن الآبلي ، ثم رحل الى المغرب الاقصى ، فدرس بمراكش عن ابي العباس بن البناء (٤) فنبغ في العلوم العقلية والتعاليم ، وعاد الى تلمسان ، فدرس بها ثم التحق ببلاط ابي الحسن المريني ايام حكمه للمغرب الاوسط ، وصحبه الى افريقيا الى ان توفي سنة ٧٤٩ هـ بالطاعون . (٥)ومن تلامذته ابوعبدالله الشريف ، والمقرى الكبير وابوالحسن بن الفحّام صاحب المنجانة .

ومن هؤلاء العلماء،أبوعبدالله محمد بن ابراهيم بن احمد العبدرى الآبلى التلمساني . أصل اجداده من آبلة بالاندلس ، ولد بتلمسان سنة ٦٨١ هـ ، درس على " ابي الحسن التنسي "،وحذق التعاليم

---

(١) نفح الطيب جـ ٥ ، ص ٢٦١ ، صص ٢٨٤ - ٢٨٥

(٢) محمد بن احمد بن محمد بن محمد بن ابي بكر بن مرزوق ابوعبدالله التلمساني العجيسي المالكي ولد سنة ٧١١ هـ ، وتوفي سنة ٧٨١ هـ بالقاهرة ، انظر : ، معجم الادباء جـ ١٧ ، ص ١٣٥ ، صص ٢١٢ - ٢١٣ ، نفح الطيب ، جـ ٥ ، صص ٢٣٠ - ٢٣٢

(٣) بغية الرواد ، جـ ١ ، صص ١٠٦ - ١٠٧

(٤) احمد بن محمد بن عثمان الازدى العددى ، ابوالعباس ، ابن البناء ، رياضي باحث من اهل مراكش مولدا ووفاة . توفي سنة ٧٢١ هـ ، انظر : جذوة الاقتباس ، جـ ١ ، صص ١٤٨ - ١٥٢ ، " الاعلام بمن حل بمراكش " ، جـ ١ ، صص ٣٧٥ - ٣٨٤

(٥) " تعريف الخلف برجال السلف " الحفناوى ، جـ ٢ ، صص ٥٦٤ - ٥٦٥ . ط: الاولى ، ١٩٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واخذ عن ابي موسى ابن الامام علما غزيرا، وقد تتلمذ له جيل من العلماء والكبار في المغرب مثل عبدالرحمن بن خلدون واخوه يحيى، والمقرى الكبير، وأبوعبدالله الشريف، وابن مرزوق الجد وغيرهم، وقد توفي سنة ٧٥٧ هـ. ومنهم أبوالحسن على بن احمد المعروف بابن الفحّام، اخذ عن ابي عبدالله بن النجار، واشتهر بصنع المنجانة التى ازدان بها قصر " ابي حمو الثاني " واشاد بذكرها شعراء بلاطه وقد سبقت الاشارة اليه.

وفي مجال العلوم اللسانية والاجتماعية، كاللغة والنحو والادب والبلاغة والتاريخ والجغرافيا، اشتهر فيها كثير ممن سبق ذكرهم في مجال العلوم الدينية، كأبي عبدالله الشريف، وابن مرزوق الخطيب وابي محمد بن عبدالله الشريف وقد كان اهتمام علماء الدين والشريعة باللغة راجعا لما لها من اتصال وثيق بعلم القرآن والحديث، وممن اشتهر في هذا المجال، أبوبكر بن خطاب نزيل تلمسان وقد سبقت الاشارة اليه، وابوعبدالله بن خميس، وهو شاعر مطبوع اثنى عليه العبدرى (٢) في رحلته، وذكر بعض قصائده. وقد اشرف ابن خميس على ديوان الانشاء ايام السلطان " ابي سعيد الاول "، ثم غادر تلمسان في اثناء الحصار الطويل، ونزل سبتة، ثم رحل الى غرناطة واخر سنة ٧٠٣ هـ، فأقام بها في خدمة ابن حكيم، (٣) الى ان توفي سنة ٧٠٨ هـ. ومنهم أبو عبدالله محمد بن منصور

---

(١) نفح الطيب جـ ٧، ص ص ٥٦١ - ٥٦٢ بتصرف. ولمزيد من التفصيل عن ترجمته انظر المسند ص ٢٦٦، جذوة الاقتباس ق ١، ص ٣٠٤

(٢) محمد بن محمد بن على بن احمد ابوعبدالله العبدرى. توفي سنة ٦٨٨ هـ، انظر : شجرة النور الزكية، ص ٢١٧ " وذكر فيه انه لم يقف على وفاته. ص ٢١٧ -

(٣) محمد بن عبدالرحمن بن ابراهيم اللخمي الرندى أبوعبدالله وزير اندلسي توفي سنة ٧٠٨ هـ مقتولا. انظر : ازهار الرياض جـ ٢، ص ص ٣٤٠ - ٣٤٧

(٤) الاحاطة جـ ٢، ص ص ٤٤٤ - ٤٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بن هدية القرشي من نسل عقبة بن نافع ،وكان أديبا كاتبا ، فقيها مؤرخا ، اشرف على ديوان الرسائل بتلمسان في عهد " أبي حمو الاول " وله تاريخ تلمسان ، توفي سنة ٧٣٥ هـ . (١) وابو عبدالله محمد بن البناء)وكان فقيها أديبا شاعرا ، وتاريخ وفاته مجهول . (٢) وابو عبدالله بن أبي جمعة التلاليسي ، طبيب السلطان " أبي حمو الثاني "، وكان شاعرا بارزا من شعراء بلاطه ، واشتهر بالتوشيح وتاريخ وفاته مجهول . (٣)

ويمكن كذلك ان نذكر كلا من " أبي عبدالله الشغرى " (٤) و "أبي زكريا يحيى بن خلدون وغيرهم .

---

(١) نفح الطيب ،جـ ٥ ، ص ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ وانظر : ترجمة حياته ايضا في البستان ص ٢٢٥

(٢) انظر بغية الرواد جـ ١ ، ص ١٢٤ ، البستان ص ٢٢٦

(٣) نفح الطيب ،جـ ٧ ، ص ١٢٩ ، البستان ص ١٢٦

(٤) محمد بن يوسف المعروف بالشغرى أو القيسي أندلسي الاصل ، تاريخ وفاته مجهول ، وأغلب الظن أنه توفي في بداية القرن التاسع الهجرى .. أنظر : نفح الطيب جـ ٧ ، ص ١٢١ ، البستان ص ١٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النشاط العلمي في الفترة المرينية

لم تكن الفترة المرينية بالمغرب الاوسط التي دامت حوالي ربع قرن فترة ركود في تلمسان ، فلم تنطفىء شعلة العلم في هذا المركز الثقافي المتقدم إذ استمر النشاط الفكري والتعليمي مثلما كان في عهد بني عبدالواد ،وقد عرف عن بني مرين تشجيعهم للعلم وأهله فكان اول عمل قام به "ابوالحسن المريني " اثناء استيلائه على تلمسان ان ضمّ الى مجلسه العلمي كثيرا من علمائها،مثل ابني الامام اللذين زادت حظوتهما عنده،الى ان توفي ابو زيد في عام ٧٤٣ هـ وأخوه أبو موسى من بعده سنة ٧٤٩ هـ اثر الطاعون الجارف . كما استدعى ابو الحسن " الآبلي" وأجمل مجلسه به ونظمه في طبقة العلماء (١) . وادنى القاضي " أبي عبدالله محمد الندرومي " (٢) وولاه قضاء عسكره ، ولم يزل في جملته الى ان هلك بالطاعون بتونس سنة ٧٤٩ هـ . (٣) ونظم ابوالحسن في مجلسه أبا عبدالله محمد بن النجّار في جملة الفقهاء ، وابا العباس احمد بن محمد الزّواوى امام المقرئين بالمغرب وكان اماما في فن القراءات وصاحب ملكة لايجارى.(٤) ولما دخل السلطان ابوالحسن المريني تونس، صحبه مجموعة أجلّة من العلماء الذين اختارهم لمجلسه العلمي ، وكان على رأسهم ابوالقاسم ابن رضوان (٥) فمدح شاعر تونس أبوالقاسم الرحّوى " ابن رضوان هذا ونوّه بالاعلام القادمين مع السلطان في قصيدة جاء فيها :

---

(١) رحلة ابن خلدون ، ص ٢٢

(٢) محمد بن عبدالله بن عبدالنور الندرومي . انظر : المصدر السابق ص ٤٦ ، شجرة النور الزكية ص ٢٢١

(٣) جذورة الاقتباس ق ١ ، ص ٣٠٢

(٤) انظر رحلة ابن خلدون ص ٤٥

(٥) ابو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان المالقي ، صاحب القلم الاعلى في دولة بني مرين اصله من مالقة ، توفي سنة ٧٨٣ هـ " انظر : المصدر السابق ص ٤١ - ٤٤ ، الاستقصا ج ٣ ، ص ٢٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـــم القـــوم كلُّ القوم امـــا حلو مُهـــم ... فأرسخُ من طودَيْ ثَبير (١) وثَهْـــلانِ (٢)

فلا طيشَ يعْرُوهـــم وامّـا علُومهـــــم ... فأعلامهـا تَهديك من غير نـــــيران

بفقهٍ يَشيم الاصبحيُّ (٣) صباحَـــــه ... وأُشهب (٤) منه يستدلُّ بشُهْبـــــان

وحُسْنِ جدالٍ للخصوم ومنطـــــــق ... يجيئان في الاخفى بأُوضح برهـــــان

سقت روضـةَ الآداب منهم سحائـــبٌ ... سَحَبْنَ علا سَحْبانَ (٥) أذيالَ نسيـــان

فلم يبق نأى ابن الامام (٦) شماخـــة ... على مدن الدنيا لأنف تلمســـان

وبعد نَوى السّطِيّ (٧) لم تسْطُ فاسُـــه ... بفخرٍ على بَغْدان في عصر بَغْـــدان

وبالآبلي استسة · الارض وبلهـــــا ... ومستوبل ما مال عنـــه لأظعـــان

وهامت على عبدالمهيمن تونـــــس ... وقد ظفـرت منه بوصل وقربـــان

وما علِقت من الضمائر غـــــيرَه ... وانْ هُويت كلّاً بحبّ ابنِ رِضـــوان (٨)

وهؤلاء الاعلام الذين ذكرهم " الرّحوى " في هذه الابيات ، هم سبّاق الحلبة في مجلس السلطـــان

---

(١) جبل بظاهر مكة ، تاج العروس لمرتضى الزبيدى ، جـ ٣ ، ص ٧٢ ، مادة ثبر

(٢) ثهلان : جبل في بلاد بني نمير ، انظر : معجم البلدان " جـ ٢ ، ص ٨٨

(٣) مالك بن انس الامام المعروف بالاصبحي ، نسبه الى ذي اصبح ، توفي سنة ١٧٩ . انظر : الديباج المذهب " ابن فرحون ، ص ص ١٧ - ٣٠ في معرفة علماء المذهب

(٤) ابا عمرو اشهب بن عبدالعزيز بن داود الفقيه المالكي المصرى ، توفي سنة ٢٠٤ ، انظـــر وفيات الاعيان " جـ ١ ، ص ٩٧ تحقيق د: احسان عباس ١٩٦٨

(٥) سحبان بن زفر بن اياس الوائلي ، يضرب به المثل في البيان ، ادرك الاسلام ومات سنـــة ٥٤ هـ ، انظر : سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون " ابن نباتة ، ص ٧٥

(٦) يشير الى ابن الامام أبو يد عبدالرحمن

(٧) محمد بن على بن سليمان ، من قبيلة سدّة من بطون اوربة بنواحي فاس ، انظر : رحلة بن خلدون ، ص ٣١

(٨) الابيات من رحلة ابن خلدون ، ص ص ٢٤ - ٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" أبي الحسن "، اصطفاهم لصحابته من بين أهل المغرب الاوسط والمغرب الاقصى (١) وقد سلك " ابوعنان " مسلك ابيه في تقريب العلماء والرفع من شأنهم ، فنظم " الآبلي " في مجلسه العلمي وكان يقرأ عليه ، واستخلص ابوعنان " الشريف التلمساني " ورحل به الى فاس. وتذنبغ عبدالله الشريف في علوم التفسير . ذكر انه قرأ يوما في مجلس السلطان أبيعنان درسا في التفسير ، فنبغ منه من ينابيع الحكمة ما أدهش الحاضرين (اى علماء المجلس) ، وأتى بمالم يحيطوا به حتى قال السلطان عند فراغ الشيخ : " إني لأرى ينابيع العلم تخرج من منابت شعره " وجاء اليه القاضي " الفشتالي "(٢) بعد خروج الناس فطلب منه تقييد ما صدر عنه في ذلك اليوم. (٣) وهذا يدل على طول باع " الشريف " وعلوكعبه في مجال التفسير . وهكذا اشتهرت تلمسان في ظل الحكم الزياني وحتى في فترة الحكم المريني بأنها مدينة ثقافية ، واكدّ ابن خلدون الذى عاش فيها أنها نفقت بها اسواق العلم والصنائع فنشأبها العلماء واشتهرت فيها الاعلام وضاهت امصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية (٤) .

---

(١) رحلة ابن خلدون ، ص ٢٨ بتصرف

(٢) محمد بن احمد بن عبدالملك الفشتالي الفاسي المالكي ، توفي سنة ٧٧٩
نيل الابتهاج " ص ص ٢٦٥ - ٢٦٦

(٣) البستان ، ص ١٦٦

(٤) العبر ، ج ٧ ، ص ص ١٦١ - ١٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ ب ـ الحيـــــــاة الادبيـــــــــــة

فـــــــي

تلمســـــــــــان

فـــــــي

القرن الثامـــن الهجـــ

==========

كان القرن الثامن الهجرى عهد رخاء مادى ، ونبوغ فكرى ، وازدهار حضارى في تلمسان مما كان له أثر على ازدهار الادب ونفاق سوقه ، ولعل من أهم العوامل التى ساعدت على ازدهار الادب ونبوغه أن كثيرا من ملوك هذه الدولة كانوا من الادباء والشعراء يتذوقون الشعر ، ويحضرون مجالس العلماء (١) ، بل يشاركون في المناقشة والمناظرة وابداء الرأى . وقد اشتهرت مجالس السلطان " أبي حمو الثاني " العلمية وكان بلاطه منتدى لكثير من الأدباء والعلماء وكذلك السلطان " أبو زيان الثاني " فانه كان أديبا يتذوق الشعر ، ويشارك في الحركة الادبية . " فقد كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أجفانه ، فلم تخل حضرته من مناظرة ولا عمرت الا بمذاكرة ومحاضرة " (٢) كما جاء على لسان صاحب " نظم الدر والعقيان " .

كما ـ صنف كتابا نحا فيه منحى التصوف سماه " كتاب الاشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمّارة " (٣) وقد سعى هؤلاء الملوك الى تنشيط الحركة العلمية والأدبية بتقريبهم لأهل العلم والادب ، وإحاطتهم بالرعاية والعناية ـ(٤) فأصبح البلاط الزياني يضمّ نخبة من الأدباء والشعراء كانوا ينطقون بمجد الدولة ، ويذكرون انتصاراتها ، ويسجلون احتفالاتها في المواسم والأعياد كالمولد النبوى مثلا ، ووجد هؤلاء الشعراء البيئة الخصبة لمواهبهم ، وكان لدلبيعة تلمسان وضواحيها تأثير كبير في نفوسهم وانتاجهم ، وذلك الى جانب الأحداث التى وقعت في هذه الفترة ، اذ كان لذلك كله تأثير عميق في نفوس الشعراء ، مما ساعد على صقل مواهبهم الشعرية . فاصبح حقل الادب خصبا وسوقه رائجة ، وزاد في خصبه ورواجه ، وجود جالية أندلسية ورثت إرثا حضاريا وأدبيا وفكريا .

---

(١) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ١٨٠ ، الاحاطة ، ج ٣ ، ص ص ٢١٥ـ٢٢٣ تعريف الخلف برجال السلف ق ١ ص ص ٧٩ ـ ٨٠

(٢) انظر : تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ٢١١

(٣) ذكره التنسي في نظم الدر والعقيان وهو مفقود . انظر تاريخ بنى زيان ص ٢١١

(٤) نفسه ، ص ص ١٤١ ـ ١٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الاول

الشعر واغراضـــــه

اذا ألقينا نظرة عامة على أغراض الشعر التي كانت سائدة حسبما تصوره المصادر التي بين أيدينـــا نلاحظ أن الشعراء قد طرقوا معظم الأغراض الشعرية المعروفة كالمدح والرثاء والفخر ، وشعر الموالـــد النـبوية ، والموشحات وغيرها . إلا أن تلك المصادر غالبا ما تكون شحة علينا في تقديم المادة الكافية في هذا الشأن . ومن المحتمل أن تكون مصادر أخرى قد ألمّت بجوانب من النشاط الأدبي والشعـــري ، لكنها لم تصل الينا . (١)

وعليه فاننا نلاحظ - انطلاقا من النصوص التي وصلت الينا - رواج بعض الأغراض الشعريـــة وانتشارها أكثر من الأغراض الاخرى. ويأتي في مقدمة هذه الاغراض شعر المدح بشكل عام وشعـــر الموالد النبوية بشكل خاص .

---

(١) مثل درر الغرر لمؤلف مجهول ذكره التنسي في " نظم الدر والعقيان " انظر : تاريخ بـــني زيان ملوك تلمسان " ص ١٣٢ وراح الارواح " للتنسي ايضا ، ذكره المقرى في " نفـــح الطيب " جـ ٦ ، ص ص ٣٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شعر المولديـــــــات

ومفردها " مولدية " نسبة الى مولد ، (١) والمقصود به ذكرى ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم والاحتفال به في الثاني عشر من ربيع الأول .

وأما المراد بالمولدية فتطلق على القصيدة التي ينظمها الشاعر بمناسبة مولد الرسول يشيد فيها بذكـــره ويشير الى معجزاته ، على أن هذه المولدية لا تختصّ بمدح الرسول وحسب ، بل تضمنت الى جانـــب ذلك مدح ولى النعمة . فهى باختصار قصيدة مدح لا تختلف عن قصائد المدح العادية الا من حيـــث دفق العاطفة وقوتها .

ولكن ينبغى أن نميز بين المولدية وقصيدة مدح الرسول ، فمع أن القصيدتين تشتركان في هـــذا المدح الموجه للرسول عليه السلام ، إلا أنهما تختلفان في أن المولدية قصيدة مرتبطة بمناسبـــة خاصة وتلقى من قبل شاعر البلاط ، في حين أن قصيدة المدح النبوى لا مناسبة خاصة لها سوى تعلـــق صاحبها بحب رسول الله ومدحه وذلك بتمجيد صـفاته ، والتنويه بمنزلته كحامل رسالة سماويـــة ، ولا تلقى بالضرورة في بلاط معيّن . (٢) ومن هنا فتلك المدائح النبوية التى عرفت عند كـــل من " كعب بن زهير " و " البوصيرى " وغيرهما تبقى بعيدة عن غرض المولديات .

والمولديات من الأغراض الشعرية التى سادت وازدهرت في " تلمسان " بكثرة كاثرة في هـــذا القرن بوجه خاص ، ولا سيما في عهد " أبي حمو الثاني " بوجه أخصّ . وعلينا في البداية أن نحاول تحديد بداية انتشار ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوى ثم نشير بعد ذلك الى ظهور القصائد المولديـــة التى تعتبر استجابة وانعكاسا له .

ويرجع هذا التقليد كما تشير بعض المصادر الى القرن الرابع الهجري وبالتحديد الى العهـــد الفاطمي فقد ذكر " تقي الدين المقريزى " مؤرخ هذه الدولة في كتابه " المواعظ والاعتبـــار "

---

(١) تا ج العروس من جواهر القاموس " محمد مرتضى الزبيدى مادة ولد ج ٩ ، ص ٣٢٧ بتصرف

(٢) ابن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه د . احمد سليم الحمصي ، ص ١٣٢ ط . الاولى ١٩٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنه " كان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم وهي : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام وموسم عاشوراء ، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم . " (١)

وقد تطور الاحتفال بالمولد النبوى في أواخر القرن السادس الهجرى في المشرق على يد سلطان " اربيل " (٢) مظفر الدين (٣) الذى عظم الاحتفال بالمولد النبوى . وصارت الناس تتوافد عليه من أنحاء البلاد في كل عام . (٤) وذكر " ابن خلكان ، ايضا أن " ابن دِحْيَة الكلبي " (٥) حينما قدم " اربيل " سنة ٦٠٤ هـ وجد سلطانها " مظفر الدين " مولعا بعمل مولد النبي ، عظيم الاحتفال به ، فألف له كتابا أسماه " التنوير في مولد السراج المنير " ختمه بقصيدة مطلعها :

لولا الوشاة وَهُمُ أعداؤنا ما وَهِمُوا

فأجازه الملك بالف دينار - (٦)

وأما في المغرب فقد انتقلت هذه العادة بعد ذلك على يد " أبي العباس العزفي " أمير سبتة الذى كان أول من دعا الى الاحتفال بالمولد النبوى في المغرب وأول من أحدثه (٧) وألف في هذا المجال كتابا اسماه " الدر المنظم في مولد النبي المعظم " .(٨)

ونظرا للنجاح الذى لقيته دعوة "العزفي" فقد تحولت ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوى الى شرعة رسمية كما تشير بعض المصادر . ففي "البيان المغرب" ما يوضح أن الموحدين احتفلوا به في

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، المعروف بالخطط المقريزية المقريزى جـ١ ص٤٩ بيروت
(٢) قلعة حصينة ومدينة كبيرة " وهي بين الزابين تعد من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين انظر : معجم البلدان جـ ١ ، ص ١٣٨
(٣) ابو سعيد كوكبورى بن أبي الحسن بن على بكتكين بن محمد الملقب بالملك المعظم توفي سنة ٦٣٠ هـ انظر : " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " ابن خلكان ، جـ ٤ ، ص ص ١١٣ - ١٢١
(٤) المصدر نفسه ، ص ١١٧
(٥) عمر بن الحسن بن على بن محمد أبو الخطاب المعروف بابن دِحْيَة الكلبي ، توفي سنة ٦٣٣ هـ من كبار علماء المغرب ، انظر : نفح الطيب جـ ١ ، ص ٣٦٨
(٦) وفيات الاعيان " جـ ٣ ، ص ص ٤٤٩ - ٤٥٠ (٧) الاستقصا ، جـ ٣ ، ص ٩٠
(٨) مخطوط بمكتبة الاسكريال . أسبانيا تحت رقم ١٧٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أواخر حياتهم . فذكر أن " المرتضي " (١) كان يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخير والانعام ، وكان أشار له بذلك الفقيه " أبو القاسم العزفي " لأنه لما ألّف كتابه - الدر المظم : بعث به اليه وأشار بذلك الرأي عليه " . (٢) كما تحولت الى شرعة رسمية عند " بني مرين " وذلك في عهد السلطان " أبي يعقوب يوسف " عام ٦٩٠ هـ . (٣) والأمر نفسه عند سلاطين " غرناطة " حيث يشير ابن خلدون الى أن سلطانها " يوسف الاول " كان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة وانشاد الشعراء اقتداء بملوك المغرب . (٤) ويذكر " ابن خلدون " أنه أنشد قصيدة بهذه المناسبة في البلاط النصري مطلعها :

حَيِّ المعاهد كانتْ قبلُ تَحْيِيني بواكف الدَّمْع يَرْوِ بِها ويُظْمِيني ؟ (٥)

أما بنو عبدالواد فلا نعلم بالتحديد متى أصبح هذا الرسم معمولا به في بلاطهم لكن المؤكد انه كان من أعيادهم التي بالغوا في الاحتفاء بها كما سنعرف لا حقا .

وأما الشق الثاني المتعلق بأوليات الشعر المولدى فان ما جاء في كتاب " تذكرة المحبين في شرح أسماء المرسلين " للشيخ أبي عبدالله الرصاع " (٦) الذى اشار اليه ابن عمار في رحلته- يقود الباحث الى نتيجة مفادها أن الشعر كان أسبق في الاهتمام بمراسيم المولد النبوى الشريف ، فمما جاء فيه:

---

(١) عمر بن اسحاق بن يوسف بن عبدالمؤمن ، أبو حفص ، تولى الحكم بعد وفاة المعتضد سنة ٦٤٦ هـ ، توفي سنة ٦٦٥ هـ انظر : جذوة الاقتباس ق ٢ ، ص ص ٤٩٢ - ٤٩٣ " الاستقصا ج ١ ، ص ٢٠٥

(٢) البيان المغرب " ج ٣ ، ص ٤٥٢

(٣) الاستقصا ج ٣ ، ص ٢١٩

(٤) رحلة ابن خلدون " ص ٨٥

(٥) المصدر نفسه ، ص ٨٥

(٦) محمد بن قاسم الانصارى ، أبوعبدالله الرصاع : قاضي الجماعة بتونس ، ولد بتلمسان ونشأ واستقر بتونس الى أن توفي بها سنة ٨٩٤ هـ أنظر : البستان " ص ٢٨٣ ، شجرة النور ص ص ٢٥٩ - ٢٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ومن أحسن ما قيل في ذلك اليوم العظيم ، ويدخر ثوابه عنه نبي الله الكريم أبيات " الشقراطيسي " في مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ،، وهي من القصائد العظام ، البديعة النظام ، الرائعة المعاني ، الوثيقة المباني ، وهي من الطراز الأول وعليها في هذا الباب المعول ومطلعها :

الحمد لله منا باعث الرسل ... هدى بأحمد منّا أحمد السبل

خيرُ البريّة من بدوٍ ومن حضرٍ ... واكرم الخلق من حافٍ ومُنْتَعِل (١)

ويعقب " الرّصاع " بعد ايراده لكل القصيدة قائلا :

" ناظم هذه القصيدة رحمه الله الشيخ الفقيه العالم الصالح البليغ المفلق أبو محمد عبدالله بن الشيخ الفقيه الصالح أبي زكريا يحيى بن علي الشقراطيسي التّوزري - وشقراطس قصر قديم من قصور قَفْصة - (٢) توفي رحمه الله تعالى يوم الثلاثاء لثمان خلون من ربيع الاول سنة ٤٦٦ هـ ، وقصيدته هذه من أجلّ القصائد التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وحِيكَ في جنابه العالي بردها المعلم ، وقد لهج الناس بذكرها حديثا وقديما واتخذوا من براعة نظمها ساقيا ونديما واعتنوا بها اعتناء تاما وتصرفوا فيها تصرفا عاما فمن بين مخمس لها وشارح . " (٣)

ومن هذا النص الذي يحدد وفاة " الشقراطيسي " صاحب القصيدة المذكورة بمنتصف القرن الخامس الهجري يتضح أن المغرب قد عرف هذا الاحتفاء قبل دعوة " العزفي " ومن المحتمل أن يكون الفاطميون قد أحدثوا رسمه قبل سفرهم الى مصر أو جاء بامر من خلفائهم في المغرب . (٤) وقد تركت هذه القصيدة أثرا كبيرا لدى الشعراء وحافزا لهم في النهج على منوالها وذلك لانقياد

---

(١) نحلة اللبيب باختيار الرحلة الى الحبيب " ص ص ١١٦ - ١١٧ ، الجزائر ١٩٠٢
* وأورد " العبدري " كذلك هذه القصيدة في رحلته ، انظر : ص ص ١٢٠ - ١٢١

(٢) بلدة صغيرة في طرف افريقيا من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد ، انظر : " معجم البلدان " ج ٤ ، ص ٣٨٢

(٣) رحلة ابن عمار ، ص ص ١١٦ - ١١٧

(٤) دراسات في الأدب المغربي القديم " د : عبدالله حمادي ص ٢٣٩ بتصرف . الطبعة الاولى ١٩٨٦ الجزائر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البلاغة في أزمتها ولكونها فتحت للافتتان أبوابا ، وأحكمت من نسج البديع أثوابا وصار صيتها في الآفاق ، وانعقد على بركتها الاجماع والاتفاق . " (١) الأمر الذى دفع الشعراء والأدباء الى تخميسها كما فعل " أبو عبدالله المصري " (٢) الذى أعجب بها وقال في حقها " إنها يئست من معارضتها الاطماع ، وانعقد على تفضيلها الاجماع ، فطبقت أرجاء الارض وأشرقت منها في الطول والعرض . " (٣) كما خمسها أيضا الفقيه الأديب " أبو عمرو عثمان بن عتيق المعروف بابن عربة " (٤) والفقيه الأديب الفاضل الأوحد " أبو بكر محمد بن حبيش " (٥) وهو من المتقنين المجيدين وذوى الفضائل المبرزين . " (٦) وهذا كله يدل على مدى تأثير هذه القصيدة على القصائد التى جاءت بعدها ولا سيما المولديات التي اتخذت منها نموذجا مثاليا يحتذى به في بناء القصيدة المولدية شكلا ومضمونا .

---

(١) رحلة ابن عمار ، ص ١١٧

(٢) محمد بن علي بن محمد بن علي بن عمر أبوعبدالله التوزرى المعروف بالمصري ، أديب متفنن " " ٦١٨ هـ - ٦٨١ هـ " انظر : شجرة النور" ص ١٩١

(٣) الرحلة المغربية " العبدرى ، ص ٤٥

(٤) شاعر من فضلاء المهدية بالمغرب ولد بها وانتقل الى تونس سنة ٦٥٩هـ " انظر : الحلل السندسية في الأخبار التونسية " الوزير السّراج جـ ١، ق ٢ ، ص ص ٥٠٣ - ٥٠٨ ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، تونس ١٩٧٠ ؛ رحلة التجاني " ص ص ٣٧٥ - ٣٧٧

(٥) محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن يونس ، أبوبكر بن حبيش اللخمي ، شاعر تونسي ، " ٦١٥ هـ - ٦٧٩ هـ " انظر : نفح الطيب " جـ ٢ ، ص ١٧٩ " بغية الوعاه" جـ ١ ، ص ١١٩ " ملء العيبة بماجمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة وطيبة " ابن رشيد السبتي جـ ٢ ، ص ص ٨٣ - ١٢٦ ، تحقيق د : محمد الحبيب ابن الخوجة ، تونس ١٩٨٢

(٦) الرحلة المغربية" ، ص ص ٤٥ - ٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المولديات في تلمسان

إن ما حفظته بعض المصادر التاريخية والأدبية من مظاهر الاحتفال بالمولد النبوى في تلمسان يجعل الباحث يرجح ان لهذه المملكة خصوصيات معتبرة من حيث الاعتناء بهذه الذكرى لم تشهد الممالك المغربية المجاورة مثيلا لها فقد تطورت هذه الاحتفالات في تلمسان تطورا بلغ غايته من الزينة والفرح والبهجة ، وأضفى ملوك هذه الدولة عليها هالة من الاجلال والاكبار وصلت الى حد المبالغة ، ولا سيما في عهد السلطان " أبي حمو الثاني " الذي كان يشرف على تلك الاحتفالات بنفسه . ومما زاد في أهميتها أن هذا الملك كان شاعرا أديبا وهو كما ذكر " ابن عمار " في رحلته " أوحد الملوك في استجماع خصال الفضل ، علما وأدبا وجودا وشجاعة . اما العلم فقد كان طلابا له في صغره معتنيا به في كبره ، وكان في أيام دولته مكرما للعلماء مجلا لهم " .(١)

صور من هذه المجالس المولدية

حدثنا كاتب الحضرة الزيانية " يحيى بن خلدون " عن جملة احتفال السلطان " أبي حمو الثاني " بهذه الذكرى في ليلة مولد سنة ٧٦٠ هـ قائلا :

" اطلعت ليلة المولد النبوي على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، فأقام لها بمشور داره العلية مدعى كريما وعرسا حافلة احتشدت لها الأمم وحشر بها الأشراف والسوقة . " (٢)

ويفهم من كلام " يحيى بن خلدون " أن هذا الاحتفال قد اصطبغ بصبغة شعبية ، بمعنى أن الاحتفاء به لم يكن قصرا على رجال البلاط وحاشية السلطان وحدهم ، بل شمل عامة الناس ودهماءهم وهو ما يشير اليه عبدالله التنسي " أيضا مؤكدا اياه في أثناء حديثه عن المناسبة نفسها من أنه " كان يحشر لها (أي لهذه المناسبة) الأشراف والسوقة " (٣) ولعل هذه الظاهرة من خصوصيات

(١) رحلة ابن عمار ، ص ص ١١٦ ـ ١١٧

(٢) " بغية الرواد " ج ٢ ، ص ٤٠

(٣) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ، ص ١٦٢ ، وفي " راح الارواح " : انه كان يحشر فيها الناس خاصة وعامة ، انظر : " أزهار الرياض " ج ١ ، ص ٢٤٣ ، " نفح الطيب " ج ٦ ، ص ٥١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاحتفال بالمولد النبوي في تلمسان ، ظاهرة فريدة لم تعرفها قصور الممالك المجاورة.ويمضي " ابن خلدون " قدما في تصوير ما يجري داخل البلاط الزياني في هذا اليوم الاغرّ قائلا : " فما شئت من نمارق مصفوفة ،وزرابي مبثوثة ومشامع كأنها الأسطوانات القائمة على مراكز الصفور المموهة ، والخليفة ـ أيّده الله ، تصدر مجلسها ٠ ممتطئا سرير ملكه " يسرّ الناظرين رواؤه ، ويثلج الصدور عزّه ، وتجار في كمالات خلاله النهي ، حفافيه التجلة من قومه وأعيان الطبقات من أهل حضرة خلافته على مقاعد عيّنها الاختصاص ، ورتب فوق بعض المناصب ، تخالهم قطع الرياض النظرات قد أغضى الجلال من أبصارهم ، وخفضت المهابة من أصواتهم ، فلا تبصر إلا جمالا ولا تسمع إلا همسا ، يطوف عليهم ولدان أشعروا أقبية الخزّ الملون ، وبأيديهم مباخر ومرشات ينال كل منها بحظّه ٠" (١)

ومما أضفى على هذه الاحتفالات روعة وجمالا تلك الساعة العجيبة المسماة " المنجانة " القريبة من مجلس السلطان ، جاء في وصفها : " وخزانة المنجانة قد زُخرِفَت كأنها حُلّة يمانية لها أبواب مَجوّفة على عدد ساعات الليل الزمانية ، فمهما مضت ساعة وقع البنقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت منه جارية صوّرت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة بين يدى السلطان بلطافة ، ويُسْراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة ٠ " (٢)

ولعل ما جاء في هذا النص من الاشارة الى عدد ساعات الليل وما يتلى فيها من الأشعار هو ما يشير اليه " يحيى بن خلدون " في احدى الليالي المولدية وهي ليلة سنة ٧٧٠ هـ ، حيث يقول: « أمرني أيّده الله بنظم أبيات على لسان الجوارى المعرفات ساعة المنجانة الغريبة الشكل ، المتقدمة الوصف ٠ " (٣) وقد حفظت بعض المصادر ما قاله " يحيى بن خلدون " في هذه الساعات

---

(١) بغية الرواد " ، جـ ٢ ، ص ٤١

(٢) " نفح الطيب " ، جـ ٦ ، ص ص ٥١٣ ـ ٥١٤ " بغية الرواد " ، جـ ٢ ، ص ٤١ وانظر : ازهار الرياض جـ ٢ ، ص ٢٤٤

(٣) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٢١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الليلية (١) فقوله مثلا في مضي عشر ساعات :

يا مالكَ الخير والخيلِ التي حَكَمَتْ ... له بعزٍّ على الأيام مُقْتَبِلِ
هذا الصَّباح وقد لاحت بشائره ... والليل ودَّعنا توديعَ مرتحل
لله عشرٌ من الساعات باهرة ... مضينَ لا عن قِلًى منّا ولا ملل
كذا تمرُّ ليالي العمر راحلةً ... عنّا ونحن من الآمال في شُغُلِ (٢)

كما نجد لهذه الساعة أثرا عند " ابن الخطيب " الذى يصفها قائلا :

تأمل الرَّمْلَ في المنجان منقطعا ... يَجْرِي وقد ردَّ عُمْرًا منك مُنْتَهِبا
واللهِ لوْ كان وادى الرمل ينجده ... ما طال كامله الا وقد ذهبا (٣)

غير أننا لاندرى أكان " ابن الخطيب " يقصد منجانة قصر المشور في تلمسان ، أم المنجانة التي كانت تزين قصر " بني مرين " في فاس علما بأن كليهما من صنع عالم البلاط الزياني " أبي الحسن ابن الفحّام " وقد رآهما " ابن الخطيب " من دون شك أثناء اقامته في فاس وتلمسان،ويواصل " ابن خلدون " وصف هذا الجو المولدي الرائع ، فيشير الى ما كان ينشد من المدائح في هذه الليلة " .. والمسمع قائم صدر عترته على بعد من الخليفة مقدر يردد نغمات الألحان ويرتّب رنّات الايقاع ينشد خلال ذلك في مدح سيد الرسل وخاتم النبيين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم . (٤)

---

(١) انظر ذلك في : بغية الرواد ، ص ص ٢١٨ - ٢٢٢ ، ونفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ص ٥١٥ - ٥١٧ وفي أزهار الرياض ، جـ ١ ، ص ص ٢٤٦ - ٢٤٧

(٢) نفح الطيب جـ ٦ ، ص ٥١٦

(٣) نفسه ، ص ٥٠٤

(٤) بغية الرواد جـ ٢ ، ص ٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند الانتهاء من الامداح يخبرنا " يحيى بن خلدون " أنه " جيء آخر الليل بالخرس الشهيّ الملاذ ، الحافل الملامح والمشام ، المتعدد الخوانات مما أُرحبت ساحته وحبرت برووده ، ونـــاء بالعصبة أُولي القوة محملة ثم الفواكه فالحلواء ، وطعم الناس بين يدى الخليفة وشكروا الله سبحانه ودعوه لجابر صدعهم ولم شعثم ، ولم يفارق الخليفة نصره الله ، مجلسه أول الليل الى أن صلى الصبح في الجماعة ..

وعلى هذا الاسلوب مرت المواليد النبوية بعد هذا في مدنه السعيدة طالت أيامه ، وانتشرت في هضاب المعالي أعلامه " (١)

فهذا نموذج من الاحتفالات التي كان يحييها ملوك بني عبدالواد في ليالي المولد النبوى الشريف وهي احتفالات كان يبالغ في احيائها . فكانت تخرج عن الوقار الدينى الى صور الحفلات والمـــآدب وحلقات الغناء ، وهي ظاهرة كانت عامة لدى ملوك المغرب وهو ما حدثنا عنه " المقرى " حينمـــا أشار الى مبالغة ملوك غرناطة في مظاهر الاحتفاء بتلك الليالي المولدية الأمر الذى دفع كثـــيرا من الفقهاء الى الابتعاد عنها . (٢)

---

(١) بغية الرواد ص ٤٩ وانظر وصف هذه الاحتفالات أيضا في : أزهار الرياض جـ ١ ، ص ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ ونفح الطيب جـ ٦ ، ص ص ٥١٣ ـ ٥١٥

(٢) أزهار الرياض ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ بتصرف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موضوع المولديـــــات

كانت المولديات تتطرق الى موضوعات مختلفة اعتاد الشعراء أن يجعلوها مادة لقريضهـــم ويوردونها وفق ترتيب معيّن .

فهناك مقدمة القصائد ، وقد سلك الشعراء فيها مسالك شـتى :

فقد تبدأ القصيدة بالوعظ والارشاد كأن يشير الشاعر الى تحسّره على ما فرّط في حق الله والرسول ، والبكاء على ما جنته يداه ، واقترفه من اثم وذنب أيام الشباب . واظهار الحسرة والندم على ما سلف منبها الى ضرورة الابتعاد عن زخرف الحياة الدنيا ، داعيا الى سلوك الطريق القويم ، طريـــق التقوى والفلاح كما جاء في مولدية السلطان " أبي حمو الثاني " في ليلة سنة ٧٦٠ هـ ، حيث يقول :

نامَ الأحباب ولم تنـــــم عيني بمصارعة التَّـــدمِ
والدمـــع تحدّر كالدِّيَـــــم جـــرح الخدّيـــن فوا ألمـــي
وزجرت النَّفس فما ازدجـــــرتْ ونَهيْـــتُ القلب فلـمْ يَـرم
ونذيـــر الشَّيْب لقد وافَـــــى وحلول الشّيب مـــن الهـــرم
والعمـــر تولّى منصرمـــــــاً آهٍ للعمـــر المنصـــــرم (١)

وقد أطال الشاعر في هذه المقدمة التي خصصها للاعتراف بذنوبه الكثيرة ملتمسا من الله غفـــران هذه الذنوب حتى ينال رضاه وعفوه ، وينجو من عقابه . وقد ذكر الشاعر قصيدته هذه في معـــرض حديثه عن توصية ابنه برعاية الحجاج ومساعدتهم . لكي يدعوا الله له " فان الدعاء هناك مجـــاب ، وليس بينه وبين الله حجاب " (٢) ويقرر أنه نظمها شوقا " الى ذلك المقام الشريف ، والمحـــل الأنور المنيف " (٣) . وأرسلها مع بعض الحجاج الى قبر النبي عليه الصلاة والسلام مع " رسالة رجاء للثواب ، وتيسيرا للأسباب . " (٤)

---

(١) " واسطة السلوك " ابو حمو الثاني ، ص ٤١٠" بغية الرواد " يحيى بن خلدون ، ج ٢ ، ص ٤١
(٢) " نفســـــه " ص ١٠ (٣) المصدر نفسه ، ص ١٠ (٤) المصدر نفسه ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذهب الشاعر " محمد بن يوسف الثغرى " هذا الاتجاه نفسه في مستهل مولدية نظمها سنة ٧٧١هـ ، مجسدا تقريبا ما أرتآه "أبو حمو الثاني " من ضرورة الابتعاد عن غرور الدنيا وزخرفها الفاني والتوجه الى ما يرضى الله ويرضي رسوله للفوز بالدار الباقية فمما جاء فيها قوله :

أقصرْ فان نَذيرَ الشَّيب وافاني ... وأنكرتني الغَواني بعد عِرْفان
وقد تَماريْتُ في غيّ بلا رَشَد ... والنفس تأمرني والشيب يَنهاني
كم من خطى في الخطايا قد خطوت ولم ... تُراقبى الله في سرّ وإعلان
فلا تغُرَّنَّك الدّنيا بزخرفها ... فيا ندامة من يغترُّ بالفاني
فليس فيها وِصال دون هجران ... وليس فيها كمال دون نُقصان
واسلُكْ سبيلا الى التقوى لتقوى بها ... على السلوك الى جنّات رضوان (١)

وقد تبدأ القصيدة بذكر الشيب كما يفعل " أبوعبدالله التلاليسي " في كثير من مولدياته يقول في إحداها :

أصبحَ رأسي من الشّوائب ... وهو من الجانبين شائب
يا لهفَ نفسي على زمانٍ ... كنتُ لثوب الشّباب ساحِب
أرفل في حلّة التّصابي ... بين حبيب وبين صاحب
حتّى بدا الشّيب في قَذالي ... بادرته بالسّواد خاضب
استَرُه كلّ حين حتّى ... عمّ من الرّأس كُلّ جانب
وأقْبَلَتْ منهُ لي جيوشٌ ... بِسهامها للصّبا صَوائب (٢)

وهذه الابيات مليئة بالتشبيهات والاستعارات التى أحسن الشاعر استخدامها في تشخيص صراع الشباب مع الشيب الذى هو نذير للهرم والكبر ، ومن هنا سيطرت على جو الأبيات روح التشاؤم على أفول الشباب الذى مضى وترك له حملا ثقيلا من الذنوب والمعاصى لن يمحوها الا مراجعة نفسه ودعوتها الى التوبة النصوح ، والابتعاد عن هواها وشرها المستطير ، لا سيما ان مرحلة

(١) " بغية الرواد " ج ٢ ، ص ص ٢٢٦ - ٢٢٧
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هامة من عمره قد انقضت ، ولم يعد ينفعه إلا العمل الصالح ، والاستعداد للقاء ربه ، ولعل الابيات التالية تعبر أصدق تعبير عن أحاسيس الشاعر حيث يقول :

قلتُ يا نفسُ ليس الا ... ان تنظُري الآن في العواقب
ولتَسْتَعدّي لهَوْل يَوْمٍ ... تشيبُ من بعضه الذوائب
يوما يكون الاله فيه ... على جميع العصاة غاضب (١)

وهذا الاتجاه يعبر عنه الشاعر في مولدية أخرى استهلها بالتحسّر والتأسف على شبابه الذى قضاه لا هيا عابثا ، مطاوعا نفسه في غيّها فيقول :

فها انا ابكي لفقد الشباب ... وعصر التّصابي بكاء الثّواكل
وليس البكاء على فقده ... ولكن لتضييع عمرى بباطل (٢)

ولعل كثرة حديث الشاعر عن الشيب يكاد أن يكون مذهبا تميز به في مولدياته عن غيره من الشعراء . وهذا يدعو الى الاعتقاد بأن الشاعر نظم مولدياته في أواخر حياته .

وقد تستهل القصائد بالتشبيب وذكر الديار الحجازية كقول السلطان " أبي حمو الثاني " :

قِفا بين أرجاء القباب وبالحيّ ... وحيّ ديارًا للحبيب بها حَيّ
وعرّجْ على نجدٍ وسلع ورامة ... وسائلْ فَدَتْك النفس في الحيّ عن ميّ
وقُلْ ذلك المضني المعذّب بالهوى ... يموتُ ويحيا فارث للميّت الحيّ
وبُثّ لهم وجْدِي وفرط صبابتي ... وروِّ حديثي فهو أغرب مرويّ
يعذّبُني شوقي ويضعفني الهوَى ... وقلبي على جَمْرٍ من الشّوْق مُحْمِيّ (٣)

وكأن الشاعر قد نظر من خلال البيت الأول الى معلقة امرئ القيس التى مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللّوى بين الدخول فحومل (٤)

فاقتبس منه هذا المعنى لكنه نقله من النسيب المادى الحسي الذى عرف به امرؤ القيس الى

---

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ص ٧٢ ـ ٧٣ (٢) نفسه ص ٤٧ (٣) نفسه ج ٢ ، ص ٦٥
(٤) الديوان ، ص ٨ تحقيق أبو الفضل ابراهيم . ط : الثانية ١٩٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النسيب النبوى . فهو يأمر صاحبيه بالوقوف عند هذه القباب المنصوبة التي ترمز الى قباب مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلى هذا الأساس فان تشبيبه بتلك الأماكن كنجد وسلع ورامة لا يعد غزلا خالصا كما يوحي بذلك المقطع السابق، وانما هو غزل رمزى يقصد من ورائه الشوق الى تلك الديار المقدسة ، والتلهف الى زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو ما يعبر عنه " يحى بن خلدون " في مستهل هذه المولدية التي يدعو فيها للديار ، بالسقيا على عادة الشعراء الجاهليين :

سَقَى الدارَ بالجَرْعاء من جانب الشِّعْب ... سحائبُ دمعي إنْ وَنَتْ أدْمُع السَّحب
وَرَوَّضَ ما بين العَقِيق الى النَّقَى ... وحيَّا بذَيَّاكَ الحِمى زمن القُرْب
مَغاني شموس أوربوع أهِلَّةٍ ... طلَلْن بروض أوبَزَغْنَ على القُضْب
هنالك أعطيت الهوى فضل مِقْودى ... وجُدْتُ مطيعا بالحشاشة والقلب (١)

فلا نجد في هذه الابيات إلا حنينا الى الديار الحجازية وذكر معالمها مثل العقيق والنّقى والحمى . والشاعر في ذلك انما يعبر عن ظاهرة كان انتشارها واسعا في هذا القرن لدى شعراء المولديات عامة الذين كانوا يعددون كثيرا من تلك المشاهد في مقدماتهم تحدوهم الآمال الى زيارتها وشمّ عرارها . فقد أكثر " أبو حمو " من ذكر الاماكن في إحدى مولدياته التى جاء فيها :

قِفا خَبِّراني عن رسوم نواهج ... وعن معلمات طيبات الارائج
وعن أرض نجْدٍ والعُذَيْب وبارق ... ولا تُخْبراني عن ذوات الدَّمالج
وجوبا الفيافي والمهامة واستعن ... على قَطْع أسباب النَّوَى باللَّواعج
وعُوجا بوادِى الطَّلْح من أرْضِ رامةٍ ... وَزُفَّا الهوادِى عند رَمْلَة عالِج
وان جِئت نجدًا فانتَشِقْ من ترابها ... كعُرْف عبير أوكطيب النّوافج
وان ابْمرَتْ عيناك أرض تُهامَة ... فبُشْراك قد وافَيْتَ أسْنَى المناهج (٢)

فتلك الاماكن كنجد والعذيب ورامة وغيرها كانت تهزّ مشاعر الشعراء وتوقد جذوة الايمان فيها لأنها تعتبر معادلا موضوعيا لمعاني الوحي والقرآن والنبوة .

---

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ (٢) واسطة السلوك ، (مخطوط) ص ١٦١ و

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذا كان الشعراء يغتنمون الفرصة في مقدمات هذه القصائد ، فيخاطبون حادي الابل المتوجه الى المشرق حيث الحرم الشريف ، فيحملون معه سلامهم وأشواقهم الى الاراضي المقدسة ، والى أهلها مؤملين النفس بزيارتها مستقبلا . يقول " أبوعبدالله التلاليسي " :

فيا حادي الركب ان جئت أرضا ... بها سيد الخلق ثاو ونازل
وأبصرت نجدا وعاينت سلعا ... وتلك المغاني بها والخمائل
فقف عند باب الديار تمر ... ضريح نبي الهدى دون حائل
فبلّغ سلامي وبح ثمّ باسمي ... ولا يَشْغَلَنَّكَ عن ذاك شاغل (١)

ويحمل " يحي بن خلدون " أشواقه الى البقاع الطاهرة مع الركب المتوجه اليها قائلا :

الا أيها الركب المخبون بالضحى ... عسى لك من أرض الحجاز ظُعُونُ
أعيدوا أحاديث العُذَيْب وأهله ... فلي بأحاديث العذيب فتون
أمِنْ طَيْبَة يا قوم ثور ركابُكم ... فعَنْ طيبها هذا العبير يَبِينُ
وما طيبة الحسنا اذا ما اعْتَبَرْتَها ... وكأنها الا الجنانُ وعِينُ
محطّ ركاب الوحي منتجع الهدى ... مُناخِب ذيْلِ الرُّشْد حَيْثُ يكونُ (٢)

وأما " الشنرى " فيروم أن يعاين الحرم الشريف وأن يطوف بالبيت العتيق :

أتُرَى أرَى وادِي العَقِيق وَرامَة ... وَيَلُوحُ لِي رَنْدُ الحجاز وبانُه
وأُعايِنَ الحرم الشريف وَيَنْجَلِي ... عنْ قلبِ صبٍّ مُدْنَفٍ أشجانُه
وَفَدَتْ عليه رِكابُ أرباب التُّقَى ... والمُذْنَبُ الخَطّاء كَفَّ عِنانُه (٣)

فالنماذج السابقة توضح أن أشواق الشعراء في هذا النسيب المولدي كانت موجهه الى جناب الرسول عليه السلام ، والى تلك الأراضي الطاهرة . وهذا ما جعل جلّ هذه المولديات تمزج بين ابتهالات مولد الرسول وبين موسم الحج الى الديار المقدسة والظفر بزيارة مثواه الكريم .

---

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص
(٢) نفسه ، ص ٢١٦
(٣) نفسه ، ، ص ٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما القسم الذى كان يشكل المادة الرئيسية في هذه القصائد التى نظمت في هذه المناسبة فهو بلا شك مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر معجزاته التي أثبتت صحة نبوته وفضائله ، والاشادة بفضل ليلة المولد النبوى الشريف ، من ذلك ما جاء في هذين البيتين " ليحي بن خلدون " الذى ساق فيهما بعض معجزات الرسول الكريم أثناء ولادته :

من لميلاده بمكّةَ ضاءتْ ... من قُرَى قَيْصَر جميع الضَّواحي
وخَبَتْ نارُ فارسٍ وتداعَتْ ... من مُشيدِ الإيوان كلّ النّواحي (١)

واغتنم " محمد بن يوسف الثغرى " مولد سنة ٧٦٨هـ ، ليشير الى بعض معجزات الرسول عليه السلام مثل قصة الاسراء والمعراج وذلك في قوله :

نبيٌّ رآه الله أفضل خلقه ... فأرسله بالحقّ للخلقِ هاديا
وأسْرَى به ليلا الى حضرة العُلى ... فشاهد فيها كلَّ ما كان خافيا
سَرَى راكباً ظَهْر البراق كرامة ... وبين يديه سار جبريل ماشيا
دَنا فتدلّى قاب قوسين رفْعة ... وقُرْبا فأمسى للحبيب مُنا جيا (٢)

وتأثره بالقرآن واضح جلّي في صدر البيت الأخير ، وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة في قوله تعالى " ثمّ دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى .. " (٣)

ويعرّج على ذكر قصة الغار وما كان بها من معجزات أخرى قائلا :

وكان له في الغار إذْ نَزَلا به ... أبوبكر الصديق بالصدق ثانيا
وحامَتْ حوالَيْه الحمام وشَيَّدت ... من النَّسْج أيْدى العنكبوت مَبانيا (٤)

الى غيرها من المعجزات التى برهنت على صدق نبوته ، على أن أعظم معجزة للرسول الكريم هي القرآن كما أشار الى ذلك أحد الشعراء قائلا :

أتَتْ مُعْجزاتُ المرسلينَ وقدمَضَتْ ... ولم يَلْقها الا الفريقُ المعاصر
ومعجزةُ الهادي الشفيع محمّد ... تدوم وترعَى ما رَعَى النجم وساهر (٥)

---

(١) ازهار الرياض " جـ ١ ، ص ٢٤٠ (٢) بغية الرواد جـ ٢ ، ص ص ١٩٠ ـ ١٩١ (٣) سورة النجم من الاية ٨ الى الاية ١٨ (٤) بغية الرواد جـ ٢ ، ص ٢٨٣ (٤) نفسه ، ص ١٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمعجزة الأنبياء السابقين طواها الزمن ، وأبلى جدّتها الدهر ، وأما المعجزة القرآنيه فباقية أبدا لن تحول ولن تزول ، ذلك أن الله أنزلها آيات محكمات النسج ، متقنات النظم فصاحة وبلاغة ولن يستطيع البشر أن يأتوا بمثلها أو يقوموا بمعارضتها ، قال الله تعالى :

" وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله " (١) وينوه " الشغرى " بمولد الرسول الكريم ، وفضل شهر ربيع الأول ، وبالامة الاسلامية التى كانت خير أمة أخرجت للناس وذلك حين يقول :

لنا الفخر إذ كُنّا به خير أمّةٍ ... نُفاخرُ من شِئنا به ونُطاول

أشهرَ ربيع حُزْتَ كلّ فضيلة ... بأفضل من تَمّتْ لديه الفضائل

وليلة ثِنْتَى عشرة منك شرّفت ... ففيها بَدا بدر الهُدَى وهو كامل (٢)

وقد انطلق الشعراء في ذكر هذه المعجزات واستلهامها في مولدياتهم من مخزونهم الثقافي ورصيدهم المحفوظ من كتب السير والمغازى ، والأحاديث النبوية ، فضلا عن الموروث الشعرى الديني الذى تناول معجزاته لا سيما قصيدة " الشقراطيسي " التى تركت بصماتها واضحة على المولديات من بعدها بما استوعبته من مادة تاريخية من كتب السير والمغازى .

وكانت هذه المولديات مناسبة للشعراء أيضا كي يتجهوا الى الرسول عليه الصلاة والسلام يمدّون اكّف الضراعة لطلب شفاعته وفي ذلك يقول " الشغرى " مخاطبا الرسول عليه السلام :

ألا يا رسول الله دعوة شيّق ... يؤمّلُ أما لاً لديك فساحا

مقيمٌ بسغرب كاد من فرطِ حبّه ... يطيرُ اشتياقاً لو أعير جناحا

ومالي سوى حبّى إليك وسيلة ... أمدُّ بها نحو الشّفاعة راحا (٣)

ويتمنى " يحيى بن خلدون " رحلة ميمونة نحو الديار المقدسة قبل الموت ويرجو أن يتحقق مراده

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٣

(٢) رحلة ابن عمار ص ١٣٦

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرغوب في شفاعته يوم القيامة :

الا يا رسول الله دعوة خاطِـــــئ ... لقد طال منه للضلال ركـــــونُ
مقيمٌ بأقصى الغرب جسماً وقلبُـــهُ ... ببيثـرب لا يلوى عليه رَهِيـــــن
يؤمل قبل الموت نحوك رحلـــــة ... فَيَقْضِيه دَهْرٌ باللقـاء ضَنِـــــينُ

الى ان يقول :

إذا لم تكن لى في القيامة شافعـــــا ... فيا حسـرة انّى إذَنْ لَغَبِـــــين
وانّى لارْجُو عن قريب زيـــــارة ... لقبرك تَسْرِى بى اليه أمُـــــون (١)

والذى يمكن استنتاجه من هذه المولديات ، هو نبرة الصدق عند الشعراء ، لأن المدح هنا موجـــه الى رسول الاسلام ، ومقامه الكريم والى البيت العتيق ، فانعدم بذلك المدح المخصّص للسلاطـين الذى غالبا ما يرجى من ورائه المنفعة والتكسب .

وعلى الرغم مما أبداه الشعراء من محاولات في مدح الرسول الكريم في هذه المناسبـــة ، إلا أننا نجد الكثيرين منهم يعبرون عن عجزهم لأنه أجلّ وأعظم من أن يحيط به الشعراء ، ولأنهـم لا يدركون كنهه ، يقول " يحيى بن خلدون " في هذا المعنى :

يا رواة القريض والشعر عجـــــزًا ... ما عَسَـى تُدركون بالأمـــــداح
إنّما حسبنا الصلاة عليـــــه ... وهي للفوز آيةٌ استفتـــــاح (٢)

ويوضح " الشعرى " هذا المعنى في قوله :

قل للذى قد رام وصف كمالـــــه ... وأطاب في أمداحـه وأطـــــالا
أقصى مداك العجزُ عن ادراكـــــه ... فعُلاه أرْحَـــبُ في الفخار مجـالا (٣)

---

(١) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ . والامون : هي الناقة التي أُمنت العثار والاعياء ، والجمـــع أُمُنٌ ، انظر : لسان العرب ، جـ ١٣ ، ص ٢٥ ، مادة أمن .
(٢) نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٥١٢
(٣) " نظم الدر والعقيان " القسم الرابع " في محاسن الكلام " ص ٢٢٠ تحقيق نورى سودان بيروت ١٩٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا ينسى الشعراء في مدحهم الرسول عليه السلام الالتفات الى ولىّ نعمتهم والتنويه بـــه من ذكر مزاياه ونبله وكرمه وعدله وغير ذلك مما يدخل في باب مدح رجال السلطة . " فمحمد بن يوسف الشغري " يعرج في إحدى مولدياته على مدح " أبي حمو الثاني " قائلا :

أبلغ عن المولى أبي حمو الرضـــــى ... المعتلي في كل فضل شانـــــه
أزكى سلام للنبي محمـــــــد ... كالرّوض صافح روحه ريحانـــــه
فهو الذى حبّ النبىّ وآلـــــــه ... ما زال منطويـا عليه جنانـــــه
قد قام معتنيـا بمولـده وكـــــم ... سهـرت به شوقا له اجفانـــــه
يرجو شفاعته وسوف ينالهـــــا ... وينالـه من ربّـه رضوانـــــه (١)

فهو ينوه بدور السلطان " أبي حمو" وعنايته الفائقة بمولد الرسول مما جعل الشاعر يجزم أن ممدوحه سوف ينال شفاعة النبى عليه السلام .

ويخلص أبوعبدالله التلاليسي " الى مدح " أبي حمو " في إحدى مولدياته مذكرا بدوره في تجديد الدولة الزيانية بعد زوالها واحياء رسمها بعد الأفول :

وأوجدّ عبد الواد بعد دُثُورِهـــــا ... وأظهـر رسماً دارسا بعد امحـــال
تِلمسانّنا أضْحَت به وبيُمْنِـــــهِ ... تتيه على فاس الجديدة والبالـــي
فنحن به في طيب عيش وغبطـــــة ... وتجديد أفراح وفُسْحـة آمـــال
قبائل عبد الواد سُعْدُكُمُ بـــــدا ... ودولتكم عادتْ الى أشرف الحـــال
ولست أراها تنقضي عنكُـــمُ ولا ... تزالون فيها في نعـيم وإقْضـــال
وموسى أمير المؤمنين مؤيّـــــدٌ ... بنصر وتمكين ويُمْنٍ وإقْبـــال (٢)

فكان هؤلاء الشعراء ـ شعراء البلاط ـ دائمي الختم لمولدياتهم بالتنويه بولى نعمتهم وهي ظاهـرة عامة في جلّ المولديات في تلك الفترة . ولكن بعضهم تمادى وهو في معرض مدحه للرسول في مثـل هذه المناسبات من اشراك ممدوحه من السلاطين موازيا بينه وبين سيد المخلوقات في الصفات مثـل

(١) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٤٧
(٢) نفســـه ، جـ ٢ ، ص ١٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ما جاء في احدى مولديات " يحيى بن خلدون يمدح الامير "أبا تاشفين " :

وأبو تاشفين بدر منير ... زانه الله بالخلال الصباح
أكمل العالمين خَلْقاً وخُلْقاً ... أشرف النّاس في النّدى والكفاح (١)

فعلق " المقرى " على البيت الأخير فذكر " انه لا يخلو من قلة تحفّظ ، ومثل هذا في الحقيقة انما يطلق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان كان المتكلم أراد أهل عصره " (٢)

ومن امثلة هذه المبالغات في مدح ولي النعمة في مثل هذا المقام قول " الثغرى " في أبي حمو :

كأنه للورى رُوحٌ وهم جَسَدٌ ... ولا حياةَ بلا رُوحٍ لِجُثْمان (٣)

واذا كان معظم الشعراء قد أُعطوا للمولديات حقها من خلال مدح الرسول وذكر معجزاته والتشوق الى زيارة الاماكن المقدسة ، فان السلطان الزياني " أبا حمو الثاني " كاد ينفرد من بين الشعراء في أنه كاد يختصر هذا الموضوع في أغلب مولدياته ، ولعل السبب في ذلك راجع الى أنه نظم هذه المولديات في فترات خاصة من حياته السياسية ، ففي القصيدة التي نظمها بمناسبة مولد سنة ٧٦٠ هـ نراه يعبر عن عجزه عن زيارة الأراضي المقدسة ويعتذر عن ذلك بما يقوم به مهام سياسية :

حطّ العُشّاقُ ركائبهم ... بين العَلَمَيْن و بالحَرَم
وغَدا (٤) المشتاق بزفرته ... في مغربه يبكي بدم
قد قيّدني ما قلّدني ... من أمر (٥) حكيم ذي حَكَم
وصروفُ الدهر تُعارضني ... عما أبغيه من القسم (٦)

(١) " أزهار الرياض " جـ ١ ، ص ٢٤٢ (٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٢
(٣) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٢٢٩ (٤) وفي " واسطة السلوك " وبقى ، ص ١١
(٥) وفي المصدر نفسه : من حكم ، ص ١١
(٦) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٤٣ ، واسطة السلوك ، ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقدكان السلطان " أبوحمو الثاني " يعاني كثيرا من شدة الاضطرابات ولا سيما تلك الاضطرابات التى كان يتسبب لها بين الفنية والأخرى منافسه على الحكم الثائر " أبو زيّان " في النواحي الشرقية ، فنراه يتحسّر في هذه الأبيات على الظروف التي حرمته من الوصول الى الأماكن الطاهرة :

يا حاديّ العيس قِفْ بالله تُخْبِرَني ... بيني وبينهُمُ عهدًا ترى قَرُبَا
في كلّ عامٍ يسير الركبُ مرتحلاً ... وقد تَقَيَّدْتُ عن فرْضِي الذى وَجَبَا
لولا الخلافةُ شَدَّتْنِي قلائدها ... لم أقتنعْ بخيالٍ أو بريحِ صبا
إلاّ بجد السُّرَى والسَّيْرِ نحوَ رُبَى ... نجدٍ وكاظمةٍ اكرمْ بهنّ رُبَى
لوْ كان لي قدرة ماكنتُ اتركهمْ ... حتّى أموتَ بفرطِ الحُبِّ مُحْتَسِبا (١)

وفي مولدية سنة ٧٧٠هـ نراه يستعيض عن ذكر معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام بشكوى الدهر وما جرّ له من مكروه ومصائب ، وهو يشير في ذلك الى ما كان يلاقيه في المناطق الشرقية من فتن وثو ر ات فيعبر عما يعانيه من متاعب قائلا :

لقد كنتَ والدّهرُ لي مُسْعِدٌ ... فأَغْضَبَنِي ليتَ ما أَغْضَبا
فما بالُهُ اليوم مُحْلَوْلِكٌ ... وما زِلْتَ أعهده مذهبا
فخانَ وأَخْنَى وجَوَّرَ جَفَى ... وظهرَ المجن لنا قلبا (٢)

يصور الشاعر تقلب الدهر وما جرّ عليه من محن ومصائب بعدما كانت حياته هادئة مطمئنة . ثم يجرى حوارا داخليا رائعا بينه وبين هذا الدهر الذى كان مصدر آلامه ومحنه ، معاتبا أيّاه على هذا التغيير والتحول الذى كان له تأثير وانعكاس على حياته السعيدة الهنيئة :

---

(١) " بغية الرواد " جـ٢ ،ص ١٨٧، واسطة السلوك " ص ١٧١
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَصرتُ أُعاتبه اذ عَتَـــــــا ... فأَسلمني بعدما قَرَّبـــــــا
فلا درّ درّك يا دهـــــر قـــــل ... أيرجِـــعُ منك الذى قد نَبَـــا
فقال مَجيبًا ألستُ الـــــــذى ... على الرغم فَرَّقْتَ آل سَبَـــا
وأَوْزأْتهـــم كلّ ما مَلَّكَـــــوا ... وأَضْحتْ معا هِدَهُمْ سَبْسَبَـــا
تفانَوْا جميعًا وما جَمَّعـــــوا ... فأَيْن سَبا والذى قـــد سَبَـــى
تَوالتْ عليهِمْ اكُفُّ الـــــرَّدَى ... فَوَلَّـــوا وما انْ قَضَـــوا مَأْرَبـــا (١)

فرجع الشاعر من خلال هذا الحوار الداخلي الى الماضي البعيد ليستقي منه العبرة والعظة على تقلب الدهر الذى لا يرحم باشارته الى مملكة سبأ التى أصبحت خبرًا بعد ان جرَّ الدهر عليها ذيل العفاء ، إلا أن الشاعر يمنّى نفسه بالتفاؤل وذلك بوجوب التزام جانب الصبر الذى هو مفتاح الفرج لأن " بالصّبر يُرْجَى الحَبَا " كما عبّر الشاعر على لسان الدهر الذى أجرى معه هذا الحوار الى أن يقول :

فَبُشْـراكَ موسى بنيْل المُـــــــنَى ... بفضل الاله فمـــا أَقْربـــــــا (٢)

وإذا تتبعنا هذه المولدية من بدايتها الى نهايتها ، فاننا لا نلاحظ إلا شكوى وأنينا ولوعة من الشاعر مما أصابه من مكروه وما قذفه به الدهر من مصائب . ويمكن أن نشير في هذا الصدد الى المولديـــة التى نظمها سنة ٨٦٨هـ والتي أطال الشاعر في مقدمتها التى خصصها للتعبير عن ذاتية حزينـــة تشكو من الدهر بما جرّ لها من مكروه ومصائب فمما قال :

أُكابِدُ الليل بالتَّسْهيد مفتكـــــرًا ... ولا أُبالِـي به انْ طالَ أو قَرُبـــــا
ليلِي نهارٌ(٣) ويومى كله فكـــــر ... والنّومُ عن مُقْلتـــي من بعدهم سلبـا
وقد شَغلتُ بقلبي كل مشتغـــــل ... وقد مَزَجْتُ دمًا بالدّمـــع مُنْسَكِبـــا (٤)

ولهذا يحذر من الدهر وتقلباته التي لا تدوم على حال :

وهكـذا الدهـر ما زالتْ عوائـــدُه ... فلا تَثِقْ بزمـانٍ بان أو قَرُبـــــا
يُدنِي ويبعدُ في أحكامه أبـــــدا ... هذا بذاك ولا عَتْبٌ لمن عَتَبـــــا (٥)

---

(١) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ (٢) نفسه ، ص ٢٠٩ (٣) وفي واسطة السلوك " نهارى ، ص ١٧٠ (٤) بغية الرواد " جـ ٢ ص ١٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا يعبر عن أن " أبا حمو الثاني " كان منكبا على نفسه الممزقة يلتمس لها العزاء والسلوة في هذه الأبيات التى كانت تصدر عنه حزينة كئيبة فيها كثير من الحيرة والألم .

ويتضح من هذا ان اعتناء هذا السلطان بتلك الليالي المولدية لم يمنعه من الاهتمام بقضايا الساعة التي تشغل باله وهي تثبيت سلطته وبسط سيادته على كامل مملكته . ولذا كانت قصائده المولدية تصدر عن نفس حزينة وهي راجعة كما ذكرت الى العوائق التى كثيرا ما كانت تعوقه وتحول دون سير أموره بيسر كوقوف " بني مرين " في وجهه وتغذيتهم لأسباب الفتنة والشقاق في امارته وذلك بتحريك خصومه السياسيين والخارجين عن طاعته ، ومدّهم بالأسباب التى تساعدهم على خلق جو الفتنة والقلاقل ، ثم ابتلائه بعصيان ابنه " أبي تاشفين " الطموح الى السلطة ووراثة العرش .

فمن الطبيعي أن تنعكس هذه الاحوال الصعبة على أشعار " أبي حمو " فتجعله يتألم لهذه الأوضاع فيترجم عن ذلك كله في شكل شكايات وآهات يبثها في تلك القصائد المولدية التى يخاطب فيها النبي عليه السلام يشكو له ما أصابه ، ويلتمس منه العون والبركة .

وعلى الرغم من المحن والعوائق التى عانى منها فان معاناته لم تمنعه من الاهتمام بمولد الرسول والحرص على إحياء تلك الذكرى وعلى نظم الشعر فيها ، " فما من ليلة مولد مرّت في أيامه إلا ونظم فيها قصيدا في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أول ما يبتدى ، المستمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده ، ثم تتلوه من رفع الى مقامه العلي في تلك الليلة نظما " . (١) مما جعل تلك الليالي المولدية مناسبة عظيمة للشعراء ، وبخاصة المقربين منهم من السلطان ، المنشدين في المناسبات لإبراز مواهبهم،وشحذ قرائحهم الشعرية فهى قد كانت مجالس أدبية يتبارى فيها الشعراء لابداء ما لديهم من قدرة على قرض الشعر وبليغ القول في تلك الليالي التي كان الكلام ينصب فيها على مدح النبى واظهار الشوق الى زيارة قبره والتبرك بتلك البقاع المقدسة والأماكن المعظمة المشرفة . ولذا كان لعامل التنافس دور في هذه الليالي كما يمكن أن نستشفّ من خلال تلميحات بعض الشعراء في تلك الأبيات الفخرية التى عادة ما يختتم بها الشعراء قصائدهم وتظهر فيها لهجة التنافس

(١) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ١٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتباهي ومحاولة كسب الحظوة عند الامـــير .

يقول " محمد بن يوسف الثغرى " في ختام مولدية أنشدها سنة ٧٧١هـ مخاطبا " أبا حمو " :

فلورأى مَنْ مضى ما شِدْتَ من كرم ... لم يمدح "المتنبّى" آل حِمْـدان
إليْكَها كلماتٍ لَوْبِها سَمِعَـــــــتْ ... أولادُ "جَفْنَة" قالوا شعر حسّـــان
ما مثل عبدك في مُدّاح مجدك مـــن ... مَثْنَىً ولا لك في الاملاك من ثان (١)

ونرى لهجة التنافس عند " يحيى بن خلدون " في إحدى مولدياته التى يهديها الى " أبي حمـــــو " والتي يقول فيها :

وخُذْها أميرَ المؤمنين مُجاجَـــــــةً ... من القول غُرّاً من عُلاكَ تَبـــيْنُ
شَأَوْتَ بها صَحْبِى وأَنْتَ شهيدُهـــــا ... فليس لها بين النظام قَرِيـــــنُ (٢)

ويعبر " أبوعبدالله التلاليسي " عن هذا المعنى ، ولكن بشيء من المرارة ، في احدى المولديات معاتبا السلطان الذى لم يعطه مكانه اللائق به بالمقارنة مع غيره :

فها أنا مذ بايعْتُه وخدمتـــــــه ... أجرّ على اهل البسيطة اذيالـــــى
فان نالنى منه قليل عنايـــــــــة ... فما هذه الدنيا وحقّك الّا لـــــى (٣)

واذا كان السلطان " أبو حمو الثاني " قد أحاط مثل هذه المناسبة بما يتواءم مع مستواها ، وبلـــغ " ماقاله هذا السلطان الجليل ، وما رفع الى حضرته من شعراء دولته من المدائح النبوية والقصائد المصطفوية في هذه الليلة المباركة شيء كثير " (٤) فان خليفته على العرش الزياني ولده " أبـو تاشفين " قد أضاف الى هذا الموسم ما يمكن اعتباره تجاوزا لمراسيم والده ، فقد أصبح في عهـــده

---

(١) بغية الرواد ج ٢ ، ص ٢٣٠
(٢) نفسه ، ص ٢١٨
(٣) " بغية الرواد " ج ٢ ، ص ١٤٢
(٤) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ١٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" يحتفل لليلة سابع مولده صلى الله عليه وسلم ، كما يحتفل لليلة مولده عليه السلام ، زيادة على سلفه ، ثمّ جرت سير الملوك بعدهم من أبنائهم على هذا النظام من احتفالهم لليلة مولده صلى الله عليه وسلم ، ورفع الشعراء اليهم في تلك الليلة القصائد النبويات المولديات . " (١)

ولا شك في أن الاحتفال بليلة السابع من مولده ليست شيئا جديدا ابتدعه " أبو تاشفين الثاني " فقد كان معمولا بها في بعض البلاطات كبلاط المرينيين . وقد خصّ " الخطيب بن مرزوق التلمساني " فصلا من كتابه " المسند " للحديث عن الاحتفال بليلة مولد الرسول عليه السلام وليلة السابع منه عند " بني مرين " وبصورة خاصة في بلاط السلطان المريني " أبي الحسن " (٢)

وقد ساق أبو عبدالله التنسي " في " نظم الدر والعقيان " نموذجا شعريا في هذه المناسبة استهله بقوله :

" ولما كانت ليلة سابع المولد المذكور (يقصد مولد سنة ٧٩١ هـ) ، احتفل لها أيضا أعلى الله مقامه ، بمثل احتفاله لليلة المولد او أعظم ، ورفع اليه فيها " أبو عبدالله محمد بن يوسف الثغرى " قصيدة مدحه فيها ومدح نجله الكريم ولي عهده المولى " أبا ثابت " (٣) . ومطلع هذه القصيدة :

أُعلِّلُ نفسي والتعلّلُ لا يُجْدِي ... وان كان أحياناً يُسكّن من وجْدِي

فَهَلْ من سبيلٍ والاماني ضلة ... الى معهد بالأُنْس طال به عَهْدِي (٤)

واحتفل السلطان " أبو زيان الثاني " بذكرى المولد النبوى احتفال أسلافه الكرام يرفع فيه الى حضرته العلية الأمداح ما يزرى بنور وجه الصباح .. (٥) كما ذكر " التنسي " ومن ذلك قول " الثغرى " المتقدم الذكر في قصيدة له قال فيها :

---

(١) رحلة ابن عمار ، ص ١١٨

(٢) انظر : المسند " ص ١٥٤

(٣) انظر : تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ص ١٩٦

(٤) نفسه ، ص ١٩٦

(٥) نفسه ، ص ٢١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تذكـرت صحْبـًا يمّموا الضال والسـدرا فهاجَتْ لي الذكرى هوى سكن الصـدرا

سروا في الدجى يَفْلُون ناصية الفلـى وعند صباح القوم قد حمدوا المُسْـرى

غَدَتْ نكرات البـينِ معرفة بهـم وأهلـة تلك المجاهل لا قَفْـرا

وهى قصيدة طويلة عرّج الشاعر في آخرها على مدح السلطان الزياني والاشادة بفضله على البـلا د والعباد .

وساهمت الموشحات مثل الشعر العمودى في هذا الفن برئاسة الطبيب الشاعر الوشاح " أبـي عبدالله التلاليسي " وسأتعرض لها في أثناء حديثي عن الموشحات في تلمسان خلال هـذا القرن .

---

(١) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، ص ٢١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المـــــدح

وهو من الاغراض التى راج سوقها في هذه الفترة . وقد ساعد على ذلك الازدهار ما كان يلقـاه الشعراء من الحفاوة والاكرام لدى ملوك هذه الدولة وأُمرائها الذين جعلوا من تلمسان مركز استقطاب وقبلة للوافدين حتى يضاهوا بها " فاس " و " تونس " وغيرهما من الحواضر العلمية والأدبيـة فوجد الشعراء في مدح هؤلاء الملوك وابراز خصالهم ومآثرهم وسيلة الى الغاية التى يطمحون اليها . وقد سار الشعراء في قصائدهم المدحية على النحو التالي :

استهلال القصائد بالمقدمات الغزلية أو بوصف الطبيعة ، وقلّ من شذّ عن هذا السبيل ، ثم يدخلون الى الغرض الأصلى مع الحرص على حسن التخلص . ويختتمون قصائدهم في المعتاد بأبيات تضم في اطارها شيئا من الفخر بانفسهم وبشاعريتهم . فمحمد بن خميس " استهل قصيدته التى رفعها الى السلطان " ابي زيان الأول " بأبيات غزلية جاء فيها :

أَرَّقَ عيْني بارقٌ من أَثَـــــالْ ... كأنّه في جُنْحِ لَيْلِى ذُبَـــــالْ
أثار شوقا في صميم الحَشَـــى ... وعبرتي في صحن خدّي أسـال
حكى فؤادي قَلَقاً واشتعـــال ... وجَفْنَ عَيْنِي أَرَقاً وانهمـــال
جوانحٌ تَلْفَحُ نيرانُهـــا ... وأَدْمُع تَنْهَلُّ مثل العَـــزال (١)

فجعل هذه الأبيات وسيلة للوصول الى مدح الأُسرة الزيانية التى نوه بفضلها عليه قائلا :

لولا بنو زيّانَ ما لذَّ لـــي الـ ... عيشُ ولا هانَتْ عَلَيَّ الليـــال
هم خَوَّفوا الدهرَ وهم خَفَّفـــوا ... على بني الدنيا خُطاهُ الثقـــال (٢)

ويهدى الشاعر في النهاية قصيدتهالى ممدوحه ، مفتخرا بما فيها من معارف :

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٣٦٣
(٢) نفســه ، جـ ٥ ، ص ٣٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خُذْها " أبا زيانَ " من شاعـــــر مُسْتَمْلَحِ النزعـة عَذْبِ المقـــال
يَلْتَقِطُ الألفاظ لقْطَ النَّـــــوَى وينظمُ الآلاءَ نظمَ الـلآل
مجاريًا " مِهْيار " (١) في قولـــه ما كنت لولا طمعي في الخيـــال (٢)

ومطلع قصيدة " مهيار التى عارضها " ابن خميس " هو قوله :

ما كنت لولا طمعي في الخيـــالْ أنشد ليلي بين طولِ الليـــالْ (٣)

ونلمس مسحة الحزن والتشاؤم في أبيات " ابن خميس " الذى مرت حياته بظروف صعبة أدّت به فـي نهاية المطاف الى مغادرة تلمسان ، فالتجأ الى سبته " ثم جاز البحر الى الاندلس .

واذا كان " ابن خميس " قد استخدم الغزل في الأبيات السابقة للوصول الى الممدوح فـان " أبا عبدالله التلاليسي " يجد في طبيعة تلمسان سبيلا الى ممدوحه كما يتضح في هذه الأبيات التى استهل بها احدى قصائده المرفوعة الى السلطان " أبي حمو الثاني :

سَقَى الله من صوب الحَيَا هَا طِلًّا وَبْـلاَ ربوع تلمسان التى قدرهـا اسْتَعْلَـى
ربوع بها كان الشباب مصاحبـــى جررت الى اللّذات في دارها الذَّيْلا
فكم نِلْتَ فيها من أمانٍ قصيـــةٍ وكم مَنَحَ الدهر الضَّنِين بها النَّيْـلا (٤)

فجاء وصفه لطبيعة تلمسان ممزوجا بالحديث عن مرحلة شبابه النضرة وما ناله فيها من منى في ربوع هذه المدينة وبين أحضان طبيعتها الساحرة ، وبعد اسهابه في ذكر مفاتن المدينة ومنتزهاتها الجميلـة يربط حسنها بوجود عاهلها قائـلا :

---

(١) مهيار بن مرزويه ، أبو الحسن الديلمي شاعر كبير ، وهو فارسي الأصل وكان مجوسيا فأسلم على يد " الشريف الرضى " توفي سنة ٤٢٨ هـ ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٤٩
(٢) نفح الطيب جـ ٥ ، ص ٣٦٤
(٣) نفسه ، ص ٣٦٤
(٤) نفسه ، جـ ٧ ، ص ص ١٢٩ - ١٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا عَجَبٌ أن كنتِ في الحسن هكـــذا وموسى الامام المرتضى فيكِ قد حَـــلاَّ
وَلاَ حَتْ لدينا فيكِ منه محاســـنٌ كَأَنَّ سناها حاجب الشمس إذ جَلَّى (١)

فنلاحظ حسن التخلص عند انتقال الشاعر من مدح الحضرة الى مدح صاحبها . وقد يهجم الشاعر علـــى موضوع المدح مباشرة ، وهو قليل ، كما فعل " محمد بن صالح شقرون " أحد كتاب دولة السلطان " ابـــي حمو الثاني " في قصيدة مطلعها :

حدّث عن الملك المنصور ما شِيتَـــا تجد أَلَذَّ حديث يشبه القوتـــا
وذِعْ غرائب فتحٍ كلها عجـــبٌ غدا النظام بها دُرّاً وبا قوتـــا (٢)

ولعل لطبيعة المناسبة صلة بنهج الشاعر ، فهو في صدد وصف معركة انتصر فيها مخدومه على بني مرين .

وأما المعاني التي اتجه اليها الشعراء في تلمسان ، فهي معان قديمة طرقت من قبل الشعراء في مختلف الأقاليم والعصور الأدبية ، فصفات مثل العقل والعدل والشجاعة والعفة ، وما يتفرع عنها مـــن الصفات الخلقية والنفسية هي القاسم المشترك الذي تحتويه تلك القصائد .

من هنا جاءت مدائحهم متشابهة من حيث الاطار العام ، لكنها وردت في صيغ وأساليب مختلفة تبعا لاختلاف أساليب الشعراء وطرائقهم التعبيرية ، ذلك ان لكل شاعر طريقته الخاصة في ايراد المعاني وطريقته في التخيل . فابن خميس " في قوله :

وكعبةٌ للجود منصوبةً يسعى اليها الناس من كلّ بال (٣)

يعقد شبها بين " بني زيان " وبين الكعبة ، فمن كثرة جودهم أصبحوا مقصد كل الناس مثل الكعبة التي يسعى اليها الناس من كل فجّ عميق " .

ويبرز " محمد بن يوسف الثغري " صفة الجود عند ممدوحه ، رابطا بين عطائه السخيّ وعطاء الطبيعة الذي لا ينضب وذلك حين يقول :

---

(١) نفح الطيب جـ ٧ ، ص ١٣٠
(٢) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١٤٩
(٣) نفح الطيب جـ ٥ ، ص ٣٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلّما ضنّت السّحائب أغنـــــت راحتاه من السّحاب الغـــوادي
كـم هباتٍ له وكم صدقـــــاتٍ عائداتٍ على العُفـــاة بـــواد
فأيادي خليفةِ الله موســـــى أبحرٌ عذبـة على الـــوُرّاد

وقولـــه :

جلّ باريـــه ملجأ للبرايـــــا كالحيا ضامناً حيـاة البـــلاد (١)

وصفة الجود يكاد أن يكون لها حضور في جل القصائد المدحية نظرا لأن وراء مديح الشعراء منفعة وغنيمة ، قبل أن يكون اعجابا وثناء على الممدوح ، وذلك لارتباط المدح بالتكسب . ولأنها ايضا ظاهـــرة تقليدية منذ القدم .

وقد تأتى صفة الجود عندهم مقرونة مع غيرها من الصفات مثل قول " أبي عبدالله التلاليس " في " أبي حمو الثاني " :

كريمٌ حليم حاتميّ نوالُـــــــه سعيدٌ حميـد يصدقُ القول والفعـلا (٢)

ويقرن " محمد بن يوسف الثغرى " بين الكرم والشجاعة في وصف ممدوحه قائلا :

أعطى فأين الغيث من اعطائـــــه في بشر بسّام ونفـــــع دوام
وسطا فأين اللّيث من اقدامـــــه في الحرب عند تزلزل الأقـــدام (٣)

والشجاعة من المعاني التى اتجه اليها الشعراء في مدحهم لا سيما أن هذه الفترة اتّسمت بالصراعـات السياسية والنزاعات المتواصلة بين الدولة الزيانية وجيرانها في الشرق والغرب ، لا سيما " بـــنى مرين " الذين ما فتئوا يهددون هذه الدولة ويحاولون ضمها الى رقعتهم ، بالاضافة الى الفتـــن والقلاقل التى كانت تنشب بين الفينة والأخرى داخل الدولـة الزيانية نفسها ، مما جعـل الشعـراء يركزون على شجاعة أولياء النعمة وقوة بأسهم في صد الأعداء . ومن أمثلة ذلك ، هذه الأبيات التي

---

(١) " نفح الطيب " جـ ٧ ، ص ١٢٢
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٠
(٣) " بغية الرواد " جـ ٢ ، ص ٢١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشيد فيها " أبو عبدالله التلاليسي " بانتصار السلطان الزياني " أبي حمو الثاني " على بني مرين ويبين شجاعته التي أرغمتهم على طلب الصلح :

مِنَ الزّاب (١) وافانا عزيزا مُظَفَّرا ... يجرُّ من النصر المُنَوَّطِ به ذَيْلا
بَدَتْ لِمَلِيكِ الغرب شدّةُ بأسه ... وإنعامه للمعتفين وما أَوْلَى
فَبادَرَهُ بالصّلح خَوْفَ فواتِه ... وسالَمه إذكان ذاك به أَوْلَى
فكان بحمد الله صلحا مُهَنَّأ ... به طابت الدّنيا وجزنا به السّبلا (٢)

فهو يشير من خلال هذه الأبيات الى حدث بارز في تاريخ " بني عبدالواد " يتمثل في تلك الحركة الشهيرة التي قام بها السلطان المذكور من " تونس " الى قاعدة ملكه تلمسان سنة ٧٦٠ هـ ، وأدّت نتائجها الى هزيمة بني مرين واخراجهم من " تلمسان " والمغرب الأوسط . فلهذا السلطان دور مميز في تاريخ " بني عبدالواد " بفضل ما امتاز به من طموح كبير ، وارادة صلبة في تحمل الشدائد لتحقيق ما تصبو اليه نفسه في تجديد دولة آبائه وأجداده ، وإرساء دعائم حكمها بعد انتزاع تلمسان من يد " بني مرين " . وقد سجّل السلطان هذه الاحداث وأحسن تصويرها في قصيدة فخرية طويلة مطلعها :

جَرَتْ أَدْمُعِي بين الرُّسوم الطَّواسم ... لما شحطتها من هُبوب الرَّواكِم
وقفتُ بها مستفهما بخطا بها ... وأنّى خطاب للصّلاد الصّلادم (٣)

وسأعرض نماذج منها أثناء حديثي عن شعر الفخر والحماسة عند هذا الشاعر .

ويشيد الكاتب الشاعر " محمد بن صالح شقرون " بانتصار " أبي حمو " على بني مرين " في وقعة اخرى سنة ٧٦٥ هـ ، مبينا أن نصره كان من السماء ، وأن الاقدار كانت تسير وفق ما يريد :

---

(١) والزاب الكبير منه بسكرة وتوزر وقسنطينة وطولقة وقفصة ونفزاوة ونفطة وبادس . والزاب ايضا كوره عظيمة ونهر جرّار بأرض المغرب على البر الاعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها " انظر : " معجم البلدان " جـ ٣ ، ص ١٢٤

(٢) نفح الطيب " جـ ٧ ، ص ص ١٣٠ - ١٣١ (٣) " واسطة السلوك " ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يُريبُك شَكٌّ أنّ نُصْرتَـــــه ... من السماء، وما ينفكّ مبخوتـــا
جَرَتْ على أُفْقه الاقدار حاميـــة ... له فزاد بها عزّا وتثبيتـــا (١)

ثمّ يصور وقع الهزيمة وأثرها في نفوس الأعداء قائلا :

أُنْظُرْ إشارته في الغرب ما صَنَعَـتْ ... لَمّا أتاهُمْ ثنوا نحو العدى ليتـا
وأصبحوا شردا في البيد قد جَفلُـوا ... مثل الظليم غدا بالحبل مَشْئُوتـا
واسلموا جزعا للحين جامعهـم ... وخَلّفوه حليف الذّعْرِ مَفْلِيتـا
ونافر البعضُ بعضا بعد أُلْفَتهـم ... حتّى لقد خِلْتُ ذا صَبّاً وذا حوتـا
وعاد ما جمعوا أيدى سَبَا بَـدَدًا ... بضعف رأى وقد جاءُوا مَصالِيتـا (٢)

ولو استعرضنا القصيدة كلها لرأينا الشاعر قد اقتصر في مديحه للسلطان على ابراز خاصية واحدة بنى على محورها جل أبيات القصيدة ، وتتمثل في الشجاعة ، وهذا شيء طبيعي اذا عرفنا أن الشاعر يصور جوّ قتال وحرب لمعركة شهدها او أُخْبِر عنها ، وهدفه هو أن يصور ممدوحه في اطار من الفروسية والشهامة ، فغلبت على الأبيات بناء على ذلك سمة حماسية نظرا لما للممدوح في هذا المقام من اتصال مباشر بالحرب . ونجد هذه الروح الحماسية التي امتزجت بالمدح في هذه الابيات التي رفعها الكاتب " محمد بن علي العصامي " (٣) الى أبي حمو الثاني يهنئه بفتح بلدة " تدلس " التي انتزعها من يد الحفصيين سنة ٧٧٦هـ (٤) ويحرضه على فتح بجاية :

---

(١) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١٤٣
(٢) نفسه ، ص ١٤٤
(٣) أحد كتاب الديوان بتلمسان في عهد السلطان أبي حمو الثاني ، ولم أتوصل الى ترجمته رغم بحثي المضني ، ذكره صاحب " بغية الرواد " اثناء اشارته للقصيدة المذكورة " بغية الرواد " جـ ٢ ، ص ٣١٦
(٤) المصدر نفسه ، ص ٣١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وافت بفتح " تدلس " لك مَالِكِـــى فَاهْنَأْ بمُلْكٍ بالفُتُـــوح مـــوزّرِ
"فتدلس " تقضي بفتح بجايـــــة فانهض بعزّك أوبسعدك تَظْفَـرِ
وَاكْرَعْ بواديها وجل ببديعهـــا وربيعها الزّاهى بذاك المنظـــر (١)

وقد أُضفى الشعراء صفة حماة الدين الاسلامي على السلاطين ، وهي فكرة سخّرت لخدمة أغـــراض سياسية . من أُمثلة ذلك قول " الشغرى " في أبي حمو :

أَحْيَيْتَ بنائله المكـــارم والعـــلا وَحَمَى بصارمـــه حِمَى الاســـلام

وقولـــــه :

من لم يكن هذا المقام امامـــــه في دينـــه لم ينتفع بإمَـــــام (٢)

ونشر العدل بين الرعية،والأمن في ربوع البلاد من الصفات التى نُعِتَ بها السلاطين أيضا ، يقـــول " أبو على حسن بن ابرهيم بن سبع " (٣) في هذا الصدد :

وعادت تلمسانٌ لأحســـن حالـــة فكم بعدما بِيعَـــتْ بِخَسْفٍ يُسامِـــر
ومُدّت ظلال الأمن فالكُلّ مَأْمَـــن وَسَحّت عهاد الخَيْرِ والجَودّ غَامِـــر (٤)

وكأن الشاعر يعقد مقارنة في هذين البيتين بين حالة " تلمسان " ابّان الحكم المريني ، ومـــا سادها من خراب ودمار أثناء الحصار وكيف أصبح حالها في عهد سلطانها " أبي حمو " الذى حمـــى حماها ونشر الأمن والطمأنينة فعمّ الرخاء فيها .

وانتحل الشعراء " لبني عبدالواد " صفة الشرف في النسب ، وهم يهدفون من ذلك الى تأييـــد فكرة سياسية معينة ، وهي أحقيتهم في الحكم . ومعلوم أن هذه الفكرة قد روّجت أثناء قيام هـــذه الدولة في الربع الأول من القرن السابع الهجرى ، فاستهجنها مؤسس دولتهم " يغمراسن بن زيان "

---

(١) نفســـه ، ص ٣١٦ (٢) نفسه ، ص ٢١٣
(٣) احد كتاب وشعراء بلاط السلطان أبي حمو الثاني ، لم أتوصل الى معرفة ترجمته
(٤) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٢٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم ما لبثت أن طرحت في هذا القرن فاستغلها بعض الملوك مثل " أبي حمو الثاني " لتثبيت دعائم ملكه ، فتلقفها الشعراء ورددوها في مدائحهم ، يقول " يحيى بن خلدون " مشيرا الى نسب أبي حمو :

أَمَوْلَاَى يا أَعْلَى الملوك بأسرها ... واكرمهم أصلا وذاك مبين

إذا افتخروا جدا كريما ففخركم ... بعبد مناف عند ذلك يكون (١)

وموقف الشاعر من هذه الفكرة كان يمليه عليه مصالح خاصة بحكم موقعه داخل البلاط الزياني .

وممن سلموا بصحة هذا الادعاء " لسان الدين بن الخطيب " الذى كان هو الآخر يحاول أن يتقرب من السلطان الزياني المذكور ، فمما جاء في قصيدة سينية له في مدح أبي حمو :

من أنكرَ الفضل الذى أُوتِيتَهُ ... جَحَدَ العيانَ وأَنْكَرَ المَحْسوسا

من دان بالإخلاص فيكَ فَعَقْدُهُ ... لا يَقْبَلُ التَّمْوِيهَ والتَّلْبِيسا

والمنتمى العَلَوِيّ عيصك لم تكن ... لِتُرَى دخيلا في بنيه دَسِيسا

بَيْتُ البتولِ ومنبت الشّرف الذى ... تحمِي الملائكُ دوحه المغروسا (٢)

ومال الشعراء الى الغلو والافراط في المعانى من ذلك قول " محمد بن صالح شقرون " السالف الذكر في وصف شجاعة ممدوحه الذى يراه يتحكم في توجيه دفة الحرب وفق أوامره :

مواقف الحرب لا تَعْدُو أوامره ... إن قال كفى (لم) تبد تعنيتا

وإن اشار بافراء لها فصمت ... ظهر العدوّ ونالت منه تَشْتِيتا (٣)

فقد أدّى به حماسه الناجم عن انفعاله بالحدث الى الخروج عن الحد المقبول من المبالغات ، ونجد شيئا من هذه المبالغة عند " يحيى بن خلدون " في وصف شجاعة السلطان " أبى تاشفين الثاني " :

قالوا وَيَنْظِمُ فارسين بطعنة ... يوم اللقاء ولا يراه جليلا

لا تعجبوا فلوَ انّ طول قناته ... ميل إذن نظم الفوارس ميلا (٤)

---

(١) " بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٢١٨

(٢) " نفح الطيب " جـ ٦ ، ص ١٩٨

(٣) بغية الرواد " جـ ٢ ، ص ١٤٤ ، كذا في الأصل

(٤) نفسه ص ٢٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند محمد بن علي المرسي " الذي يرى أن انتصار " أبي حمو الثاني " في " تدلس " يرجع الى حكمته ، وحسن تدبيره يقول :

لله في تكييف أمرك حكمة ... بهرت شواهدها وسرّ سماء
فشأوتَ أملاك الزّمان بأسرهم ... شأواً عَلَوْت به عن النظراء (١)

ووصلت مثل هذه المبالغات حدّ الغلو عند " يحيى بن خلدون " ، وهو في صدد بيان شرف ولي نعمته السلطان " ابي حمو الثاني " وكأنه يريد ان يتصور هذا الممدوح شخصية مثالية تتمثل فيها ارقى الصفات والفضائل الخلقية والنفسية وذلك حين يقول :

شريف ملوك الأرض فرعا ومحتدا ... واكملهم في الجنس والفضل والكسب
هو القطب والاملاكُ شُهْب سمائه ... وهل دارت الشُّهْبان إلا على القطب (٢)

ومن ذلك ايضا ما جاء عند "الثغري" في مدح " أبي حمو " :

بسَعْدِك الجار يان الدهرُ والقدر ... وباسمك الغالبان النصرُ والظّفر
للّهِ منكَ مليك أروع ورع ... في الحرب عمرو وفي محرابه عمر
يلقى العفاة ببشرٍ اثره كرم ... كذلك الغيث اثر البرق ينهمر (٣)

الى غيرها من المبالغات التي جاءت منثورة هنا وهناك في قصائد المدح المرفوعة الى " أبي حمو الثاني " بخاصة ، والى غيره من السلاطين بعامة . ولكن هذه المبالغات التي تبدو مفرطة عند بعض الشعراء كان لها دوافعها ، فوضعهم الاجتماعي والسياسي داخل البلاط الزياني كان يفرض عليهم ذلك ، لا سيما أنهم كلهم كانوا يشغلون مناصب ، ووظائف حكومية في دواوين الدولة

---

(١) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٣١٦
(٢) نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٣٣
(٣) زهر البستان ، ص ٥٣ و

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كديوان الانشاء مثلا ، بل ان بعضهم كان وضعه مميزا مثل "يحيى بن خلدون " الذي كان يشغل منصب كاتب سر السلطان " أبي حمو الثاني " . فهذا الوضع جعلهم يبالغون في صفات الممدوحين حرصا على ارضائهم .

وثمة عامل آخر في تعليل هذه المبالغات هو الذوق الشعري والأدبي السائد في تلك الفترة . (١) هذا وقد أثبتت بعض المصادر التاريخية أن لملوك هذه الدولة ، أو لبعضهم على أقل تقدير ، مثل " أبي حمو الثاني " مواقف جديرة بالتقدير ، وليس أدلّ على ذلك من وقوفه الى جانب الأندلس في محنتها يوازرها ، ويقدم لها ما استطاع من مساعدة بالمال والخيل والزرع في كل سنة . فقد وجه اليهم سنة ٧٦٣هـ خمسين ألف قدح من الزرع وثلاثة آلاف دينار للكراء عليه في البحر . (٢) وهو صنيع أطلق السنة الشعراء بالثناء على أريحيته ونجدته . فوجه اليه الفقيه " أبو محمد عبد العزيز بن على بن يشت " (٣) الذي كان ضمن الوفد الذي أرسل الى تلمسان لهذا الغرض قصيدتين يقول في احداهما مشيدا بعفته وابتعاده عن اللذات والملاهي ، وسلوكه طريق الجد والحزم :

فَمَنْ كموسى " أبي حمو بن يوسف " أم ... مَنْ يُجَارِيه في العلياء يبغيها

لم تلهه لذّة من دون مطلبه ... ولا تنعّم بالدّنيا وما فيها

حتّى تَنَسَّم في الاملاك منزلة ... وحلّ من رُتَب العليا أعاليها (٤)

---

(١) فضل كثير من النقاد وعلى رأسهم قدامة " المبالغة على الحد الأوسط فيقول:" إن الغلوّ عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب اليه اهل الفهم بالشعر والشعراء قديما . وقد بلغني عن بعضهم انه قال : أحسن الشعر أكذبه وكذا يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم . " انظر : نقد الشعر ص ٦٢ . قدامة بن جعفر . تحقيق كمال مصطفى . ط : الثالثه ١٩٧٨

(٢) بغية الرواد " ج ٢ ، ص ١١٤ (٣) لم اتوصل الى ترجمته (٤) بغية الرواد " ج ٢ ، ص ١١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشيد بدوره في تجديد الدولة الزيانية قائلا :

وشاد ملك بني زيانَ ثانيـــــــــةً ... وردّها دولـــة غـرّا لأهْلِيهـــــا
أتَى بها دولـــة قلّ النظير لهـــــــا ... كأنّما لم تدلْهـــا كفّ شانيهـــــا
فكم شَكَتْ وصبا مِمّا ألمّ بهـــــــا ... حتّى شفاها من التبريح شافِيهـــا (١)

فيشيد الشاعر من خلال هذه الأبيات بعظمة الدولة الزيانية في عهد " أبي حمو الثاني " الذى عرفت في عهده رخاء اقتصاديا بازدهار صناعتها وفلاحتها مما جعل إمارة " غرناطة " تطلب ودّهـــــا ومساعدتها لاسيما في ظل تلك الظروف القاتمة التى كانت تعيشها قلعة الاسلام بالأندلس المهددة من قبل " الأسبان " الذين كانوا يتربصون بها الدوائر . وبعد استرسال الشاعر في وصف الحالة السيئة التي كانت عليها الأندلس يختتم قصيدته بالافصاح عن الغرض من وفادته الى تلمسان وهو طلـــــب الاعانة الذى هو بيت القصيد :

أقبلْ عليها وقابلْها بفضلكـــــــــم ... فقد حَوَتْ بك تشريفاً وتنويهـــــا
لا زلت في أفُقِ العلياء مرتقبـــــا ... تمضي الأوامر في الدنيا وتجريهـــا (٢)

وقد كان الاندلسيون يلجأون الى ملوك المغرب ، ومن بينهم الزيانيون عندما كان يتهددهم خطـــر النصارى وكان ملوك تلمسان لا يتوانون في الاعانة ونجدة اخوانهم في الملة والعقيدة على قدر مـــــا تسمح به ظروفهم وامكاناتهم . فقد استصرخ ملك غرناطة " أبوعبدالله محمد بن أبي الحجاج بـــــن نصر " (٣) سنة ٧٦٨ هـ السلطان الزياني " أبا حمو الثاني " بعدما ضيّق الاسبان الخناق علـــى غرناطة بقصيدة من نظم الفقيه " أبي البركات البلفيقي " (٤) مطلعها :

هل من مُجيب دعوة المستنجـــــد ... أم من مجير للغريب المفـــــرد (٥)

---

(١) " بغية الرواد "جـ٢، ص١١٦
(٢) نفســـــــه ، جـ ٢ ، ص ١١٨
(٣) ابو عبدالله محمد الغني بالله ، ولد سنة ٧٣٩ وتوفي سنة ٧٩٣ هـ انظر : اللمحة البدريـــة ص ١٠٠ ، أزهار الرياض ، جـ ١ ، ص ٣٧ ، ص ٥٨ ، ص ص ١٩٤ - ٢٠٤
(٤) محمد بن ابراهيم بن الحاج السلمى البلفيقى ، أبو البركات ، ولد سنة ٦٨٠ هـ ، وتوفي سنة ٧٧١هـ : " جذوة الاقتباس " ص ١٨٣ " الدرر الكامنة " جـ٤ ، ص ١٥٥ "الأعلام بمن حل مراكش " جـ ٣ ، ص ٣٢٥
(٥) " بغية الرواد " ، جـ ٢ ، ص ١٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد اطنابه في ما آل اليه الوضع بالأندلس بعد عزّ ومجد شامخين ، وكيف صارت حالة المسلمين بها يصل الى مدح " أبي حمو الثاني " معولا عليه في تخليص الاندلس من الكابوس الجاثم على أرضها فيقول :

إنّا بأندلس نعالج مُعْضلا ... من داء ذا الخطب المقيم المقْعد
نُمسي ونصبح في مقارعة العدى ... ونروح في ريب الزمان ونعتدى
ولطالما عوّدتمونا منكم ... صنعاً جميل القصد عذْب المورد
طوراً بإمدادٍ وارفاد فكمْ ... لكمُ على هذي الجزيرة من يد
أوتارة بإعانة منكم لنا ... بالسّهمرية والقنا المتقصّد (١)

وقد أرفق بهذه القصيدة كتابا ورسالة من انشاء الوزير الأديب " لسان الدين بن الخطيب " (٢) الذى كانت تربطه بأبي حمو " علاقة حميمة لعلها ابتدأت في غرناطة مسقط رأس " أبى حمو " ، أو بالمغرب الذى تردد عليه ابن الخطيب كثيرا . وكانت الرسائل بينهما متواصلة غير منقطعة على الصعيدين الرسمى والشخصي . ففي أواخر عام ٧٧٤هـ على اثر استرداد " أبى حمو" لقاعدة ملكه " تلمسان " بعد انحسار الغزو المريني عنها وجه " ابن الخطيب " اليه أبياتا لزومية جاء فيها :

وقف الهواء على ثناك لساني ... رَعْياً لما أوْلَيْتَ من احسان
فكأنّما شُكرى لما أوليته ... شكر الرياض لعارض النيسان
أنا شيعة لك حيث كنت قضية ... لم يختلف في حكمها نفسان (٣)

وفي ديوان ابن الخطيب مقطوعتان يشيد فيهما الشاعر بمساعدة " أبي حمو" للاندلس ووقوفه معها في الدفاع عن معاقل الاسلام :

---

(١) بغية الرواد ج ٢ ، ص ١٦٩
(٢) نفسه ، ص ص ١٧٠ - ١٨١
(٣) نفسه ، ص ٢٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد زار الجزيرة منك بحـــــــر يمدّ فليس نعرف منه جـــزرا
أعدت لها بعهدك عهد موســـــى سميك فهي تتلو منه ذكـــــرا
أقمت جدارها وافدت كـــــــزا ولو شئت اتّخذت عليـــه أجـــرا (١)

وقوله :

وقالوا الجزيـــرة قد صوّحـــــــت فقلت : غمام النّدى تنتظـــــــر
اذا وكفت كفّ موســـى بهـــــــا غماما يعود الجـناب الخضـــــر (٢)

وفي بغية الرواد و " ريحانة الكتاب " عدة رسائل لابن الخطيب فيها شكر وثناء واعتراف بالجميـــل من " بنى الاحمر " لدولة بني عبدالواد على ما أمدّت بها بلادهم من مساعدة وعون ، وتشجيـــــع وفي القصيدة التي وجهها " ابن الخطيب " الى " أبي حمو " أواخر عام ٧٧٥هـ، اشارات واضحة الـــى مساعدة هذا الاخير للاندلس . وذكر " المقرى " أن " ابن الخطيب " وجه هذه القصيدة عندمـــا أحسّ بتغير سلطانه ، فجعلها " مقدمة بين يدى نجواه ، لتمهد له مثواه ، وتحصل له المستقر، اذا ألجأ ه الأمر الى المفر " (٣) والقصيدة طويلة بدأها بالغزل التقليدى مطلعها :

أطلعن في سدف الفروع شموســـــا ضحك الظّلام لها وكان عبـــــوسا (٤)

ثم ينتقل الى مدح " أبي حمو " فيعدد صفاته العظيمة من شجاعة ووقار وكرم واحكام سياسة وغزارة علـــم جاعلا اياه ملجأه ومنجيه من خوفه وعذابه :

واذا طغى فرعونه فأنا الـــــــذى من ضرّه وأذاه عذت بموســـــــى
أنا ذا أبو مثواه من يحمى الحمـــــــى ليثا ويعلم بالزئير الخميســـــا
بحمى أبي حمو حططت ركائبـــــــي لمّا اختبرت الليث والعرّيســـــا
أسد الهياج اذا خطا قدما سطـــــا فتخلّف الأسد الهزبـر فريســـــا

---

(١) الديوان " الصيب والجهام والماضي والكهام " ص ٥٤٣ . تحقيق د. محمد الشريف قاهـــر الجزائر ط :الاولى . ١٩٧٣
(٢) نفسه ، ص ٥٣٩
(٣) " نفح الطيب " جـ ٦ ، ص ١٩٥
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بدرُ الهدى يأبى الضّلالَ ضياؤه أبدا فيجلو الظّلمةَ الحنديسا
جبلُ الوقارِ رسا وأشرف واعتلى وسما فطأطأتِ الجبالُ رؤوسا (١)

وبعدما يشير الى ما أمد به الاندلس المسلمة من سبائك موسومة لا تعرف التدليس ، وما ملأ أيديها من نوال وعطاء يبين رغبته - في ختام القصيدة - بالالتحاف بتلمسان واستقراره فيها لينعم بالهدوء والاطمئنان :

لا يستقرّ قَرارُ أفكاري الى أنْ استقرّ لدى عُلاك جليسا
وأرَى تجاهكَ مستقيمَ السير للـ قصدِ الذى أُعملتُهُ مَعْكوسا (٢)

وذكر " عبدالله التّنسى " أن " لسان الدين " قد حذا في هذه القصيدة السينية حذو " أبى تمّام " في قصيدته التى أوّلها :

أقَشِيبَ رَبعِهِمُ أراكَ دريسا تَقْري ضيوفَكَ لوعةً ورَسيسا (٣)

واختلس كثيرا من الفاظها ومعانيها . (٤) وأتبع " لسان الدين " قصيدته بنثر وصفه " المقرى " بأنه بديع (٥) وهو يدل على مكانته في الكتابة وطول باعه في اللغة . و " لابن الخطيب " قصيدة أخرى في السلطان " أبي حمو الثاني " لعلها آخر قصيدة طويلة جادت بها قريحته الشعرية إذ سرعان ما توفي بعدها بقليل . ذكر "ابن خلدون يحيى " أن " أبا حمو " وصله من الفقيه الوزير المرحوم " أبى عبدالله محمد بن الخطيب " برد الله ثراه عندما اشتدت مخافته من " بني مرين " وعيل اصطباره ، وقلبت له دنياه ظهر مجنها قصيدة غرّاء ميمية في غرض الاستصراخ والاستشفاع بمولانا أمير المسلمين " أبي حمو " عند مولاه السلطان " الغني بالله أبى عبدالله محمد بن نصر " أعزّه الله ، ثمّ عاجله الحال ومات رحمه الله كيف قدر ، والى الله تصير الامور " (٦)

---

(١) نفح الطيب جـ ٦ ، ص ١٩٧
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠١
(٣) الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ . تحقيق . محمد عبده عزام ، دار المعارف مصر
(٤) نفح الطيب جـ ٦ ، ص ٢٠١
(٥) نفسه ، ص ٢٠١
(٦) " بغية الرواد " جـ ٢ ، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومطلع هذه القصيدة هو قولـــــه :

أما لو علمنا أنه ينطقُ الرســـــمَ ولم يبقَ يوما من مُسمّاهُ الاّ اسْـــمُ
وان سُؤّال الرّبع ينفع غلـــــة فيحصل من أنباء من ظعن العلم (١)

وبعد المقدمة الغزلية التي وصف فيها الظروف القاسية المقلقة التي أصبح يعيشها ، وكيف أن النـــوم نفر من عينيه ، وأسلمه الصّبر الجميل الى الجوى ، وألمّ به البؤس ، وأحاط به الشقاء من كل جانـــب ، بعد كل ذلك يتخلص الى مدح السلطان وينعته بصفات العظمة والكمال ، وبعدد مزاياه على قومه وكيـــف أنقذهم من التّيه كما أنقذ موسى عليه السلام بني اسرائيل من التشرد والظلم :

أدال من البؤس ونجّى من الـــرّدى فعمّتْ به في قومه النعم العـــم
وأنقذهم من حيرة التّيه بعدمـــــا تقطّعت الأسباب وانتشر النّظْـم
وهش على يم الشدائد بالعصـــــا ووافق اذن الله فانفرق اليـــم (٢)

وينتقل الى تهنئة كل من أسعده الحظ واستقر قراره عند " أبي حمو " حيث النوال الغمر والكرم الجمّ والسلامة والسلم :

هنيئا لضيف في ذراك قـــــــراره بحيث النّوال الغم والكرم الجـــمّ
فآمالـــه للفكر نصب وعيشـــــه كما شاءه خفض وطاعتـه جـــــزم (٣)

ويتخذ الشاعر ذلك سلما للوصول الى غرضه وابداء مقصوده فيرجو من السلطان أن يبلغه مأمنه ويفســح له مكانا رحبا في مملكته حتى يبتعد عن بلاد نبت به ، وعن قوم جفوه :

جعلتك موسى همتي ومؤمـــــلا لنيل التي مَاهَامَ في غيرها هـــمّ
وقوّمت رحلي عن بلاد نبا بهـــا مهادى الى حيث السلامة والسلـــم (٤)

---

(١) " بغية الرواد " ، ص ٣٠٠ ، ج٢
(٢) المصدر نفسه ، ج ، ص ٣٠٤
(٣) نفســـــه ، ص ٣٠٦
(٤) نفســـــه ، ص ٣٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويختتم القصيدة بالدعاء " لأبي حمو " بدوام العزّ وطول البقاء .

ولم يمدح " لسان الدين " أباحمو " فقط وانما مدح " تلمسان " أيضا شعرا ونثرا ، فمن مقطوعة له فيها :

حيّا تلمسان الحيا فربوعها ... صدف يجود بدّره المكنون

ماشئت من فضل عميم ان سقى ... اورى ومن ليس بالممنون

شئت من دين اذا قدح الهدى ... أورى ودنيا لم تكن بالدّون

ورد النسيم لها بنشر حديقة ... قد أزهرت أفنانها بفنون

واذا حبيبة أمّ يحيى أنجبت ... فلها الشفّوف على عيون العين (١)

ويعنى " بحبيبة أمّ يحيى " عين ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها ، وكانت جارية بالقصور السلطانية ، ولم تزل الى زمن صاحب " نفح الطيب " منها بقية آثار ورسوم . (٢)

ويستبين لنا من القصائد التي قيلت في غرض المدح أن " السلطان الزياني أباحمو موسى الثاني " هو الذى استأثر بأكثر الأمداح بالمقارنة مع غيره من سلاطين " بني عبدالواد " في القرن الثامن الهجرى وقد ذكر " عبدالله التنسي " أن ماقاله المولى " أبو حمو " وقيل فيه من الأمداح كثير(٣) الأمر الذى جعل " التنسي " يفرد له كتابا أسماه " راح الارواح فيما قاله المولى أبو حمو وماقيل فيه من الأمداح " لكنه ضاع مع ماضاع من كتب " التنسي " . (٤)

ومن جهة أخرى ، أوضحت لنا نماذج المدح السابقة عدةحقائق تاريخية ، فهي سجّل لكثير من الأحداث التي عاصرها الشعراء في هذه الفترة ، ومن هنا تكمن قيمتها التاريخية الى جانب قيمتها الأدبية ، حيث ساهمت في توضيح الرؤية وابراز الصورة لعدة جوانب سياسية واجتماعية لتلك المرحلة من تاريخ المغرب الأوسط ، كما أن قصائد المدح السابقة لم تكن لتقف عند حدود التكسب أو المنفعة فقط ، بل هي ترسم لناكذلك النموذج أو المثل الأعلى الذى ترغب الأمة أن ترى عليه حكامها وسلاطينها .

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٤٢٧

(٢) نفسه ، جـ ٧ ، ص ١٢٩

(٣) " تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ١٧٨

(٤) " نيل الابتهاج " ، ص ١٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اغراض شعريـــــة اخـــــرى

فضلا عن القصائد المولدية ، وقصائد المدح العادية التي كان لها سوق رائجة في القرن الثامن الهجرى فان الشعراء نظموا في اغراض اخرى نذكر منها :

الغـــــزل

جاء معظم الشعر الغزلي عند الشعراء في تلمسان في المقدمات التقليدية التي استهلوا بهـــا بعض قصائدهم باستثناء بعض المقطوعات والقصائد القليلة . وأما اتجاهات الشعراء في هذا الغـــزل فكانت مختلفة ، فقد سار بعضهم فيه على نهج القدامى ، فذكروا اماكن العرب في البادية وســـردوا اسماء النساء المعروفة مثل ليلى ولبنى وسلمى وغيرها ، كما ساروا على منهاج القدامى في تعابيرهـــم وصورهم . ومن امثلة ذلك قول " أبي حمو الثاني " في مستهل احدى قصائده الفخرية :

تذكّرتُ أطلال الربوع الطواســـــم ... وما قد مضى من عهدها المتقـــادم
وقفتُ بها من بعد بُعْدٍ أنيســـا ... بصبرٍ مناف أو بشوق مـــــلازم
أهِيمُ بمغناهم وأندُبُ ربْعهـــــم ... وأيّ فؤادٍ بعدهـــم غير هائـــم
تَحِنُّ الى سلمَى ومن سكن الحِمَـــى ... وما حُبّ سلمى للفتى بمسالـــم (١)

لقد وقف الشاعر على الاطلال مثل القدامى ، ووظف كلمات ترمز الى معان ، وقيم تمثل الحيـــاة الاجتماعية الجاهلية . فجاءت تعابيره وصوره مستوحاة من تلك البيئة التي لا تمتّ بصلة الى واقعه الاجتماعي والحضارى . وظاهرة الوقوف على الاطلال نجدها في عدة قصائد له . يقول في احداها :

جَرَتْ أدْمُعِي بين الرسوم الطّواســـم ... لما شحطتها من هُبوب الرّواكـــم
وقفتُ بها مستفهما لخطابهـــــا ... وأيّ خطابٍ للصّلاد الصّـــــلادم (٢)

ثم يذكر حبيبته ويبكيها قائلا :

وكم ليلة بات السرور مساعـــــدى ... بسعدَى وسلمى والمُنَى أمّ سالـــم (٣)

---

(١) بغية الرواد ج ٢ ، ص ٩٣ (٢) واسطة السلوك ص ١٥ (٣) نفســه ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تثبت المصادر التي ترجمت لحياته ان له حبيبة تعرف بتلك الاسماء ، والظاهر انها قوالب لا بد من السبك على مثالها ، ويرثي الاماكن الخالية على طريقة الجاهليين حيث يقول :

فعادت رسوم الدّار بعد أنيسها ... هَشِيما ولا تَخْفَى بقايا المراسم
وكم نَسَجَتْها من جنوبٍ وشمْأَلٍ ... وكمْ سَجَعَتْها من لغاتِ الحمائم (١)

وهو متأثر في البيت الاخير كما هو واضح بامرىء القيس في قوله :

(وكم سجعتها من جنوب وشمأل) هو مصراع مأخوذ برمته من احد ابيات المعلقة المشهورة :

فَتُوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشَمْأَل

وجاءت أوصافه الغزلية المادية كأوصاف الجاهليين ايضا ، كما جاء في احدى قصائده :

الشَّعْرُ لَيْلٌ فوق صبح جبينها ... يحمي لعقرب صدغها بمُجَنَّد
ولمحاظهنّ صوارم مسلولة ... فَتَكَتْ بأَلْباب وَلَمَّا تغمد
ومباسم كالأقحوان تخالها ... دُرًّا بِسَمْطٍ في العقيق مُنَضَّد (٢)

فتحدث الشاعر عن ليل الشعر وعقرب الصدغ وصوارم الالحاظ وغيره من المعاني المألوفة . وهذا لا يعني ان الشاعر قد تجرّد من الاصالة ، فكرر المعاني نفسها بشكل سطحي ، وانما ترجم عواطفه ، وسكب تجاربه في القوالب الجاهلية التي كان على معرفة وثيقة بها .

والتزم " يحيى بن خلدون " هو الاخر بهذا المنْحَى والاتجاه في معظم قصائده التي حفظتها لنا كتب التاريخ والادب ومنها ما جاء في هذه القصيدة التي رفعها الى " أبي حمو الثاني " يلتمس منه الرضا والعفو حيث يقول :

وإذا الديار تعرّضت لأُغْيِ الهوى ... لم يغن عنه الصَّبْرُ والكِتْمان
يَعْتادُهُ الذِّكرى ويبعث وجده ... أثر تخلفه بها السكان
يا سائل العرصات أقوت ضلّه ... من أين تدرى الدار ما الاظعان
لا تخش ان ضنّ الغمام لربعها ... ظمأ فدمعي عارض هَتّان

---

(١) الديوان ، ص ٨ . تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم . ط : الرابعة . مصر
(٢) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويخاطب ديار الأحبة شاكيا مما يعانيه من ألم الفراق :

يا جيرة بالغور ضاع بحيهم ... قلب المتيم ما كذا الجيران

ان كان رأيكم البعاد فما اعتدى ... ذاك الهوى ملل ولا سلوان

ردّوا الفؤاد لمغرم في صدره ... لفراقكم فكر هي الاحزان

خطبت يد الاشواق طيّ ضلوعه ... مفحا لها من دمعة عنوان

لم يبق غير الطّيف من متعلّل ... للصّب لو لم تسهر الأجفان (١)

فتحدث الشاعر عن الاماكن وعن الذكرى والهوى والدموع لكن حديثه كان بعيدا عن التجربة الذاتية والانفعال الشخصي لان الغرض من غزله كان مجرد تقليد واتباع ، ومثل هذا الاتجاه من الغزل التقليدى نجده في هذه الأبيات التي استهل بها السلطان " أبوزيان الثاني " قصيدته المرفوعة إلى الظاهر "برقوق " (٢) حيث يتعرض لرحلة الحبيب ووصف الظعائن :

لمن الركائب سيرهن ذميل ... فالصّبر - الا بعدهن - جميل

يأيها الحادى رويدك انّها ... ظُعُن يميل القلب حيث تميل

رفقا بمن حملته فوق ظهورها ... فالحسن فوق ظهورها محمول

لله أيّة أنجم شفّافة ... ينجابُ عنها للظّلام سدول

شهب بآفاق الصدور طلوعها ... ولها بأستار الخدور أفول

في الهودج المزّرور منها غادة ... تزع الدّجى بجبينها فيحول

فكأنّها قمر على غصن على ... منمى كثيب والكثيب مهيل (٣)

فيصور لحظة الوداع وقد فارقه قلبه مع ذلك الركب الذى يتهادى الى غايته ، فيبدو الشاعر مشفقا حزينا خشية ان تغذ الابل السير في رحلتها البعيدة فتؤذى حبيبته ومن ثم فهو يتضرع اليها الا تسرع في مشيتها ، وان تسير سيرا هيّنا . وكانت لحظة الوداع عميقة بما تحمل من شحنات عاطفية وبما تعبر به عن لحظات شعورية مؤثرة ، فترى الشاعر يعبر عن آلامه ولواعجه أثر الفراق ، ويسخر من الألفاظ ما يدل على معنى الحزن مثل كلمات : العبرة ، الدمع ، الزفرة ، الأسى " :

ثارت مطاياها فثار بي الهوى ... واعتاد قلبي زفرة وغليل

---

(١) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ (٢) الملك الظاهر سيف الدين برقوق أول المماليك البرجيين بمصر ، تولى الحكم من سنة ٧٨٤ هـ الى سنة ٨٠١ هـ . انظر : الضوء اللامع لاهل القرن التاسع " السخاوى جـ ٣ ، ص ص ١٠ - ١٢ بيروت (٣) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ٢١١ ، التعريف بابن خلدون ص ٤١هـ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أُوْمَتْ لتوديعي فَغالبَ عبرتـــــي ... نَظَرٌ تُخالسه العيون كَلِيـــل
دمع أُغَيِّض منه خوف رقيبـــــها ... طورا ويغلبني الأسى فيسيـــل
ويحَ المحبّ وَشَتْ به عبراتـــــه ... فكأنهـا قالٌ عليه وقِيـــــل
تأبَى النفوس الضَّيْمَ إلاّ في الهـــوى ... فالحرّ عبد والعزيـز ذليـــل (١)

ويخاطب حمى محبوبته ومعاهدها مظهرا التشوق اليها ، وملتمسا الشفاء عند ربوعها لما يعانيه من فراقها وبعدها عنه :

يا بانة الوادي ويا أهل الحِمَـــى ... هل ساعة تَصْغَين لي فأقـــول
مالي اذا هَبَّ النسيم من الحِمـــى ... أرتاحُ شوقا للحِمَى وأَمِيـــل
خَلّوا الصَّبا يَخلُصْ إليَّ نسيمهـــا ... إن الصّبا لصَبابتي تعليـــل
مالي أُحَلَّأُ عن ورود محلـــه ... وأُذادُ عنه وورده منهـــول
والباب ليس بمُرْتَجٍ عن مُرْتَـــج ... والظنّ في المولى الجليل جميـــل (٢)

وهذه الصورة التي رسمها الشاعر للحظة الوداع مستمدة من البيئة البدوية ، ومستوحاة من حياة البدو وعاداتهم كما عبّر عنها الشعراء الجاهليون .

ونجد هذا الاتجاه في الغزل عند الفقيه " أبي محمد عبدالعزيز بن يشت " في مستهل قصيدته الى " أبي حمو " :

عُجْ بتلك الرُّبَى وتلك المغانـــي ... واسأل الركب أين تلك الغَوانـــي
ألنجد ترحّلوا أم لسِلْـــع ... أم أناخوا رحالهم بعُمَـــان
فلعلّ الديار تُنْبِيءُ عنهـــم ... أين حَلّوا بطبي تلك المَغانـــي
فلقد أقفرتْ خيام لسلمـــى ... ونَأَى الحيُّ بعدما كان دانـــي
ونَأَى بدر حسنها عن جفونـــي ... لهف نفسي لريب هذا الزّمـــان (٣)

(١) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، ص ص ٢٢١ - ٢٢٢
(٢) نفســه ، ص ٢٢٢-٢٢٣ (٣) بغية الرواد ج ٢ ، ص ص ١١٨ - ١١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبرز صورة البادية في هذه الابيات ، فالشاعر يتوقف عند ديار الاحبة وخيامها ، ويستنطقها عن أحوال ساكنيها ومتى رحلوا والى أين اتجهوا ويذكر بعض الاماكن في الجزيرة العربية التى وردت في شعر المحبين كنجد وسلع ، ويشكو بعد الحبيب ويخشى الفراق ، وما ألمّ به جرّاء ذلك ويشكو مما فعل به الهوى وذلك حين يقول :

فَسِهام اللحاظِ يا عَمْرُو أَمْضَى ... من سِهام القِسِيِّ يوم الرِّهان
فَصَرِيع الغَوَان أَوْدى صريعا ... وَنَجا في الهياج زَيْدُ الطِّعان (١)

ويواصل حديثه فيذكر العذول والحساد والشامتين ، ويعرّج على المعاني التى استقاها من التراث الشعرى القديم . ولذا فان هذه الابيات جاءت تقليدا متكلفا للغزل الذى اعتاد الشاعر ان يبدأ به قصائده . وحين ينتقل الى موضوع القصيدة يقول :

فَاتْرُكِ اللهو قد مضى فيه دهر ... فالهوى بالمشيب عين الهوان
واصرف النّفس نحو مدح امام ... أوحد في الذكاء والاحسان (٢)

وقد تأخذ بعض المقدمات الغزلية شكلا آخر كأن يصوغها الشاعر في قالب خيالي ورمزى يهدف الشاعر من ورائها الى تكريس معنى أخلاقي كما فعل " أبوحمو " في احدى قصائده وقد اخترت بعض الابيات من مقدمة القصيدة التى جاءت طويلة نسبيا ، فمما قاله :

كَتَمْتُ حبّي فأَفْشَى الدّمع كِتماني ... وزاد شوقي على قيس وغَيْلان
انّي فَتِنْتُ بذات الخال يا خولي ... وعذبت بجفاها العاشق الفاني
قالت وحقِ هواك اليوم ما نظرتْ ... عيناك عيني الا ذُبْتَ من شاني
الحبّ من شيمي والوجد معرفتي ... والصبر نافلتي يا آل زيّان
انى وحقِّ حياة الحبّ ما اكتحلت ... والله بعدكم بالنوم أجفاني
ولا شغفت بحسن غير حسنكم ... ولا أخذت عليكم في الهوى ثاني (٣)

---

(١) بغية الرواد ، ص ١١٩ ، ج٢
(٢) نفسه ، ص ١٢٠
(٣) واسطة السلوك " مخطوط ص ص ٧و ٨و

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتحدث عن هذه الحبيبة حديثا حسيا ، فيذكر وصاله معها قائلا :

ضممتها حين زارتني ببهجتها ... وقلبها عندما ادعوه لبّاني
بتنا وبات نعيم الدهر يؤنسنا ... والعيش صاف وروض الوصل ريان
ولا رقيب ولا واش يطوف بنا ... إلا الحسان بأصوات وألحان
من كلّ غانية رقّت شمائلها ... تزهو على ناعمات القُضْب والبان
وكلّ عاطرة فاحت نواسمها ... من عنبريّ ومسكيّ وريحان (١)

وقد توحي هذه النماذج بما فيها من أوصاف غزلية أن الشاعر قد عانى من ألم الحبّ وفرط الحب وان عاطفته صادقة جياشة ، وكأنه عاش فعلا تجربة حب واقعية ، الا أن حقيقة الامر ليست كذلك فالشاعر ربما يقصد معنى آخر بعيدا عن الغزل ، اذ أنه فاجأنا بموقف شعوري آخر يغاير ما جاء في الابيات السابقة حيث يقول :

ولا جعلت بنات الحيّ من شغلي ... حتى شغفت بقدّ البيض والزّان (٢)

ومن جهة اخرى فان " ابا حمو " قد أورد قصيدته هذه في كتابه " واسطة السلوك " ليبين خطر الحبّ على الملوك ، وضرورة اتقائه ، والاجتهاد في ترك حياة اللهو والترف . (٣) وضرب مثلا لذلك " بيزيد بن عبدالملك " (٤) الذى احبّ جاريته " حبابة " ، ومات جرّاء حبه لها ، و " بكسرى أنو شروان " ملك الفرس الذى لاقى نفس المصير .

قد كان فيما مضى قلبى وان جهلت ... مولى حباب وكسرى آن شروان
كم من كريم وكم من ماجد بطل ... أفنى الغرام وكم من عابد عان (٥)

---

(١) واسطة السلوك ، ص ٨و (٢) نفسه ، ص ٨ و (٣) نفسه ، ص ٧و
(٤) يزيد بن عبدالملك بن مروان ، أبوخالد ، ولد سنة ٧١ هـ ، وتوفي سنة ١١٥هـ بعد وفاة قينة له اسمها " حبابة " وكانت خلافته اربع سنين وشهرا ، انظر : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٥٥ ، الكامل في التاريخ : جـ ٥ ، ص ١٢٠
(٥) واسطة السلوك " ص ص ٨و - ٨ظ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاستمد الشاعر صوره من محيطه الطبيعي واتكأ على ألفاظ رقيقة عذبة تعبر عن ذلك المحيط أصدق تعبير .

وفي ختام حديثي عن الغزل التقليدي أشير الى أن هذا النوع من الغزل جاء معظمه متكلفا لايصدر عن عاطفة الحب الصادقة ، واذا أحسسنا بنوع من حرارة العاطفة فقد فقدها عند بعض الشعراء فهذا حاصل غير مقصود لأنهم كانوا يجعلون هذا الغزل مطية الى غرضهم الاساسي والاصلي ، وأمّا ما جاء مقتصرا على الغزل من قصائد ومقطوعات فلم تذكر المصادر الا القليل منه مثل قصيدة " لمحمد بن عمر المليكشي " (١) أوردها " لسان الدين بن الخطيب " في الاحاطة فذكر مناسبتها فقال :

" حدّث بعض من عُنِيَ بأخباره (اى أخبار شاعرنا) أيام مقامة " بمالقة " واستقراره ، انه لقى بباب الملعب من أبوابها طبية من ظبيات الأنس وقينة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالها واتّقى بفؤاده نصالها ، حتّى همّتْ بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن الميّاد ، فأبقى على نفسه وأمسك ، وأنف من خلع العذار بعدما تنسّك وقال :

لم انسَ وقفتنا بباب الملعب ... بين الرّجا واليأس من مُتَجَنِّب
وَعَدَتْ فكنتُ مراقبا لحديثها ... يا ذُلَّ وَقْفَةِ خائفٍ مُتَرَقِّب
بَدويّة أبدى الجمال بوجهها ... ما شئتَ من خَدٍّ شَرِيق مذهب
تَدْنُو وتبعدُ نَفْرةً وتَجَنّياً ... فتكاد تحسبها كَمَاة الرَّبْرب
ورنت بلحظٍ فاتن لك فاترٍ ... أنْضَى وأمضى من حُسام المضرب
وأرَتْكَ بابلُ سحرها بجفونها ... فَسَبَتْ وحُقّ لمثلها أن تسبي
وتضاحكت فحكتْ بنيّر ثغرها ... لَمَعانَ نور ضياء برق خُلَّب
بمنظّم في عقد يُمْطِيْ جَوْهَر ... عن شبه نَوْرِ الأقْحُوان الأشْنَب (٢)

---

(١) هو ابوعبدالله محمد بن عمر على بن محمد بن ابراهيم بن عمر المليكشى البجائي نشأ في الجزائر واخذ علمه وادبه فيها ، توفي سنة ٧٤٠ هـ ، بتونس ، انظر : تعريف الخلف برجال السلف ج ١ ، ص ١٧٣

(٢) الاحاطة " ج ٢ ، ص ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥ " نفح الطيب " ج ٦ ، ص ٢٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنبض هذه الأبيات بالعاطفة الصادقة والشعور الفيّاض ، وهي تعبر عن لوعة نفسه العاشقة . لجأ فيها الشاعر الى الأوصاف المادية والمعاني التقليدية . وكان تركيزه على جمال الوجه الذى يراه في اشراقه ، واتضاح معالمه مثل الذهب في صفائه وهو تشبيه ينبىء عن فيض الحيوية ونضارة الشباب كما يشبه لحظها بالسيف الفاتك بل يصورها أشدّ فتكا وأمضى من الحسام في طعن الهدف واصابته . واستعار لها من الطبيعة صور البقر الوحشية او مهاة الرّبرب ، وهي ممّا يضرب به المثل في جمال العيون . وأمّا بياض ثغرها وبريقه الصافي حين الضحك فشبيه بلمعان ضوء البرق في جو غائم . وهذا الوصف يدل على افتتان الشاعر وو قوفه اجلالا أمام هذا السحر والجمال ، وهو ما توضحه الأبيات التاليه :

يامَنْ رأى فيها محبّا مغرَمًا ... لم ينقلب إلاّ بقلب قُلّب
ما زال مذ ولّى يحاولُ حِيلَةً ... تُدْنيه من نيل المُنَى والمَطْلَب
فأجال نار الفكر حتّى أُوقدتْ ... في القلب نارُ تَشوّقٍ وتَلَهّب
فتَلاقَتِ الأرواحُ قبل جسومها ... وكذا البسيط يكون قبل مركّب (١)

فالابيات تصور حالته النفسية وصراعه معها ، وكان طرفا صراعه ثنائية ضدية ، تتمثل في الذات المحكومة برباط القيم والمسكونة من جهة أخرى بنزوة التمرد .

لكن هذا الصراع يحسم لصالح القيم ، وتتغلب جوانب العفة على النزوات الاخرى ، فكان غزله عفيفا محتشما على الرغم من أوصافه المادية وجاءت معانيه في شكل طبيعي غير متكلف .

" ولمحمد بن عمر المليكشي " بعض المقطوعات الغزلية وكلها تفيض رقة وعذوبة وجمالا منها :

أَرَى لك يا قلبي بقلبي مَحَبّةً ... بعثتُ بها سرّى اليكَ رسولا
فقابلْهُ بالبُشْرَى ، وأقبِلْ عشّيةً ... فقد هبّ مسكيّ النّسيم عليلا
ولا تعتذر بالقَطرِ أو بلل النّدى ... فأحسنُ ما يأتى النّسيمُ بليلا (٢)

---

(١) الاحاطة ، ص ٥٦٥ ، " نفح الطيب " ص ٢٤١
(٢) الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ٥٦٥ " نفح الطيب جـ ٦ ، ص ٢٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقولـــه في أخـــرى :

رضى نِلْتُ ما ترضين من كلّ ما يهـــوى ... فلا تُوقفيني موقفَ الذلّ والشّكـــوى
وصَفْحاً عن الجاني المُسيء لنفســـه ... كفاه الذى يلقاه من شدّة البلـــوى
ففي أُتشكّى لوْعَةَ البـــينِ ساعـــةً ... ولا يَكُ هذا آخرَ العهد بالنّجْـــوى
ففي ساعـــةً في عرصة الدار وانظـــرى ... الى عاشقٍ ما يستفيقُ من البلـــوى
وكم قد سألتُ الريحَ شوقا اليكـــمُ ... فما حَنَّ مَسْراها عليَّ ولا أَلْـــوى
فيا ريحُ حتّى أنتِ مِمَّن يُغَارُ بِـــي ... ويا نجدُ حتى أنت تهوى الذى أَهْوى
خُلِقْتُ ولِي قلبٌ جليد على النّـــوى ... ولكنْ على فَقْدِ الأَحِبّـة لا يَقْـــوَى (١)

ونحن لا نلمس في هذه النماذج الغزلية تعقيداً أو غموضا إذْ أنها تنمّ عن ذوق وطبع .

وكانت مجالس الشراب وحفلات الغناء حافزا على الغزل الحسي . وفي هذا الصدد لم أعـــثر إلا على مقطوعة قصيرة وموشحة للأُديب " أبي عبدالله محمد بن البناء " . أما المقطوعة فيصـــف فيها ليلة أنس ، وهي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية السائدة في البيئة التلمسانية يومئـــذ كغيرها من البيئات الاخرى ، يقول فيها :

عِيـــدٌ وَغِيـــدٌ وابنة العُـــــود ... يا ليلةً جمعتْ شَمْلي بها عُـــودِي
وشادِن خَنِث الأَعْطاف من تَـــرف ... علّقته بدر تَمٍّ فوق أَمْلُـــود
يَجْنِي فتمحـــو جناياه محاسنـــه ... وللجمـــال شفيع غيرُ مـــردود
لمّا سألناه عن خمـــر بريقتـــه ... يحميـه بالبيض من أجفانـــه السّود
وسالِفَيْـــهِ وصُدْغَيْـــه فقال لنـــا ... هذى المدامة من تلك العناقيـــد (٢)

---

(١) الاحاطة ، ص ٥٦٤ " نفح الطيب " ص ٢٤٠

(٢) بغية الرواد " ج ١ ص ١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالمقطوعة السابقة واضحة المعاني ، سهلة الألفاظ جمع فيها الشاعر بين الغزل وذكر الخمر بيد أنّ أوصافه كانت حسيّة تقليدية لا جديد فيها ، إذ لم يتجاوز الشاعر فيها المحسوس من جوانب الجمال ، فكان وصفه خارجيا بعيدا عن الانفعال الذاتي على الرغم من أنه حاول أن يضفي على مقطوعته جوا نفسيا محببا .

وقد وقف الشاعر في أوصافه الغزلية عند حدود العفة وهي سمة تميز بها الغزل السائد يومئذ في تلمسان ، إذ خلا من الفحش والتهتك الذى كان سائدا في بيئات اخرى كالأندلس مثلا ، ذلك أن القيم الاجتماعية والخلقية التي كانت منتشرة في هذا القرن في المغرب بشكل عام - وفي تلمسان والمغرب الأوسط باعتباره جزءا من هذا الحيز الجغرافي الكبير - لم تكن تسمح بظهور اغراض أدبية ما جنة كالخمريات والغزل الحسي الفاحش والغزل بالمذكر وغيرها .. فطبيعة المجتمع الزياني المحافظ في هذه الفترة كانت تقيد من حرية الشعراء وتكبح من جموح عواطفهم حتى لا يتجاوزوا الحدود المرسومة ويحطدموا مع قيم المجتمع ومثله .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوصـــــــــــــــف

لم يظهر الوصف كغرض مستقل ، وانما جاء متصلاً بأكثر الاغراض الشعرية المطروقة في هـــذه الفترة على نحو تكميلي للموضوع الرئيسي . واشتملت مواضيعه على مشاهـــد الطبيعـــــة ومفاتنها الساحرة في بيئة تلمسان وضواحيها ، وعلى بعض المظاهر الاجتماعية مثل مجالس الانـــس ، وحفلات الترفيه وغيرها .

واما الطبيعة ، فقد ملكت على الشعراء افئدتهم ، فاحب الشعراء تلمسان وفتنوا بجمالهـــا الساحر حتى ان اعجابهم جعلهم يفضلونها على بقية المدن الاخرى . ولا شك في ان تلمسان كـانت جميلة ، وتضاعف جمالها بما زيد فيها من المنشآت ، سواء في عهد " ابى تاشفين الاول " او فـــي عهد " ابى حمو الثاني " وقد شهد بذلك " يحيى بن خلدون " مؤرخ هذه الدولة حينما تعرض الى وصف هذه المدينة في عهد " ابى حمو الثانى " فأشار الى ما فيها من القصور الزاهرة والصـــــروح الشاهقة والبساتين الرائقة التى فاقت صروح بنى العباس ومن قبلهم كالخورنق والرصافة والسديـــر حسب رأيه . (١)

ومن شدة اعجاب " يحيى بن خلدون " بتلمسان نراه في هذا الموضع يورد بيتين قالهما "ابن خفاجة " في الاندلس فيقول :

" .. فانا انشد ساكنيها قول " ابن خفاجة " لاستحقاقها اياه عندى :

ما جنة الخلد الا في دياركـــــــم وهذه كنتُ لو خُيّرتُ اختـــــار

لا تتّقوا بعدها ان تدخلوا سقـــــــرا فليس تُدْخَل بعد الجنـــة النـــار (٢)

والبيتان يعبران عن الافتتان الشديد بمحاسن تلمسان كما افتتن " ابن خفاجة " بالاندلس .

ولما كانت تلمسان هكذا ، فقد اولع الشعراء بطبيعتها الساحرة وتفنّنوا في وصف جمالها كمـــا استلهموا هذا الجمال في شعرهم ، واستمدوا من المدينة عناصر تشبيهاتهم .

---

(١) بغية الرواد جـ ١ ، ص ٨٦ بتصرف

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٠ وانظر البيتين في ديوان ابن خفاجة ص ١١٧ تحقيق : كرم البستاني بيروت ١٩٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فانظر الى " ابن مرزوق الحفيد " (١) في قولـــه :

بلد الجدار ما أمرّ نواهـــــــــا كلفَ الفؤاد بحبها وهواهـــــا
يا عاذلى كن عاذرى في حبّهـــا يكفيك منها ماؤها وهواهـــــا (٢)

وها هو " محمد بن يوسف الثغرى " - وهو أبرز من وصفها - يصف جمالها في ايام الربيع في قوله :

قم مبصرا زمن الربيع المقبـــــل تر ما يسرُّ المُجْتَنِى والمُجْتَلِـــى
وانشقْ نسيم الرّوض مطلولا ومـــــا أهداك من عَرْفٍ وعُرْفٍ فما قبـــل
وانظرْ الى زهر الرياض كأنـــــه درّ على لَبّات رَبّاتِ الحُلِـــى (٣)

فالابيات تعبر عما يمتاز به فصل الربيع في تلمسان من حيوية وحركة ، وما يتركه من اثر في ايقـــاظ الطبيعة واحياء الارض فتكتسى الدنيا به جمالا ونضرة وحسنا ساحرا .

وقد يقترن وصفهم لطبيعة تلمسان بالغزل وذكر الخمر ، نلاحظ ذلك في أبيات " الثغـرى " التاليه من قصيدة اخرى :

وزها الزهر والغصون تَثنّـــــــتْ وتغنّتْ عليه وُرْقٌ شَـــــواد
وانبرى كلّ جدول كحســـــــامٍ عارىَ الغِمْد سندسىَّ النّجـــاد
وظلال الغصون تَكْتبُ فيـــــه أحرفا سُطِّرت بغير مِـــــداد
تُذْكر الوَشْمَ في مَعاصم خَـــــوْدٍ نصبت فوقه ذوات امتـــــداد
وكُؤُوس المُنَى تُدارُ علينـــــا بجنى عقّةٍ ونَقْل اعتقـــــاد
واصفرار الأصيل فيها مُـــــدام وصَفِيرُ الطيور نَغْمَةُ شـــــاد
كم غَدَوْنا بها لأُنْسٍ ورحنـــــا جادها رائح من المُزْن غـــــاد
ولكَم روحةٍ على الدّوح كـــــادت ان تريح الصّبا لنا وَهْوَ غـــاد

---

(١) هو ابوعبدالله محمد بن احمد بن محمد المعروف بالحفيد عالم بالفقة والاصول والحديث والادب توفي بتلمسان سنة ٨٤٢ هـ ، انظر : نفح الطيب جـ ٥ ، ص ص ٤٢٠ - ٤٣٣
(٢) المصدر نفســـه ، ص ٤٣٣ (٣) نفسه ، جـ ٧ ، ص ١٢٦
ويعني ببلد الجدار تلمسان نفسه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رَقَّتَ الشّمس في عشاياه حتّى أَحْدَثَتْ منه رِقّة في الجماد
جَدّدتْ بالغُروب شَجْوَ غريب هاجه الشّوق بعد طول البعاد (١)

فهذه الابيات تمتاز برقتها ، وجمال تشبيهاتها وصورها ، وزادها حيوية ان الشاعر اضفى الصفات الانسانية على الطبيعة من نهر وزهر وطير !

نستشف ذلك من خلال مجازاته وتشبيهاته ، فالزهر زاه ، والاغصان تنثنى طربا ، والطيور تشدو فوق غصونها . وهذا الجو الجميل يشجع على المنادمة وحثّ الكؤوس لا سيما اذا كان الجو مطرا ، فالشراب محبب في مثل هذا اليوم في الرياض والبساتين . وقرن الشاعر ذكر الخمر بذكر الغزل لانهما مرتبطان ، ويتضح ذلك في توظيفه لكلمات مثل الوشم ، ومعاصم الخود ، والشوق . فحاول الشاعر بذلك ان يضفى على منظره الحياة ، وان يلونه بالوانه النفسية ، وان لم يصل الى درجة الاندماج الكلى مع الطبيعة . ثم يتوجه بالخطاب الى حيا المزن الذى لا يكاد يقلع عن تلك الربوع وكأنه الا م حين يدعوها الامر الى تفقد طفلها الفينة بعد الفينة انسياقا مع داعى الحنان والعطف فيقول :

يا حَيا المُزْن حَيِّها من بلاد غرس الحبّ غرسها في فُؤادى
وتعاهَدْ معاهدَ الأنس منها وعهودَ الصّبا بعَوْب العِهاد
حيثُ مَنْتَى الهوى ، وَمُلْهَى الغَوانِى وَمرادَ المُنَى ونَيْلُ المُراد (٢)

ويذكر الشاعر في أبيات أخرى بعض مواطن الفتنة والجمال في تلمسان ، مظهرا شدة اعجابه بها ، مشيرا الى ذكرياته الغرامية فيها ، مفضلا أياها على " معهد مأسل ، وحومة حومل " وهى من الاماكن التى ارتبطت في العصر الجاهلى بمغامرات امرئ القيس الغرامية :

وبرَبْوة العُشّاق سَلْوَةُ عاشقٍ فَتَنَتْ وألحاظُ الغزال الاكحل
بَنواسمٍ وبَواسم من زهرها تُهْدِيكأنفاسا كَعَرْفِ المَنْدَل
فلو امرؤُالقيس بن حجر راءها قِدْماً تسلّى عن معاهد مَأسل

(١) نفح الطيب جـ ٧ ، ص ١٢١ ، بغية الرواد " جـ ٢ ص ٣١٨
(٢) نفسه ، ص ٢٢٢ ، نفسه ، ص ٣١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو حام حول رِفنائها وظِبائهـــــا ما كان مُحْتَفِلا بحَوْمَة حَوْمَـــل
فانكر لها كلفي بسَّقط لوائهـــا فَهَوايَ عنها الدهر ليس بمُنْسَـل
كم جاد لي فيها الزمان بمطلـب جادته أخلافُ الغمام المُسْبِـل (١)

ويمزج " ابوعبدالله التلاليسي " الغزل بالطبيعة في أبيات يتذكر فيها أيامه التي قضاها زمن الصبا في تلمسان وبين منتزهاتها الجميلة فيقول :

وكم غازلتني الغيد فيها تلاعبـا وكم من عذول لا أطيد له قـولا
وكم ليلةٍ بتّنا بصفصيفها الـذى تسامَى على الانهار إذ عَدِمَ المِثْلا
وكُدْيَةُ عشّاقٍ لها الحسن ينتهـي يعود المسنّ الشيخ من حسنها طفلا
نَعَمْ ، وغديرُ الجوزة السالبُ الحجـى نعمتُ بها طفلاً وهمتُ بها كهـلا
ومنه ومن عينِ أمّ يحيى شرابنـا لأنهما في الطيب كالنيل بل أحْلَـى (٢)

ويظهر في هذه الابيات تلاحم بين الغزل والطبيعة . فالطبيعة احتَضَنَتْ حبّ الشاعر ، وشاركتـه أفراحه ومسرّاته .

وتغزل بعضهم " كالشغرى " بتلمسان في اطار وصفه للطبيعة كقوله :

تاهَتْ تلمسانُ بحسن شبابهـا وبدا طرازُ الحسن في جِلْبابهـا
فالبِشر يبدو من حباب ثغورهـا متبسما او من ثغور حبابهـا
قد قابلتْ زُهرَ النجوم بزَهـرها وبروجَها ببروجها وقبابهـا (٣)

فجاءت تلمسان في الابيات رائعة الجمال ، بديعة الحسن ، وكأنها غادة حسناء لبست احلى مـا عندها من ثياب جميلة ، فكانت قطعة من الطبيعة الجميلة . وهكذا جاء وصفه في شكل من البهجة والفرح .

واما " محمد بن خميس " فجاء تعرضه لطبيعة تلمسان على نحو من التذكر واسترجـاع الماضي والبكاء عليه ، لانه كان بعيدا عنها بالاندلس في تلك الفترة . جاء في احدى قصائـده

(١) نفح الطيب ج ٧ ، ص ص ١٢٦ - ١٢٧ (٢) نفسه ، ص ١٣٠ (٣) نفسه ، ص ١٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصف بعض منتزهاتها ، وما كان له فيها من ذكريات جميلة :

لساقيةِ الرومىّ عندى مزيّـــــــــةٌ ... وإن رغمتْ تلك الرواسى الرواشـــــحُ
فكَمْ لى عليها من غُدُوٍّ ورَوْحـــــــةٍ ... تُساعدنى فيها المُنى والمُنائـــــح
فَطَرفٌ على تلك البساتين ســـــارحٌ ... وطرفٌ الى تلك الميادين جامـــح
تَحارُ بها الأذهان وهي ثَواقـــــب ... وتَهْفُو بها الأحلام وهي بـــــوارح
ظباءُ مغانيها عَواطٍ عـــــــواطفٌ ... وطيرُ مجانيها شَوادٍ صـــــــوادِح
تُقتِّلُهُمْ فيها عيون نواظـــــــر ... وتُبْكِيهِمُ منهم عيون نواضِـــــح
على قرية العُبّاد منّى تحيّـــــــة ... كما فاح من مسك اللطيمة فائـــح (١)

فالطبيعة هنا لا تبدو ضاحكة طروبا ، كما جاءت في النماذج السابقة بقدر ما تبدو اشبه بلحن حـزين يثير في النفوس كوامن الذكرى ويحرك فيها الاحزان ، لكن حتّى في هذا الموقف لا تخلو الطبيعة من اندماجها مع الغزل وفي هذا الصدد يعرّج " ابن خميس " على ذكر منتزه " الوريط " وماكان له فيه من وقفات غرامية قائلا :

نَسيْتُ وما أنسَى " الوريطَ" ووقفـــةً ... أنافحُ فيها رَوْضَهُ وأفـــــــاوح
مُطِلاًّ على ذاك الغدير وقد بـــــدتْ ... لانسان عَيْنِى مِنْ صَفاه صفائـــح
أماؤُكَ أم دمعى عشيَّةَ صَدَّقَـــــتْ ... عُلَيَّةُ فينا ما يقول المُكاشِـــــح
لَئِنْ كنتَ مُلآ ناً بدمعىَ طافِحـــــا ... فإنىَ سكرانٌ بحبِّكَ طافـــــح
وإن كان مُهْرِى في تِلاعكَ سائحـــا ... فذاك غَزالى في عُبابك سابـــح (٢)

الا أن الشاعر ينبهنا الى أن ما جاء في غزله السابق ليس من ذلك النوع الحسى الذى يزرى بصاحبـــه إذ أن منزلته أرفع من أن ينال منها احد :

أمَا وهَوَى من لا أُسَمِّيـــه إنَّـــنى ... لعرضي كما قال النَّصِيح لناصـــح
أبعد صيامي واعتكافي وخَلْوتـــــي ... يُقال فلانٌ ضيّق الصّدر بائـــــح
لَبِسْتُ رَشادى فيه بالغَيِّ ضلّـــــةً ... وكم صالحٍ مثلي غدا وهو طالـــح (٣)

(١) نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ١٣٢ (٢) نفســه ، ص ١٣٢ ، بغية الرواد جـ ١ ، ص ٨٧
(٣) نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ١٣٢ ، بغية الرواد ، ص ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وفّق الشاعر في النماذج السابقة في اضفاء احاسيسه على المناظر الطبيعية فانعكست همومه على مظاهر الطبيعة فغدت كئيبة حزينة لحزنه على فراق وطنه واحبابه . وهذا الوطن استأثر بعواطفه لانه مسقط رأسه ومربع صباه وشبابه ولهذا ترى الشاعر لا يغفل عنه ، بل يتجه اليه - وهو بالاندلس - في كثير من القصائد ، ويتذكر معالمه ، ويستعيد ذكرياته فيه ، فيحنّ بالحنين اليه . جاء في مطلع احدى قصائده التي يتشوق فيها الى تلمسان :

سلِ الريحَ إن لم تسعدِ السفْنَ أنواءُ ... فعند صَباها من تِلمسانَ أنباء
وفي خفقانِ البرق منها اشارةٌ ... إليكَ بما تَنْمي إليها وإيماء
تمرُّ الليالي ليلةٌ بعد ليلة ... وللأذنِ إصغاء وللعين إكْلاء
وأنّى لأصبو للصَّبا كلّما سَرَتْ ... وللنّجمِ مهما كان للنجم إصباء (١)

وهكذا انعكس افتتان بعض الشعراء بطبيعة تلمسان فيما نظموه من شعر ، فقد جعلوا الطبيعة متكأ للموضوعات الاخرى ، فاذا تغزل الشاعر ، جعل الطبيعة اطارا لغزله ، واذا وصف الخمر ، اتكأ على الطبيعة وأفاض في وصف محاسنها ، واذا حنّ الى بلاده تذكر طبيعتها الجميلة ، واذا مدح أخذت صور الطبيعة تنبعث في أبياته . وكل ذلك يدل على مدى اعجابهم بتلمسان وتفانيهم في حبها مما جعلهم يفضلونها على غيرها من البلدان . وهاهو الشاعر " الشغرى " يفضل تلمسان على غيرها زاعما انها انفردت بالحسن وحدها :

كُلُّ حُسْنٍ على تلمسانَ وَقْفٌ ... وخُصوصاً على رُبَى العُبّاد (٢)

ويقول أبوعبدالله التلاليسي :

فيا جَنّةَ الدُّنيا التي راق حُسْنُها ... فحازتْ على كلِّ البلاد به الفَضْلَى (٣)

---

(١) نفح الطيب ج ٥ ، ص ٣٧٦ ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٥٣٩
(٢) نفسه ، ج ٧ ، ص ١٢٢
(٣) نفسه ، ص ١٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما " محمد بن خميس " فيرى أنها تفوق بغداد كما جاء في مطلع قصيدة له يتشوق اليها :

تلمسانٌ لو أنّ الزمان بها يسخو مُنَى النّفس لا دارُ السلام ولا الكَرخُ (١)

ولم يغفل بعض الشعراء ذكر بعض المظاهر الاجتماعية في تلمسان كما فعل " الثغرى " بتصوير سباق الخيل ، فينقل الينا صورة الخيول وفرسانها وتسابقها ، والمشاهدون من حولهم متحلقون حول الحلبة يتابعون الخيل في جريها . فمما جاء في ذلك قوله :

وبملعب الخَيْلِ الفسيح مجالُهُ أَجِلِ النواظرَ في العِتاق الحُقّلِ
فلحلبة الأشراف (٢) كلّ عشيّة لعبٌ بذاك الملعب المتسهّل
فترى المجلّى والمصلّى خلفه وكلاهما في جَرْيِه لا يأتلي
هذا يكرّ وذا يفرّ فَيَنْثَنِي عطْفاً على الثّاني عنان الاول
من كلّ طِرْفٍ كُلّ طرف يستبي قَيْدُ النواظر فتنة المتأمّل (٣)

ويصف الوان خيول الحلبة في قوله :

وردٌ كأن أديمه شَفَقُ الدّجى أو أشهب كشهاب رجم مرسل
أو من كُمَيْتٍ لا نظيرَ لحسنه سام مُعِمّ في السوابق مُخْوِل
أو أحمر قانٍ الأديم كَعَسْجَدٍ أو أشقر يَزْهُو بعرف أشعل
أو أدهم كالليل الاغُرّة كالصبح ، بورك من اغر محجّل (٤)

ولا شك في ان للخيول ايحاءات اخرى في هذا الوصف لما يتمثل فيها من رموز ومعان كالبطولة والشجاعة والمجد ، فالوقوف عندها في قصيدة المدح راجع للعلاقة القائمة بينها وبين الممدوح ، وللقيم والمثل التي يوحيها ذكرها . وقد اكدّ " الثغرى " ذلك في البيتين التاليين :

عُقبانُ خيلٍ فوقها فرسانها كالأُسْد تنقضّ انقضاض الأجْدَلِ
فرسان عبدالواد أسادُ الوَغَى حامو الذّمار أُولوا الفَخارِ الاطْوَل (٥)

وارتبط وصف الخيل عند "أبي حمو" في سياق فخره وحماسته بهذا المعنى ، بل ان وصفه للخيل كان

---

(١) نفح الطيب جـ ٥ ، ص ٣٧٠ (٢) في بغية الرواد : الافراس جـ ١ ، ص ٨٨ (٣) نفح الطيب جـ ٧ ، ص ١٢٧ (٤) نفسه ص ١٢٧ (٥) نفسه ، ص ١٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يأتي دائما في اطار ذكره للحرب التي كان يخوضها ضد " بني مرين " وضد القبائل المنشقة ، ومن يقف وراءها من اهل الفتنة والشقاق ، فمما قاله في وصفها بعدما ذكر استعداده للمعركة :

من أحمر عسجديّ اللون مذهبه ... وأشقر كشعاع الشمس مُلْتَهِب
وأدْهَم متنه ليل وغُرّته ... صبح فيا حسنه من منظر عجب
وأشْهَب كشهاب ان رَمَيْتَ به ... شيطان كلّ عدوّ في الوغى تَصِب (١)

ويربط هذا الوصف للخيل بالحرب والنزال ، فيذكر انصاره ، ويبالغ في وصف كثرتهم التي ضاق بها الفضاء الواسع :

وافَتْ بنو عامر من كلّ ناحية ... في خيلها العُرْب اوفي نَجْعها الأُشِب
جاءت الى نصر حزب الله وابْتَدَرَتْ ... كالأُسْدِ تبدو عليها سورة الغضب
ومن امام عبيدالله في أمم ... فاضت مواكبها بالبيد والشِّعَب
كتائب ضاقت الارض الفضاء بها ... في ظلّ ألوية خفّاقة العذب
بحر على البرّ مرتجّ غوارب ... من فوقه قطع الرايات كالسُّحُب (٢)

فكان تركيز خيال الشاعر في هذه الصورة على عامل العدد والكثرة من خلال لجوئه الى التشبيه والكناية ، وهذه الصورة استوحاها من الشعر العربي القديم .

ويبالغ في تصوير كثرة جيشه في موضع آخر بحيث يقول :

" بعسكر لجب ضاق الفضاء به ... كالبحر أعظم به من عسكر لجب
عرمرم زاخر فاضت مواكبه ... كأنّه سحب أرْبَتْ على سُحُب (٣)

ونراه أحيانا يكنّي عن كثرة الجيش بالغبار الكثيف الذي تولده حركة الجيش الكثير العدد في اثناء تحركه ، على أن مبالغات " أبي حمو " في هذا السياق كانت قليلة ، فهو يعتمد على الواقع غالبا .

---

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ١٥٨
(٢) " نفسه " ، ص ١٥٨
(٣) نفسه ، ص ١٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونراه في موضع آخر متأثرا بامرىء القيس في وصف فرسه حيث يقول :

مكر بيوم الحرب لا يشتكى الونـــــي مفرّ اذا طالت عظام الهزائـــــم (١)

فقد نظر الى امرىء القيس في قوله يصف حصانه :

مكرّ مفرّ مقبل مدبـــر معـــــــــا كجلمود صخر حطّـه السيل من عـــل (٢)

واذا كان الحصان قد ارتبط بالحرب والنزال ، فانّ الابل جاءت مرتبطة بالرحلة والرحيل ، فحديـــث الشعراء عنها كان يأتى في بعض مقدمات قصائدهم المدحية حين يأخذون في وصف رحلتهم الـــــى الممدوح على النحو الذى اورده الشعراء المتقدمون • وقد رأينا نموذجا في ذلك في قصيدة السلطـا ن " أبي زيان الثاني " التى أرسلها الى الظاهر " برقوق " سلطان مصر، ورأينا ايضا في حديثنـــا عن المولديات كيف كان الشعراء يتخذون الابل مطية للوصول الى ذكر الاماكن المقدسة والتشـــرّف بزيارة مثوى الرسول الكريم • غير أن وقوف الشعراء عند الابل كان قليلا نادرا ان لم نقل عابرا • فلا نكاد نجد شاعرا وصفها تفصيلا وبصورة مذكورة باستثناء السلطان " أبي حمو " فممّا قاله في احـــدى قصائده يصفها في صدد معارضته لاحدى القصائد التى رفعها اليه أحد الأمراء المرينيين :

علي ناقة وَجْناء كالحَرْفِ ضامـــــر تَخَيَّرْتها بين القلاص الرَّواســـم
مِنَ اللاَّءِ يَظْلِمْن الظَّليم اذا عَـــدا ويُشْبِهْنَهُ في جيدِه والقوائـــم
اذا أَتْلَعَتْ فوق السَّحاب جرانهـــا تخَيَّلْتها بعض السَّحاب الرَّواكـــم
وان هَمْلَجَتْ بالسَّيْر في وَسَط مهمـــه تَراءَتْ كمِثْل البرق لاح لِشائـــم (٣)

فهو يصور الابل على أنها قد أضمرها السير والارتحال من مكان الى مكان ، وهذا النوع من الابل يتخـــذ وسيلة للرحلة والانتقال ، لأنه يصل الى الهدف في أسرع وقف لما له من دربة وخبرة واعتياد •
وقد شبه الناقة بالظليم والبرق اللامع ، وهي أوصاف تعبر عن السرعة والخفة • وهذه صورة مكـــررة •

---

(١) واسطة السلوك ، ص ١٦
(٢) الديوان ص
(٣) بغية الرواد ج ٢ ، ص ٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقترب منها هذه الصورة التى رسمها للناقة يصف سرعتها :

قَطَعْتُ الفيافي بالقلاص وانمـــــــا تُجابُ الفلا بالخَفِّ أو بالمناســـــم
وقد خِلْتُها بين الرّياح زوابعـــــــا تسابقُ في البَيْدَا ظليم النّعائـــــم (١)

فهى في سرعتها وجريها في الفلوات تثير زوابع او غباراً كثيفا ، وهي لا تدرك ولا تلحق ولو تسابق معها ما يضرب به المثل في السرعة الفائقة والعدو السريع كظليم النعائم ، على أن التجاء الشاعـــــر الى الصور القديمة لا يعنى بالضرورة انعكاس تلك الصور القديمة وحدها في شعره ، وانما كان يضيف اليها الشاعر من خياله ما يجعلها قريبة من تجربته الواقعية .

وفضلا عن وصف الطبيعة وما يتصل بها من حيوانات ، فان الشعراء تعرضوا لوصف بعض المظاهر الحضارية كالقصور والمدارس وغيرها - وان كان ما وصل من هذا النوع قليلا - من ذلك هذه الأبيات التى قيلت في وصف المدرسة التاشفينية التي تعتبر تحفة فنية رائعة :

أَنْظُرْ بعينكَ بَهْجَتِي وسنائِـــــي وبديعَ إتقاني وحسن بنائـــــي
وبديع شكلي، واعتبرْ فيما تـــــرى من نشأتي بل من تدفّقِ مائـــــي
جسم لَطيف ذائبٌ سيلانُـــــه صافٍ كذَوْبِ الفضّة البيضـــــاء
قد حَفَّ بي أَزهارُ وَشْيٍ نَمَّقَـــــتْ فَغَدَتْ كمثلِ الرّوض رِغبَ سَمـــــاء (٢)

غير اننا لا نكاد نحس بانفعال الشاعر في هذه الأبيات ، فجاءت صوره باردة فاترة ، ولعل ذلك راجع الى أن هذا الشعر كان من ذلك النوع الذى يكتب على جدران البنايات كالقصور والمساجد وغيرها .

---

(١) واسطة السلوك ص ١٥
(٢) نفح الطيب ج ٦ ، ص ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفخـــــــــــــــــر

لا يحتل الفخر مكانة كبيرة عند شعراء تلمسان في القرن الثامن الهجرى نظرا لقلة دواعيه وأسبابه ، وكاد ينحصر - حسب ما وصلنا من نصوص - في بعض قصائد السلطان " أبى حمو الثاني " السياسية باستثناء مقطوعات قليلة ، ونتف وردت في ثنايا القصائد بشكل عام ، وقصائد المدح بشكل خاص . وكان بعضه افتخارا بالنسب والقوم ، وبعضه الآخر افتخارا بالشعر والشاعرية .

وأما الافتخار بالنسب و القوم ، فمثله ما جاء في قول " ابن خميس " مفتخرا بعراقة نسبه في احدى قصائده الصوفية :

وَإِنِ انْتَسَبْتُ فَإِنَّنِى من دَوْحـــــــة تتقيّل الانساب برد ظلالهـــــا
من حمْير من ذى رعين مـــــن ذرى حجْرٌ من العظماء من أقيالهـــــا (١)

ويفتخر في موضع آخر من قصيدة أُخرى بعروبته وإسلامه ، وما لقومه من خصال وفضائل كريمة كحمايتهم للملهوف ، وإكرامهم للضيف :

إنّا بني قحطان لم نخلق لغـــــــير غياث مَلْهُوف ومنعـــــة لاج
بسيوفنـــا البيض اليمانية الـــــتي طبعت لِحَزّ غلاصـــــم وَوِدا ج
وكَفَى بحكمتنا اقامة حُجّـــــــة وبركننا من كعبـــة الحجّـــاج
ولنا مفاخر في القديم شهـــــــيرة كالصّبح في وَضَح وفي ابـــــلاج
منا الشّابعة الذين ببابهـــــــم كانت تنيخ جُباة كل خـــــراج
ولأَمْرهم كانـــت تدين ممالك الدنيـــــا بلا قَهْر ولا إِحْـــــــراج
أبوابهم مفتوحـــة لضيوفهـــــــم أبدا بلا قفل و لا مِـــــــزْلاج (٢)

---

(١) الرحلة المغربية ص ١٢
(٢) الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ص ٥٥١ - ٥٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يرى في قومه الخير كله ، فهم أولو مناقب رفيعة ومآثر جليلة . وأما ظاهرة الافتخار بالنسب عند الشاعر ، فظاهرة وردت في عدة نماذج من شعر " ابن خميس " ولعله كان مدفوعا الى هذا الافتخار للدفاع عن نفسه ، وإبراز مكانته الاجتماعية بين الناس للنيل من خصومه .

وممن افتخروا بأنسابهم أيضا " المقرى " كما تبيّن هذه الأبيات مرمقطوعة له :

نحن ان تسأل بناسٍ معشر ... أهل ماء فجّرته الهمم
عرب من بيضهم أرزاقهم ... ومن السمْر الطوال الخيم
أورثونا المجد حتى إننا ... نرتضي الموت ولا نزدحم (١)

فيذكر هو الآخر أسلافه الابعدين ، ويعدد مناقبهم من عزم وحزم وشجاعة وكرم ، ومن محافظة على العرض والموت دونه . وعلى ذكر " المقرى الجد " أذكر أن حفيده أشار في " نفح الطيب " الى نسب جده القرشي معتمدا في ذلك على آراء لابن خلدون وابن الأحمر وابن مرزوق وابن الخطيب في هذا السبيل ليثبت صحة هذا النسب . (٢) ولا يستغرب منه ذلك ، فقضية النسب العربي كان لها اعتبارها الخاص في العرف الاجتماعي في تلك الفترة ، وهي شرط من شروط الخلافة كما هو معلوم ، وقد سقنا خلال حديثنا عن الحياة السياسية أن بني عبدالواد أشاعوا فكرة انتسابهم الى الأدارسة ليثبتوا أهليتهم للحكم .

وأما في مجال الافتخار بالشعر والشاعرية فان بعض القصائد المدحية والمولدية حفلت بذلك وتنوعت مفاخرات الشعراء بأشعارهم من ذلك ما جاء عند "ابن خميس " يفتخر ببلاغته :

ألا قل لفرسان البلاغة أسْرجوا ... فقد جاءكم متّى المكافي المكافحُ
أيخمل ذكري عندهم وهو نابه ... ويُنْمَطُ شجوي عندهم وهو شائح (٣)

ويبدو أن " ابن خميس " قد اضطر الى هذا الفخر حتى يساجل خصومه الذين كانوا يضايقونه ، ويسجل

---

(١) نفح الطيب جـ ٥ ، ص ٣٣٨
(٢) نفسه ، ص ٢٠٤
(٣) نفسه ، جـ ٧ ، ص ١٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليهم ما خفي عنهم من صفاته وأدبه . ولا شك ان "لابن خميس" منزلة عالية ومكانة كبيرة في ميدان الأدب يثبتها "أبوبكر بن خطاب" في هذه الأبيات :

رَقّتْ حواشِي طبعِك ابنَ خميس ... فهفا قريضُك لي وهاجَ رَسِيسِي
ولمثله يَصْبُو الحليم وَيُمْتَرى ... ماء الشؤون به وسُيْر العيس
لك في البلاغة ،والبلاغةُ بعضُ ما ... تحويه من أثرٍ مُحل رئيس
نظم ونثر لا تُبارَى فيهما ... عَزّزْتَ ذاك وذا بعلم الطُّوسِي (١)

ويفتخر "محمد بن يوسف الثغرى" بقصيدة له ، ويزعم أنها حِكَم تسير في كل حدب وصوب ، يقول مخاطبا "أبا حمو الثاني" :

واليكم من مذهبات القوافي ... حكما سهلت ليان المقاد (٢)

ويذهب "الثغرى" الى تفضيل شعره على غيره من الشعراء ، ويرى أنه ابتكر وأبدع شعرا لا يستطيع أحد من الشعراء أن يتبع أثره فيقول :

قواف قَفتْ إثْر النجوم مناهجا ... فليس بمُخْفيّ لها أبدا أثَر
وما هي إلا بكر فكر تبرّجت ... وفي لفظها دُرّ وفي لحظها سِحْر
مخبرة من قال مستخبرا لها ... سَلِي هل لديها من مخبّرة نكر (٣)

وكأن الشاعر قد نظر في البيت الأخير الى بيت "السموأل بن عاديا" في قوله :

سلي إن جهلت الناس عنّا وعنهم ... فليس سواءً عالِمٌ وجهولُ (٤)

ومن الشعراء من زعم أن شعره جاء مُعْجزا ، وانفرد ببيان لم يهتد اليه أحد حتى كبار البلغاء والفصحاء في الجاهلية مثل "يحيى بن خلدون" في قوله :

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٣٥٩
(٢) "بغية الرواد" جـ ٢ ، ص ٣١٨
(٣) نفسه ، ص ٣١٣
(٤) الديوان ص ١٤ . تحقيق وشرح : عيسى بابا : بيروت . ١٩٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإليك نظما معجزا لا ينتهـــى لبديعه قسّ (١) ولا سَحْبـــان (٢)

ويبالغ " الثغرى " أيضا فيفضل شعره على بعض فحول الشعراء السابقين في العهد العباسي كقولـه :

وإليك من سحر البيان بدائعـــا قصر الخطا عنها ابوتمّـــام (٣)

ويهدى " ابن خميس " قصيدة له الى ممدوحه أبي الفضل بن يحيى " مفتخرا بما جاء فيها :

خُذْها أبا الفضل بن يحيى تُحْفَـــة جاءتْك لم يُنْسَجْ على منوالهـــا

ما حال في مضمارها شعـــــر ولا سمحت قريحة شاعر بمثالهـــا (٤)

ويبدوان هؤلاء الشعراء قد بالغوا فيما ذهبوا اليه ، فاذا كانت بعض قصائدهم تتّسم بالجودة ، فان بعضها الآخر ليس كذلك ، بل انهم كانوا في كثير من الأحيان يتوكأون على معان وردت في قصائد أولئك الشعراء الذين يدّعون أنهم يفوقونهم شعرا ، ولعل الدافع الأصلى لهذا النوع من الفخر راجع الى عامـــل التنافس بين الشعراء .

---

(١) قس بن ساعدة بن عدى بن مالك ، من بنى عباد ، أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهـــم في الجاهلية ، كان أسقف بنجران ، مات قبل البعثة ، انظر : خزانة الادب ولب لسان العرب " البغدادى ، جـ ٢ ، ص ص ٨٩ - ٩١ . تحقيق : عبدالسلام محمد هارون . القاهـــرة .

(٢) سحبان بن زفر بن أياس المعروف بسحبان وائل : خطيب يضرب به المثل في البيـــان اشتهر في الجاهلية وعاش زمنا قبل الإسلام أنظر : تهذيب ابن عساكر ، جـ ٦ ، ص ٦٧ ، ط : الثانية بيروت ١٩٧٩ وانظر البيت في بغية الرواد ، جـ٢، ص ٢٩٩

(٣) بغية الرواد جـ ٢ ، ص ١٩٧

(٤) الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ص ٥٥٦ - ٥٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفخر والحماسة في شعر " ابي حمّو الثانـــي "

ان اهمّ شاعر زيّاني برز غرض الفخر والحماسة في شعره في هذه الفترة هو السلطان " أبو حمـو الثاني " ولا شك أن مدة حكمه التى عرفت حروبا مع " بنى مرين " ومع خصومه السياسيين فـي الداخل فسحت له مجالا واسعا للفخر ، لا سيما أنه كان فارسا يخوض المعارك في ساحات الحـرب بنفسه ، وكان شاعرا رقيق الاحساس تؤثر فيه المواقف والأحداث . ويدور موضوع الفخر عند هـذا الشاعر حول أعماله البطولية في الميدان العسكرى والسياسي ، وما يرتبط بأخلاقه وصفاته .

يقول في قصيدته التى نظمها بتونس قبل قيامه بحركته الى تلمسان ، وقد ضمنها ما كـان يختلج في فؤاده من طموح لاحياء الدولة الزيانية :

حالـي يطول ومحنتي لا تنقضـي ... كم لي بميدان الوغى من مَحْفَـل
لا بُدّ من سوق النّجوع مُغرّبـا ... حتى تكل متونها بالأحمـل
وترى الفوارس دائرات بالعـدى ... تـقى لواردها نقيع الحَنْظَـل
وقبيل عبد الواد محدقـة بنـا ... من كل ليث ضارب بالمنـصل (١)

ويبدو أثر الحزن والألم في نفسه لأنه لا يستطيع القبول بالظلم والاستكانة للذل ، وينتظر الفرصة المواتية للانقضاض على أعدائه من " بنى مرين " ، فيخاطب أنصاره من " بني عامر " محفزا هممهم علـى سرعة المسير الى أعدائه :

يا نجل عامر سر بنا واطْوِ السّـرى ... ليلا لعلّ الدهر يُدْنِي منزلـي
يا نجل عامر دارنا مع داركـم ... قد عمرت من بعدنا بالحنظـل (٢)

وكان لبني عامر " الفضل الأكبر في مساعدة " أبي حمو " في حركته التي أدت الى طرد " بنى مرين " من المغرب الأوسط وكانوا يهددون الى مناهضة عرب " سويد " الذين أصبح لهم نفوذ واسع في ظـل

---

(١) زهر البستان ، ص ٧ظ
(٢) نفســـه ، ص ٨ظ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحكم المريني ، وكانوا يغتنمون الفرصة للانتقام منهم ليستعيدوا نفوذهم الذى ضاع بمجيء " بني مرين " الى المغرب الأوسط ، وهوما تحدث عنه " أبوحمو " في قصيدة اخرى له زعم أنها " سارت بذكرها الركبان " (١) صور فيها حركته الى تلمسان ، وفيها يشيد بشجاعة فرسانه ويعرض بأعدائه وخصومه :

وضَمْر عناجيج على صهواتها ... كرام سماح بالنفوس الكرائم
نطارد فيها الخيل بالخيل مثلها ... فكان على الأعداء كرّ الهزائم
حملنا عليهم حملةً مضريّةً ... فَوَلّوا شراداً مثل جُفْل النّعائم
فولّتْ " سويد " ثم خَلّتْ مُجيرها ... وشَيْخ حماها في الثّرَى أيّ جاثم
وكم خَلّفوا من بيّن بكْر وبكرة ... ومن غادة مُلْتفّة بالهدائم
وطاحت على وادى ملال هشائم ... من القوم صرعى للنسور القشاعم
فكانوا الى الطير الغشيم فرائسا ... وكانت على الاعداء شؤم الذمائم (٢)

فالأبيات تحمل في طياتها صدى للمعركة التى دارت بين أنصاره بنى عامر وبين أعدائه سويد ، وفيها يشيد بأنصاره ويثني عليهم ، ويعرض بسويد ويصف جثث قتلاها الملقاة على الأرض . ويعرج الشاعر على ذكر وقائع المعركة الفاصلة بينه وبين " بني مرين " قرب تلمسان في جوّ ملحميّ حماسيّ حاول أن يضخم من عناصر القوة فيه بالتشخيص والتمثيل واستعمال كلمات ضخمة كما جاء في قوله :

كَرَرْنا عليهم كرّةً بعد كرّة ... وقد شعلت للحرب نيران جاحم
بضَرْب يَزيل الهامّ عن مُسْتقرّه ... وَطعْن مضي بين الكُلَى والحَيَازم
فهذا أسيرٌ صفّدته يد الوغى ... وهذا قتيل في عجاج المصادم (٣)

وهو في غمرة هذا الوصف الحماسي لانتصاره لا ينسى نفسه بل يفتخر بما أنجزه - بعد انتصاره - من أعمال تتعلق بمراسم الدولة والحكم :

نَظَمْنا شتيت الملك بعد افتراقه ... وكم بات نَهْبًا شمله دون ناظم .

---

(١) واسطة السلوك ص ١٥
(٢) نفسه ، ص ١٧
(٣) نفسه ، ص ١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شددنا له أزراً وشدنا بناءه ... بأوثق أركان وأقوى دعائم
فصارت ملوك الأرض تأتي مطيعة ... الى بابنا تبغي التماس المكارم
وجاءت لنا من كل أوب وجهة ... تبايعنا طوعاً وفود العمائم
فقمنا بأمر الله في نصر دينه ... وفي كف ما قد أحدثوا من مظالم (١)

وترى " أبا حمو " في مواقف أخرى يلجأ الى بعض المعاني الاسلامية ليجعلها أساسا لفخره كما جاء في مخاطبته لأحد وزراء " بني مرين " في قصيدة أخرى اثر حركة قام بها في بعض المناطق الشرقية من المغرب الاقصى وحقق فيها انتصارا على " بني مرين " :

فكم تحاول أمراً ليس تدركه ... تخطي الطريق وكم ترمي فلا تصب
تخوض بحراً ولا تخشى عواقبه ... وليس تسلك لج البحر بالنجب
عاندت ويحك من أعطاه خالقه ... ومن تماذكره في العلم والكتب
ومن يعارض بأمر الله معترضاً ... يمسي ويصبح في بحر من التعب (٢)

فهو يستمد تأييده من الله ولا يهاب جيوش الأعداء لأنها لا تستطيع أن تتغلب على مشيئة الله. وواضح أن " أبا حمو " كان يسخر فكرة طالما رددها الشعراء في هذه الفترة وما قبلها في قصائد المدح. ويفتخر في قصيدة أخرى بتفضيله جانب الجد والمعالي على تعاطي اللذات والانغماس فيها كما جاء في قوله :

وكل فتى أعطى الغرام قياده ... وبات على ضيم فليس بحازم
وما فاز بالعليا سوى كل ماجد ... مشمر ساق الجد ماضي العزائم
صبور على البلوى طهور من الهوى ... قريب من التقوى بعيد المآثم (٣)

وقوله :

فما بسوى العلياء همنا جلالة ... اذا هام قوم بالحسان النواعم
بروق السيوف المشرفيات والقنا ... أحب الينا من بروق المباسم

---

(١) واسطة السلوك ، ص ص ١٨ - ١٩
(٢) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ١٥ - ١٥٧
(٣) نفسه ، ص ٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأُحسن من قدّ الفتاة وخدّهـــــــا قدود العوالي أو خدود الصّـــــوارم
وأمّا صهيل السّابحات لدى الوغـــــى فأشجى لدينا من غناء الحمائـــــم (١)

وهو يصور نفسه مترفعا عن كل ما يلهيه عن هدفه الذى يسعى اليه وهو توطيد ملكه وتثبيت دعائمـــه وأركانه . ويضيف الشاعر الى الفضائل السابقة صفات اخرى منها نصرة المظلوم إذا شيك بشوكة ظالـــم وحماية المستجير من الأذى،واكرام الضيف ، وهي من الصفات العربية الأصيلة التى كان لها مكانهـــا الخاص في أعراف المجتمع وقيمه . ومما جاء في هذا السياق قوله :

وَيأْوَى إلينا المستجير وَيَلْتَجِـــــي ويحميه مِنّا كلّ ليْث ضَبـــــارِم
أَلَمْ تَرَ إذْ جاء " السُّبَيّعُ " قاصـــدا الى بابنا يَبْغِي التماس المكـــارم
وذلك لَمّا أَنْ جَفاه صِحابَـــــه وكلّ خليل ودّه غير دائـــــم
أَلاَ أيّها الآتى لظلّ جنابنـــــا نَزَلْتَ برَحْب في عراض المكـــارم
وقَوبِلْتَ منّا بالذى أنت أهلـــه وفاض عليك الجود فيض الغمائـــم
كذا دأبنا للقاصدين محلّنـــا حِمًى وندًى يُنْتَى به جُود حاتـــم (٢)

فالابيات اشارة الى " محمد السُّبَيّع بن ابراهيم الزّياني " أحد الأمراء المرينيين الذى قدم مـــن المغرب الى تلمسان طريد خوف ، فمدح السلطان الزياني بقصيدة طويلة مطلعها :

تطاول ليلي فاستقرّ مَنامـــي وطال سُهادى فَاسْتَطَال مَقامِـــي (٣)

فأجابه " أبو حمو " بهذه القصيدة التى عرضت نماذج منها وهى على البحر نفســه .

ولا شك فيأن البلاط الزياني في عهد " أبي حمو الثاني " كان ملجأ لطالبي الحماية والأمن مـــن رجالات الحكم في الدولة المرينية . كما كان قبل هذه الفترة . وهي خطة تبادلتها الدولتان لتقوية أسباب الشقاق والانقسام داخل البلاط المنافس لاضعافه وزعزعة استقراره ، وهو ما حاول " أبو حمـو " أن يستفيد منه باستجارته للأمير المريني المذكور .

---

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ٩٤
(٢) نفســـه ، ص ٩٣
(٣) نفســـه ، ص ٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يمزج " أبو حمو " فخره بالشكوى أحيانا حينما كانت تحلّ به النكبات كما حدث له سنة ٧٧٣هـ عقب استيلاء السلطان " عبدالعزيز المريني " على تلمسان ولجوئه الى الصحراء . ويبدو ذلك ماثلا في هذين البيتين اللذين يتذكر فيهما أيام العزّ قبل أن ينغص الدهر عليه صفو الحياة :

ولكم ظفرنا بالرضى من دهرنا ... وأتت لنا الدنيا بوقت مسعد

نجني المنى وبنو الزمان عبيدنا ... والسعد يدنى مالنا من مقصد (١)

ثم يذكر الاسباب التي أدت الى هزيمة جيشه وخذلان بعض أنصاره ، ويفتخر بما أبداه من شجاعة وثبات في حال الهزيمة قائلا :

نَقَضُوا العهود وخلّفوني في الوغى ... بين الأعادي كالغريب المفرد

كفروا بأنعمنا وخانوا عهدنا ... وأتَوْا من الخذلان مالم يُعْهَد

.. فهناك فرسان العدى طافت بنا ... من كل طاغ في الوغى أو معتد

أوردتها علق النجيع من العدى ... نهلا وما رويت بذاك المورد

فلكم كررت عليهم من كرّة ... بمشطّب .ومثقّب ومهنّد

من فوق ضامرة الحشا وحشية ... جرداء حجر نعالها كالجلمد

فكأنها برق يلوح لشائم ... وكأنها نجم يلوح لمهتد (٢)

ويتضح مما سبق أن فخر " أبي حمو " يعتمد في الغالب على الواقع دونما غلوّ أو مغالاة .

---

(١) بغية الرواد ، جـ٢ ، ص ٢٦٥

(٢) بغية الرواد ، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرثـــــــــــــاء

كان الرثاء مثل غيره من الأغراض الشعرية مطروقا فى شعر القرن الثامن الهجرى الا أن ما وصلنا منه لا يتجاوز أربع قصائد ، جاءت ثلاث منها فى " بغية الرواد " ، وأما الرابعة فأوردها صاحب " زهر البستان " ، وتلتقي كلها فى رثاء شخص واحد هو الأمير أبويعقوب يوسف " والد السلطان " أبي حمو الثانى " . ولا شك أن هذا الغرض الشعرى لا يمكن أن يقتصر على تلك القصائد المعدودة ، فلا بد أن الشعراء فى مختلف مراحل هذا القرن قد رثوا سلاطين هذه الدولة مثل " أبي حمو الاول " وابنه " أبي تاشفين " وغيرهما من سلاطين الأسرة الحاكمة ، ورثوا الوزراء والأمراء والعلماء والأقارب كالآباء والأبناء والزوجات . وعلى هذا الأساس فلا تفسير لهذه القلة فى قصائد الرثاء الا غياب المصادر أو ضياعها .

وأما من حيث المنهج والأسلوب فقد نهج من وصلتنا بعض قصائدهم الرثائية نهج القدامى وسننهم فى الرثاء من حيث استهلالها بالحكمة واظهار التفجع على الميت وتعداد مناقبه مع التخلص الى مدح من رفعت له القصيدة .

"فمحمد بن يوسف الشغرى " مثلا استهلّ قصيدته فى رثاء الأمير " أبي يعقوب يوسف " السالف الذكر قائلا :

المرء فى الدنيا رهين خطوب ... والدّهر أفصح من خطاب خطيب
من صاحب الدّنيا الدّنية لم تزل ... تأتيه بالمكروه فى المحبوب
ومؤمّل الأيّام ليس بحاصل ... الّا على أمل بها مكذوب
دنياى مثل الحلم من تجريب ... ولغاية مجهولة تجرى بي (١)

فالحكمة التى استهل بها الشاعر قصيدته ساذجة لاعمق فيها وترتكز على الشكوى من الدهر والأيام ، والتحذير من الدنيا الفانية التى لا تدوم .

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ١٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد الموقف نفسه من الحياة الدنيا وغرورها في مطلع قصيدة " أبي عبدالله التلاليسي " :

كأس الحِمام علي الأنام تـــــــدور ما انْ لها الا القضاءُ مديـــــــرُ
وكذا الليالى لا وفاء لعهدهـــــا إنْ أقسطت يوما فسوف تجـــــور
ان اضحكت في يومها أبكت غـــــدا فالخير منها انْ أتاك غـــــرور (١)

فالمعاني التى أتكأ عليها الشاعر لا عمق فيها أيضا ، فهو يدعو الى التسليم بالقضاء والقدر وحتمية الموت التى سوف ينهل من كأسه كل حيّ ، وحذّر من غرور الدنيا وتبدل الأيام والأحوال . ولعـــل سذاجة هذه الأفكار ترجع الى أن الشعراء لم ينصرفوا الى حياة التأمل والتفلسف ، لذلك جـــاءت حكمتهم على تلك الصورة العادية .

وأما وصف الفقيد فقد حاول الشعراء فيه أن يظهروا لوعتهم وصدق عاطفتهم ، وأن يبرزوا وقـــع هذا المصاب وهوْله على أنفسهم سائرين مع التيار النقدى القديم الذى يرى أن سبيل الرثاء ينبغـــى " .. أن يكون ظاهر التفجّع ، بيّن الحسرة مخلوطا بالتلهّف والأسف والاستعظام انْ كان الميتّ ملكا أو رئيسا كبيرا " (٢) مع تفاوت نسبي في استجابتهم للحدث ، ومدى تأثيره على أنفسهم .

أظهر " الشنري " لوعته على الفقيد في قوله :

نادى بنادي المجد صرخـــــة نادب أسفا علي المولى أبي يعقـــــوب
فعليه يا نفسي الكئيبة فاندبِـــــي وعليه ياكبـدِي القريحة ذوبـــــي

كما يظهر " التلاليسي " تفجعه على الفقيد قائلا :

فجعت بمولانا الأمير وخلفـــــت في الدمع آماق الجفون تَهُـــور
كنا نُؤمِّل أن تدوم حياتـــــه لكنه ثوب الحيـــاة قصيـــر (٤)

---

(١) بغية الرواد جـ ٢ ، ص ١١٠
(٢) " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " ابن رشيق ، جـ ١ ، ص ١٤٠ تحقيق : محمد محـــي الدين عبدالحميد . بيروت ١٩٧٢
(٣) بغية الرواد جـ ٢ ، ص ١٠٧
(٤) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما أبو حمو فان تأثره كان بالغا لوفاة أبيه فيعبر عن لوعته وتفجعه وألمه العميق في قصيدة لـــه جاء فيها :

فبكيتُ من أســف لذاك كما بَكَــتْ ... حزنًا عليـه منازلي وربوعِـــي
وجزعتُ من ألمِ الفراق ولم أكــنْ ... يوم الكريهـةِ في الوَغَى بجـزوع
لم تَنْصِفِ الأيام حَرَّ فراقــه ... لكنه قد انصفته دموعـــي
عجبًا لأجفاني سَخَتْ بدموعهـا ... والقلـب محترقٌ بنار ضُلُوعـي (١)

فحرارة العاطفة وقوة المشاعر في هذه الأبيات أصدق وأنبل مما جاء عند الشاعرين السابقين . فمهما كان انفعالهما بالحد ، وصدقهما فى المشاعر فانهما لا يمكن أن يحسّا احساس الابن تجاه أبيه .

فأبو عبدالله التلاليسي في قوله :

ضَجَّتْ لمصرعه الخلائق ضَجَّـةً ... كادتْ بها مِنّا القلوبُ تطـيرُ
كادت تزول الراسيات لفقــده ... والشَّمس تكسف والسماء تمـور
قبل الممات نَظَمْتُ فيه مدائحـا ... يقف الحطيئة دونها وجريـر
والآن أَرْثِيـه وأبكيـه بمـا ... يبدو وللخنسـاء فيه قصـور (٢)

والشغري فى قولـه :

هَوَتِ النجوم الزاهرات لفقــده ... وذوى من الأزهار كلّ رطيـب
وتغيَّرتْ شمسُ النّهار لـه أسـى ... وتبدّلَتْ من نورهـا بشُحُـوب (٣)

حاولا أن يضخما من هول الحادث ووقعه على نفسيهما باستعمال المبالغة والغلوّ فى الرثاء ، لكنهما على الرغم من ذلك لا تبلغ عاطفتهما فى الأبيات السابقة ما جاء عند " أبي حمو " فى هذا الموقـف الذى يذكر فيه تفجعه وألمه قائلا :

يا فقد يوسف ما أبقيت لي جلـدا ... يا فقد يوسف ان الصبر عنك عفـا
ما مثل يوسف مفقود لفـا قـده ... ولا كموسىأخو فقد اذا وصفـا
أصيب بالمعضل الأدهى بوالـده ... كفقد يوسف لكن حتف ذا جحفـا (٤)

---

(١) بغية الرود ، ص ١٠٥
(٢) نفسه ، ص ١١١
(٣) نفســـه ، ص ١٠٦
(٤) زهر البستان ص ٨٤ ظ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالرقة واضحة فى هذه الأبيات ، وتبدو عاطفة الحزن أقوى وأشد فيها مما جاء عند الشاعرين السابقين ، اذ نلمح فيها الشاعر متوجعا يئن ويتفجع وكأنه يندب نفسه من هول المصاب وفقدان الصبر .

ونجد هذه الرقة أيضا فى هذه الأبيات التى يصور فيها فداحة الخطب وأثره فى نفسه ، ويشكو الزمان على ما أصابه من مكروه :

أفجعتنِي يازمان اليوم فى خلدِى ... ما أسرع الموت فى الأحباب حين وَفَى
صارت مساكنهم تحت التراب وقد ... تمزّق الدود ما قد كان مُؤْتلفا
الماءُ والنار مجموعان فى كبدِى ... فاعجب لضدين فى قلب قد ائْتَلَفَا
نارٌ تشب واكباد تذوب بها ... ويح المعذّب بالجنسين يالَهَفَا (١)

وأما خصال الفقيد فقد جرى الشعراء فيها أيضا على نهج سابقيهم فى تعدادهم لمناقب المرثيّ فى مثل هذه المواقف . والرثاء لا يعدو أن يكون مدحا للميث فى كثير منه . وهذا هو ما يذهب اليه قدامى النقاد . (٢) فيبين " الشغرى " خصال الفقيد ومآثره فى الأبيات التالية :

أعظمْ به من زاهد ومُجاهدٍ ... ومُنِيل رفد تارة ومنيب
من دأبُه الدين المتينُ ولم يزلْ ... من كلِّ فضل آخذًا بنصيب
مَنْ كان جيش الموت يخدمُ سيفه ... أَوْدَى بجيش للمنون عصيب (٣)

ويعدد " أبو حمو " مناقب أبيه وفضائله ، ويشير الى شجاعته وبأسه فى الحروب التى خاضها فى المناطق الشرقية من المملكة لاخضاع الثائرين والمتمردين ، وطرد ما تبقى من فلوك بني مرين كما يؤكد انتسابه العلوى فى قوله :

ولكم عساكرَ قادها يوم الوغَى ... من كُلّ مَنْديد بكلّ نَجِيع
من خير قومٍ من أجلِّ عشيرةٍ ... وأعزّ مُنْتَسِبٍ اليه رَفيع
سِبْط الحسين ابن البتول وجدّه ... خير الأنام أجلّ كل شفيع
من كان هذا أصله أو فصله ... فله العلى فى منزلِ التّرفيع (٤)

---

(١) زهر البستان ، ص ٨٤ ظ
(٢) العمدة ، ابن رشيق ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ ،
(٣) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ (٤) نفسه ، ص ١٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى غيرها من الصفات الأخرى كالجود والعدل والإحسان .

ويضرب الشعراء وهم فى غمرة هذا الحزن الأمثال بالملوك السالفة والأمم الخالية للعظة والعبرة كما جاء فى قول أبي حمو :

أين الملوك وأين ما قد جَمَّعوا ... من كلّ ذُخْرٍ فى الحياة رفيع

ساروا فلم تسمع لهم خبرًا ولم ... تَرَ منهم أثرًا يلوحُ بريح

وأبادهم صرفُ الزمانِ وخلّفوا ... ما جَمَّعوا من جنّةٍ وزُرُوع (١)

فمصير الكائنات على الأرض الفناء وليس الخلود ، وعلى الانسان أن يتخذ من الموت عظة لمراجعة سلو الدنيوى ، وأن يسلم بالقضاء والقدر ، وأن يتأسّى ويتجمّل بالصبر أمام مداهمة الموت لاحبائه وأعزائه . ومن الظواهر المألوفة فى قصيدة الرثاء الجمع بين التعزية والتهنئة ، وفى هذا السياق يخاطب " التلاليسي " " أباحمو " يهنّئه بالحكم بعد تقديم التعزية له فى أبيه :

يأيّها الملك الذى أيّامه ... قد أقبلتْ ولواؤه منصور

هناك ربُّ العرش ما خولته ... فى المغربين الأمر والتّأمير

ما للزّمان فضيلة الا بكم ... انّ الزّمان اليكُمَ لفقير (٢)

ويفعل " الشغرى " الشيء نفسه فى قوله :

ما مات من أضحى لمثلك مُنْجِبًا ... يا خيرَ نجلٍ فى الملوك نَجيب

وجّبَ الرّضى لكم ببركم له ... إذْ لم تخل لبرّه بوُجُوب

فاسلم أمير المسلمين مُؤيّدًا ... تجرِي من العُلْيا على أسلوب

وبقيت يا مولاىَ منصور اللِّوَى ... فى ظلّ ملك فى الزّمان رحِيب (٣)

---

(١) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١٠٦
(٢) نفسه ، ص ١١١
(٣) نفسه ، ص ١٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجمع بين الرثاء والمدح ظاهرة قديمة ولعلها ظهرت لأول مرة في العهد الأموي عقب وفاة " معاوية بن أبي سفيان " عندما قام الشاعر " عبد الله بن همام السلولي " (١) فجمع بين الغرضين في قصيدة واحدة . " (٢)

---

(١) عبدالله بن همّام بن نبيشة بن رياح السّلولي ، من بني مرة بن صعصعة ، شاعر اسلامي . توفي نحو سنة ١٠٠ هـ .. انظر : " الشعر والشعراء " ابن قتيبة ، ص ٤٣٤ تحقيق د : مفيد قميحة ومراجعة الاستاذ نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٥ "خزانة الادب " جـ٣ ، ص ٦٣٨

(٢) " العمدة جـ ٢ ، ص ١٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التصـــــــــــوف

لقد تغذت مدينة تلمسان بالثقافة الاسلامية منذ عهد الفتوح فتأثرت بمختلف التيـــارات الفكرية التي طبعت المجتمع الاسلامي بطابعها ، وكان اولها المذهب الصفرى الخارجي (١) وآخرها الفكر الصوفي الذى انتشر انتشارا كبيرا في عهد الموحدين ، إذ ظهرت جماعة من الصوفية الكبـــار اصحاب النزعات الفلسفية وانبثت مذاهبهم المختلفة في الناس . ومن مشاهيرهم الذين عاشوا فـــي المغرب الاوسط زمن الموحدين، نذكر " أبا مدين شعيب الاندلسي " دفين تلمسان . (٢) قـــــرأ بالاندلس ، وفاس ، واستوطن بجاية . فكان يقرأ بها رسالـــة " القشيرى " وغيرها ، وكثـــــر اتباعه فسعى به عند " يعقوب المنصور الموحدى " فاستقدمه الى مراكش ، فلما بلغ تلمسان توفي بها ودفن برابطة العباد وضريحه مشهوريتبرك به (٣) ومن فوائده : انه سئل عمّا خصه الله به فقال : " مقاسي العبودية ، وعلومي الالوهية ، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومـــــه سري وجهري ، واضاء بنوره بري وبحري ، فالمقرب من كان به عليما ، ولا يسمو الامن أوتي قلبـــا سليما . " (٤)

ومن كلامه : " بفساد العامة تظهر ولاة الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتّانـــون . " (٥)

ومن الصوفية أيضا " عبد الحق بن سبعين " (٦) سكن بجاية ، وقرأ بها ، ثم لحق بالمشرق ، وجاور

---

(١) ظهر المذهب الخارجي في المغرب في منتصف القرن الثاني الهجرى ، وكان ينقسم الى اباضي والى صفرى . فالاباضي كان بتاهرت ، وأما المذهب الصفرى فقد انتشر في تلمسان والمغـــرب الاقصى ، انظر : العبر جـ ٦ ، ص ص ١٠٦ - ١٠٨

(٢) هو شعيب بن الحسن الاندلسي المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ، انظر : ازهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ص ٣٠٨ - ٣٠٩

(٣) نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ١٣٣

(٤) نفســـــه ، ص ١٣٩

(٥) نفســـــه ، ص ١٤٣

(٦) عبدالحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الاشبيلي ، قطب الدين توفي ٦٦٩ هـ ، انظر : فوات الوفيات " جـ ٢ ، ص ص ٢٥٣ - ٢٥٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ص ٢٣٢ - ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مكة، وكانت بينه وبين قطب الدين القسطلاني (١) عداوة فقد انكر عليه هذا الأخير كثيرا من احواله (٢) وكتاباً " بغية الرواد " و " البستان " مليئان باسماء كثيرين من الزهاد والصوفية الذين عاشوا في تلمسان إبان الحكم الموحدى وبداية الحكم الزياني، نذكر منهم " ابا محمد المجّاصي " المعروف بالبكاء لكثرة بكائه وخشيته وتقواه، وأبا اسحاق الطيّار (٣) وأبا على الحبّاك (٤) وأبا عبدالله بن مرزوق وغيرهم. (٥)

وفي المصدرين السابقين حكايات وقصص تتحدث عن كرامات بعض هؤلاء الأولياء والعباد هي اقرب ما تكون الى الخرافات والأساطير منها إلى الحقيقة والواقع.

وكما كان للتصوف تأثير واضح على الناحية الاجتماعية، فقد كان له تأثير وانعكاس على الادب فمما يؤثر من نظم " ابي عبدالله بن الحجّام التلمساني (٦) قوله :

غريب الوصف ذو علم غريب ... عليل القلب من حب الحبيب

اذا ما الليل اظلم قام يبكي ... ويشكو ما يكنّ من الوجيب

يقطّع ليله ذكرا وفكرا ... وينطق فيه بالعجب العجيب

به من حبّ سيده غرام ... يجلّ عن التطبّب والطبيب

ومن يك هكذا عبدا محبا ... يطيب ترابه من غير طيب

---

(١) محمد بن احمد بن علي القيسي، ابوبكر، قطب الدين التوزرى القسطلاني، متصوف توفي سنة ٦٨٦ هـ. انظر : فوات الوفيات، جـ ٣، ص ص ٣١٠ - ٣١٢

(٢) شذرات الذهب جـ ٥، ص ٣٩٧

(٣) من كبار الاولياء، مات أواخر القرن السابع " انظر : بغية الرواد، جـ ١، ص ١٠٦، البستان ص ص ٥٦ - ٥٧

(٤) عمر بن العباس الصنهاجي المعروف بالحبّاك، متجرد عن الدنيا. مجاهد لهوى النفس. توفي في حدود ٦١٣ هـ انظر : بغية الرواد، جـ ١، ص ١٠٨

(٥) ابو عبدالله محمد بن ابي بكر بن مرزوق بن الحاج التلمساني، ولد بتلمسان سنة ٦٢٩ هـ، وتوفي بها سنة ٦٨١ هـ، انظر " بغية الرواد، جـ ١، ص ص ١١٤ - ١١٥، البستان ص ٢٢٦

(٦) محمد بن احمد بن محمد اللخمي ولد بتلمسان سنة ٥٥٨ هـ، وتوفي بمراكش سنة ٦١٤ هـ انظر: بغية الرواد، جـ ١، ص ١٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان ابن الحجام شاعرا واعظا خلّف تآليف منها " حجّة المحافظين ومحجّةالواعظين " في الوعظ (١) " ولأبي العيش بن عبدالرحيم الخزرجي " (٢) نظم في التصوف حسن ، فله يصف اعتزاله عن الخلق انقطاعه الى الحق :

وآثرت المقام بكسر بيتي ... ولا أحد أراه ولا يراني
ولا ألفي خليلا غير حبر ... معين في المعارف أو معان
وقد أيقنت أن الرزق آت ... وان لم آته سعيا أتاني
وقد حقّقته فهما وعلما ... وقد شاهدته رأى العيان
فلازم ذا باخلاص تمكن ... هنا وهناك من اسنى مكان (٣)

وكان للتصوف انتشاره الواسع في القرن الثامن الهجرى ، والباحث في محصول الفكر الاسلامي في هذه الفترة يلاحظ أن الطبقة المثقّفة على مختلف مستوياتها لم تكن بمعزل عن الذوق الصوفي والمساهمة في الادب الروحي . ففي مجال التأليف ألف " المقرى الجد " رسالة في التصوف أسماها " الحقائق والرقائق " وله " إقامه المريد " و " رحلةالمتبتل " ، (٤) وينقل " المقرى " في "نفح الطيب "اخبارا عديدة عن شيوخ جده " أبي عبدالله " (٥) "وكلها تصور لنا طابع العصر في الذوق الصوفي والرياضة الروحية واحتقار الحياة المادية احتقار ايمان وزهد ويقين" (٦) ومن اجل ذلك لا نعجب إذا رأينا " المقرى " يتحدث عن خرقةالتصوف التي البسه اياها أحد أشياخه

---

(١) بغيةالرواد" ج ١ ، ص ١٠٢ (٢) محمد بن ابي زيد عبدالرحيم بن محمد بن ابي العيش الخزرجي، تاريخ وفاته مجهول انظر : بغيةالرواد " ج ١ ، ص ص ١٠٣ - ١٠٤ ، " تعريف الخلف برجال السلف " ج ٢ ، ص ص ٣٣٣ - ٣٣٥ (٣) " بغية الرواد " ج ١ ، ص ١٠٤

(٤) نفح الطيب " ج ٥ ، ص ٣١٠

(٥) انظر شيوخ المقرى الجد في المصدر نفسه ، ص ص ٢١٥ - ٢٥١

(٦) المقرى الجد " مقال للاستاذ عبدالقادر زمامة، الاصالة ج ٩ ، عدد ٢ ، ص ص ٩٦ - ١٠٠ السنة ١٩٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو " محمد بن موزوق العجيسي" وسندها الى الرسول عليه السلام . (١) وصنّف السلطان "أبو زيان الثاني " كتاباً نحا فيه منحى التصوف وقد أشرت اليه . وأما في ميدان الشعر فقد نظم " المقرى الجد " قصيدة طويلة عارض بها تائية "ابن الفارض " الكبرى (٢) كما ان بروز قصائد المولد النبوى الشريف بشكل يستدعي النظر في هذا القرن ربما كان من دواعي انتشار التصوف وذيوعه غير ان خير من يمثل الاتجاه الصوفي في شعره هو " محمد بن خميس " الذى عاش في منتصف القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجرى .

ملامح التصوف في شعر ابن خميس

إن الاشارات التي جاءت في كتب التراجم تدلنا على تصوف " ابن خميس " فقد تحدث " ابن الخطيب " عن شخصية " ابن خميس " فاوضح انه " كان نسيج وجده زهدا وانقباضا وأدبا وهمة ، حسن الشيبة جميل الهيئة ، سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيدا عن الرياء والهوى ، عاملا على السياحة والعزلة . " (٣) ووصفه " المقرى "بالشاعر الصوفي في اكثر من موضع . (٤)

وأما العناصر الصوفية في شعره فتتمثل أولا في أشعاره الزهدية ذلك أن الزهد يعتبر طريقا الى التصوف ، فهما متلازمان في غالب الأحوال ، والزهد في الحياة هو ترك ملذاتها ، والانصراف عن شهواتها . ومن أشهر قصائد " ابن خميس " الزهدية بائيته التى كانت تحظى بإعجاب السلطان " أبي عنان المريني " ، وقد بلغ اعجابه بابن خميس " بسببها إلى حد الاعتناء بنظمه وحفظه والقيام بروايته ، فهو الراوى لهذه البائيه المشار اليها ، وقد بدأها بأسلوب خطابي وعظى .

---

(١) نفح الطيب جـ ٥ ، ص ٢٤٢

(٢) الاحاطة جـ ٢ ، ص ص ٢٠٣ - ٢١٢

(٣) نفسه ، ص ص ٥٢٨ - ٥٢٩

(٤) نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٣٦٠ جـ ٧ ، ص ١٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجـــاء فيهـــا :

وما زلـــت والعليـــا تعنى غريمهـــا ... أعلل نفســـي دائما بمتـــاب
وهيهـات من بعد الشّباب وشرخـــه ... يلـــذّ طعامـي أو يسوغ شرابـــي
خُدِعـــت بهذا العيش قبل بلائـــه ... كما يُخدَع الصّادى بلمع ســـراب
تقول هو الشّهد المشور جهالـــة ... وما هو الاّ السّمّ شِيبَ بصـــاب (١)

ويضرب فيها الأمثال ويكثر من ذكر الوقائع التاريخية ، وأخبار الأمم الخالية وأمجادهم لأخذ العظة والعبرة من تلك الحوادث ، فيشير مثلا الى أخبار بكر وتغلب والجاهلية وما أدى إليه حادث قتل جسّاس بن مرّة لكليب من حرب شوهاء كان تأثيرها بالغا على القبيلتين الأختين .. ثم يحذر من الدنيا ونعيمها الزائل ، ويدعو الى الابتعاد عن بهرجها الكاذب وزخرفها الخداع الذى يشبه السراب حيث لا يظفر الجارى وراءه بشيء . ومما جاء في هذا المعنى قوله :

وما الحزم كل الحزم الا اجتنابهـــا ... فأشقى الورى من تصطفي وتحابـــي
أبيت لها ما دام شخصي أن تُـــرَى ... تمرّ ببابـي أو تطور جَنابـــى (٢)

ويقدم النصح والارشاد في النهاية منطلقا من تجاربه الشخصية ومن خبراته العملية في الحيـــاة ، مظهرا تأسفه على ما فرّط فيه في مرحلة الشباب . وكأنه يوحي بذلك الى غيره كي لا يكرر الاخطاء التي وقع هو فيها :

اليكم بني الدنيـــا نصيحة مشفـــق ... عليكم بصير بالأمور نقـــاب
طويل مراس الدّهـــر جذلٍ مما حـــكٍ ... عريض مجال الهمّ جِلْسِ ركـــا ب

وقولـــه :

ولا تحسبوا أني على الدهر علتـــب ... فأعظـــم ما بي منه أيســـر ما بـــى
وما أسفي الا شباب خلعتـــه ... وشيب أبى الاّ نصول خضـــاب
وعمر مضى لم احل منه بطائـــل ... سوى ما حلا من لوعـــة وتصابـــي (٣)

---

(١) " نفح الطيب " جـ٥، ص ٣٣٦
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٦٧
(٣) " نفح الطيب " جـ ٥ ، ص ص ٣٦٧ - ٣٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والابيات توحي لنا أن الشاعر عاش في بداية حياته حياة لاهيـة ٠

ومن بديع شعره في هذا الباب قوله في احدى قصائده :

تراجع من دنياك ما أنت تـــارك ... وتسألها العتبى وها هي فـــارِك.
تؤمّل بعد الترك رجع ودادهـــا ... وشر وداد ما تودّ التّرائـــك
حلالك منها ما حلا لك في الصبـــا ... فانت على حلوائـه متهالـــك
تظاهـر بالسّلوان عنها تجمّـــلا ... فقلبـك محزون وثغرك ضاحـــك
تنزّهت عنها نخوة لازهـــادة ... وشعر عذاري أسود اللون حالـــك (١)

والبيت الأخير يوضح أن الشاعر قد تصوف في مرحلة شبابه على خلاف ما تذكر بعض المصادر من أنه مال الى التصوف في أواخر حياته ٠

وما يميز هذه النماذج الشعرية السابقة في الزهد أنها واضحة المرمى والهدف في التحذير من الدنيا وشرورها،وهي لا تختلف عن الأشعار الزهدية التي عرفت في العصور السابقة لا سيما عنـد " أبي العتاهية " الذي كاد أن يقفل فيها الباب علي كل جديد بعده ٠

ومن الملامح الصوفيه في شعره ما رواه القاضى " أبوالبركات البلّفيقي" حين قال :

أنشدني أبوعبدالله بن خميس " وحكى لي قال : " لمّا وقفت على الجزء الذى ألّفه " ابن سبعين " والذى سمّاه " بالفقيرية " كتبت على ظهره :

الفقـر عندى لفظ دقّ معنـــاه ... من رامـه من ذوي الغايات عنّـــاه
كم من غبيّ بعيد عن تصـــوره ... أراد كشف معمّاه فعمّـــاه (٢)

وابن خميس " يرى أن دقّة الفقر الذى يعني التصوف في البيتين - وصعوبة الوصول إليه مـن ذوى الغايات ، والوصول كشف وبيان ٠ ومن هنا ينقد " ابن خميس " مذهب " ابن سبعين " المسرف في الغموض ، ويميل الى الاعتدال،علما أن هذا الرفض من جانب " ابن خميس " لمذهب " ابن سبعين " لا يحدد من جهة أخرى مكانه واتجاهه في التصوف من خلال البيتين السابقين ٠

---

(١) " نفح الطيب" جـ٥، ص ص ٣٦٢ - ٣٦٢ ، " ازهار الرياض " جـ ٢ ، ص ٣٠٥

(٢) " نفسـه " جـ ٥ ، ص ٣٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونرى هذه النزعة الصوفية عند ابن خميس " كذلك في وصفه للخمر . وأهم : ما يلاحظ في هذا السياق أن الشاعر اصطنع طريقة شعراء الخمر - كغيره من الصوفية - في وصف الخمرة الالهية ، يقول في احدى قصائده بعد أبيات غزليّة :

قم نطرُدِ الهمّ .. بمشمولةٍ ... تقصّر الليلَ اذا الليلُ طال
وعاطِها صفراءَ ذميّةً ... تمنعها الذِّمّةُ من أن تُنال
كالمسكِ ريحًا واللّمَى مَطْعَمًا ... والتّبر لونًا والهوا في اعتدال
عتّقها في الدَّنّ خمّارُها ... والبكر لا تعرف غير الحجال
لا تثقبِ المصباح لا واسقِني ... على سَنَا البرق وضوء الهلال (١)

فالشاعر يرى أن العلاج في الخمر ، وذكر بعض أسمائها كالمشمولة والصفراء وأعطى صفاتها تشبيهات مادية محسوسة فرائحتها تشبه المسك و لونها كالذهب في صفائه . غير أن تلك الخمرة ليست مثل غيرها ، فهي منيعة لا تنال ، وبعيدة لا تمسك . ولا شك أن " ابن خميس " لا يقف عند حدود هذه الأوصاف المادية المحسوسة للخمر ، ولا يتغنى بالخمرة المادية كما يتوهم من يأخذها بظاهر ألفاظها ذلك أن الشاعر كغيره من المتصوفة كان يلجأ الى الرمز للتعبير عن معانيه ، وهذا الرمز سمة تميز الصوفية عن غيرهم . وقد أحسّ " المقري " بالقيمة الروحية لهذه القصيدة ، وخشيَ أن يساء فهمها فيعلق عليها مدافعا عن كونها خمرية قائلا :

" وربما يهجس في خاطر من يرى وصف هؤلاء الأئمة للخمر وغيرها ، أن ذلك منهم على حقيقته حاشاهم من ذلك ، وانما مقصدهم بذلك خلاف ما يتوهم ، فلا يساء بهم الظنّ ، فإن العذر لهم في مثل ذلك بيّن ، واعتقاد براءتهم من هذا الشين متعين ، ويرحم الله شيخ الشيوخ ولي الله الرّبّاني الشهير البركات " أبا مدين شعيبا " أفاض الله علينا من أنواره إذ يقول :

بكت السّحاب فأضحكت لبكائها ... زهر الرّياض وفاضت الأنهار
وقد أقبلت شمس النّهار بحلّة ... خضرا وفي أسرارها أسرار
وأتى الربيع بخيله وجنوده ... فتمتّعت في حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود الى الجنى ... فتسابق الأطيار والأشجار
والكأس ترقص والعقار تشعشعت ... والجوّ يضحك والحبيب يزار

---

(١) ازهار الرياض " جـ ٢ ، ص ٣٠٦ ، الاحاطة " جـ ٢ ، ص ٥٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعود للغيد الحسان مجاوب ... والطّار اخفى صوته المزمار

لا تحسبوا الزّمر الحرام مرادنا ... مزمارنا التّسبيح والاذكار

وشرابنا من لطفه وغناؤنا ... نعم الحبيب الواحد القهار

والعود عادات الجميل وكأسنا ... كأس الكياسة والعقار وقار

فتألفوا وتطيّبوا واستغنموا ... قبل الممات فدهركم غدّار

والله ارحم بالفقير اذا أتى ... من والديه فانه غفّار

ثمّ الصلاة على الشفيع المصطفى ... ما رنّمت بلغاتها الأطيار (١)

فالمقري " يرى أن من وراء الغزل والخمر في قصيدة " ابن خميس " شيئا آخر ، وأن ما يوجد من وصف ليس يفهم على حقيقته . وانتحال " المقري " العذر " لابن خميس " وغيره يوضح طبيعة الصراع بين الفقهاء والمتصوفة ، فالأولون كانوا يتهمون الآخرين في دينهم مستشهدين بشعرهم الغزلي والخمري ، وهذا ليس في عصر " المقري " فحسب ، بل منذ ان برز التصوف كمذهب أو منهج في الحياة ، وقد كشف " ابو مدين " الذي عاش في نهاية القرن السادس الهجرى عن هذا الصراع في نصّه السابق في البيت التالي :

لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا ... مزمارنا التسبيح والاذكار

ثم ما يتبعه من ابيات موضحا هدفه وقصده من وراء وصفه السابق ، ويقول " المقرى " :

" وقد تذكرت بلامية " ابن خميس " المذكورة ، قصيدة على رويها ووزنها اولها قوله :

ما حال من فارق ذاك الجمال ... وذاق طعم الهَجْر بعد الوِصال

وهي من نظم الشيخ العارف الصّالح سيدى " ابراهيم التازى " (٢) رضي الله عنه ، وأتيت ان أذكرها كفّارة لما يتوهمه السامع في لامية ابن خميس " .(٣) وفي قصيدة اخرى يوضح ابن خميس نوع الخمر التي يقصدها من خلال هذا المطلع الغزلي :

---

(١) " نفح الطيب " جـ ٧ ، ص ص ١٤٣ - ١٤٤

(٢) لم اتوصل الى معرفة ترجمته

(٣) أزهار الرياض " جـ ٢ ، ص ٣٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَظَـرتْ إليك بمثل عَيْنَيْ جُـــؤذَرٍ ... وتبسّمت عن مثل سِمْطَيْ جوهـــر
عن ناصع كالدرّ أو كالبـــرق او ... كالطّلع أو كالأقحوان مُوَشّـــر
تجرى عليه من لَماهـا نُطفـــة ... بل خمـرة لكنها لم تُعْصَـــر (١)

فالبيت الأخير يوضح أن هذه الخمر لم تمسسها يد أنس لأنها لم تعصر ، والخمر هنا رمز الى لـــذة الوصل ونشوته عند الصوفية .

ونراه في قصيدة أخرى يتغزل على طريقةالشعراء الغزليين مستعيرا أساليبهم ، فوقف علـــى الأطلال ورمز لمحبوبته باسم أمامة ، ومما جاء في مطلعها :

مَشـوق زار ربعك يا أُمامـــــا ... محا آثار دمنتهـا التقادمـــــا
تتبّع ريقـه الطّلّ ارتشافـــــا ... فما نَفَعَتْ ولا نفعـت أوامـــــا
وقبّل خدّ وردتها جهـــــارا ... وما راعى لخمرّتهـا ذِمامـــــا
وما لحريـم بيتك أن يُدانَـــــا ... ولا لعلا قدرك أن يُسامَـــــى (٢)

فالشاعر كان يجعل غزله أو بالاحرى بعض غزله تكأةوسبيلا يرقى به نحو الحبّ الإلهي ، وليس بعجيب أن ينهج " ابن خميس " كغيره من الصوفية نهج الشعراءالغزليين ، وأن يعبر عن عواطفه كمـــا يعبر العاشقون المغرمون لأن التصوف في حقيقة أمره حبّ وحنين الى الذات المقدسة .

ومن شعر " ابن خميس " الذى شرق وغرب ، قصيدته التي مدح بها " الفضل بن يحيى " ، وأثر التصوف فيها جلي . ونالت هذه القصيدة اعجاب القاضي " تقي الدين ابن دقيق العيد " (٣) اذ أنه لم يقرأها حتى قام اجلالا لها . وقد الحقها بنص نثرى . ذكر " ابوعنان المرينى " انـــه " لمّا توجه الشيخ الصالح الشهير " أبواسحاق التّنّسي " من تلمسان الى بلاد المشرق ، اجتمـــع هناك بقاضي القضاة " ابن دقيق العيد " فكان من قوله : كيف حال الشيخ الصالح " أبي عبدالله بن خميس " ؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف ، ويطنب في ذكر فضله ، فبقي الشيخ " ابواسحاق " متعجبا وقال : من يكون هذا الذى حلّيتموه بهذا الحلى ولا أعرفه ببلد ى ؟ فقال له هو القائل :

عجبالها أيذوق طعم وصالها " قال : فقلت : إن هذاالرجل ليس عندنا بهذه الحالةالتى وصفتم ،إنمـــا هو عندنا شا عر فقط ، فقال لهإنكم لم تنصفوه وانه لحقيق بما وصفناه " . وأخبر " الآبلى " أن

---

(١) " نفح الطيب " جـ ٥ ، ص ٣٦٥ ، ازهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ٣١٤ (٢) الاحاطة، جـ ٢ ، ص ٥٢٩هـ٥٣٠
(٣) محمد بن على بن وهب بن مطيع ، ابوالفتح ، تقي الدين القشيرى ، المعروف كأبيه وجده بابن دقيق العيد ، قاضي من اكابر العلما بالاصول . ولي قضاء الديار المصرية سنة ٦٩٥هـ ، توفـي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السلطان " أبا عنان المريني " وكان يكثر العناية بشعره ، ذكر أن " ابن دقيق العيد " كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة تعلو موضع جلوسه للمطالعة وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأمّلها والنظر فيها (١) وأما القصيدة فهي طويلة جاء فيها :

عجبا لها أيذوق طعم وصالها ... من ليس يأمل أن يمرّ ببالها

وأنا الفقير الى تعلة ساعة ... منها وتمتّعني زكاة جمالها

كم ذاد عن عيني الكرى متألق ... يبدو ويخفي في خفيّ مطالها

يسمو له بدر الدّجى متضائلا ... كتضاؤل الحسناء فيَ أسمالها

وابن السبيل يجيء يقبس نارها ... ليلا فتمنحه عقيلة مالها

يعتادني في النّوم طيف خيالها ... فتصيبني ألحاظها بنبالها

كم ليلة جاءت به فكأنّما ... زفّت عليّ ذكاء وقت زوالها (٢)

ففي النص الشعري كلمات لها دلالات صوفية كالفقير ، وابن السبيل وكلاهما يدلان في السّياق على المجاهدة والرياضة ، ذلك أن الفقر يعتبر من المراحل المهمة للسّير والسلوك وأول خطوة في التصوف ، أما الكلمات التالية مثل متلفت ، وبدر الدّجى ، والنار ، وذكاء (اى الشمس) فهي تعبر عن النور الذى هو رمز صوفي للكشف والاشراق ، أو الحقيقة التي ينبغي على من يريد الوصول اليها ان يطهّر نفسه بالمجاهدة والترويض . وقد استعار الشاعر - في تأدية أفكاره - لغة الغزل الحسي ، فتحدث في الأبيات السابقة عن حبيبة خيالية أو أسطورية لا تنال ، فهي فوق مأمول من يسعى اليها غير أن الوصول اليها ليس بالأمر المستحيل اذا عرف السالك اليها الطريق الصحيح ، والشاعر من بقية معشر السلف الذين عشقوا هذه المحبوبة ووصلوا الى كمال الاتحاد بها ، والفناء في عشقها بعدما نالهم الجهد والعناء ، وأريقت دماؤهم من أجلها ، وهو ما عبّر عنه الشاعر في الابيات التالية :

أنا من بقيّة معشر عركتهم ... هذى النّوى عرك الرّحى بثفالها

اكرم بها فئة أريق نجيعها ... بغيا فراق العين حسن مآلها

حلت مدامة وصلها وحلت لهم ... فان انتشوا فبحلوها وحلالها (٣)

---

(١) ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٣٢٢

(٢) الاحاطة ، ص ٥٥٤ ، " نفح الطيب " ، ج ٥ ، ص ٣٦٨ ، ازهار الرياض " ج ٢ ، ص ٣١٩

(٣) الاحاطة " ج ٢ ، ص ٥٥٥ ، ازهار الرياض " ج ٢ ، ص ٣٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتحدث عن معشر هؤلاء الرجال قائلا :

بلغت بهرمس (١) غاية ما نالها ... أحد وناء لها لبعد متالها

وعدت على " سقراط سورة كأسها ... فهريق ما في الدّن من جَرْيالها

وسَرَتْ الى " فاراب " (٢) منها نفحة ... قدسيّة جاءت بنخبة آلها

ليصوغ من أُلحانه في حانها ... ما سُوّغ القسّيس من أرمالها

وتغلغلت في "سُهَرَوَرْد" (٣) فاسهرت ... عينا يؤرقها طروق خيالها

فخباء شهاب الدين (٤) لما اشرقت ... وخوى فلم يُثْبِتْ لنور جلالها

وبدت على الشوذي (٥) منها نشوة ... ما لاح منها غير لمعة آلها

هذي صبابتهم ترقّ صبابة ... فيروق شاربها صفاء زُلالها (٦)

---

(١) شخصية يونانية أُسطورية ترمز بعض الاساطير اليونانية أنه نبي الاجرام انظر : خريدة القصر وجريدة العصر " عماد الدين الاصفهاني . ق ٤ ، جـ ٢ ، ص ١٩١ هامش رقم ٣ . تحقيق الاستاذين : عمر الدسوقي ، وعلي عبدالعظيم . القاهرة

(٢) محمد بن محمد ، ابو نصر الفارابي ، ويعرف بالمعلم الثاني ، اكبر فلاسفة المسلمين ، ولد في فاراب ، وانتقل الى بغداد ، توفي سنة ٣٣٩هـ ، أُنظر : " وفيات الاعيان " جـ ٥ ، ص ص ١٥٣ - ١٥٧

(٣) عمر بن محمد ، أبوحفص ، شهاب الدين ، السهروردي نسبة الى سهرورد التي ولد فيها سنة ٥٣٩ هـ ، فقيه شافعي ، شيخ الصوفية في بغداد ، توفي سنة ٦٣٢ هـ انظر : " وفيات الاعيان " جـ ٦ ، ص ٢٦٨ " شذرات الذهب " ، جـ ٥ ، ص ١٥٣

(٤) لقب السهروردي السابق الذكر

(٥) ابوعبدالله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي ، استقر بتلمسان وتوفي بها في بداية القرن السابع الهجري " ٦١٥ هـ " ، ينظر اليه على انه من اصحاب الوحدة المطلقة ، أُنظر : بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ص ١٢٧ - ١٢٨

(٦) الاحاطة " جـ ٢ ، ص ٥٥٥ ، " أزهار الرياض " جـ ٢ ، ص ص ٣٢٠ - ٣٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتي وصف فيها حصار " بني مرين " لها انه كان من الاتفاق الغريب سرعة وقوع ما تمنّاه " ابن خميس " لتلمسان هذه من الخير بعد طول المحنة واشتداد البلاء ، ولم يتأخر ذلك عن تاريخ القصيدة غير اربعة اشهر ".(١) يشير إلى فك الحصار عن المدينة بعد فشله .

ونجد رواية اخرى ، توضح هذا الاعتقاد بالكرامات حيث يقال " ان الوزير " اباعبدالله ابن حكم " اقترح عليه ان ينظم له قصيدة هائية ، فابتدأ منها مطلعها وهو :

لمن المنازل لا تجيب هواها مُحِيَت معالمها وصمّ صداها

وذلك في آواخر شهر رمضان سنة ٧٠٨ هـ ، ثم لم يزد على ذلك إلى ان توفي وكان آخر ما صدر عنه من الشعر ، وقد أشار معناه الى معناه ، وقد أخذ أولاه بحضور أخراه ، وذكر صاحب " مزية الدريعة " أنه لمّا همّ به قاتله قال له : " أنا دخيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلتفت اليه ، وجعل يجهز عليه ، فقال له : لِمَ لم تقبل الدّخيل بيني وبينك ، فكان آخر ما سمع منه : أتقتلون رجلا أن يقول ربّي الله ، ثم انه استفاض بعد ذلك من حال القاتل ، انه هلك قبل ان يكمل سنة من حين قتله من فالج اصابه فكان يصيح ويستغيث : ابن خميس يعذبني ، ابن خميس يقتلني ، وما زال الامر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال . نعوذ بالله من الورطات ، ومواقعات العثرات.(٢) .

فالروايتان توضحان سيطرة التفكير الصوفي على عقول الناس في ذلك الوقت ، وقد اشرت الى ان صاحبي" البستان في ذكر الاولياء والعلماء في تلمسان " و " بغية الرواد " قد أوردا كثيرا من هذه الاعتقادات التي كانت رائجة في الاوساط الشعبية والمستنيرة على حد سواء .

ومهما يكن من امر ، فإن هذه الاشارات والتلميحات التي وردت في كتب التاريخ والأدب وما ورد في تلك الباقات الشعرية السابقة من شعر " ابن خميس " تلقي بعض الضوء على تصوفه ، وان لم تحدد اتجاهه ومذهبه في التصوف . ومن جهة اخرى فان النماذج السابقة تدلنا على أن "لابن

---

(١) أزهار الرياض ج ٢ ، ص ٣٣٦

(٢) " أزهار الرياض " ج ٢ ، ص ٣٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتي وصف فيها حصار " بني مرين " لها انه كان من الاتفاق الغريب سرعة وقوع ما تمنّاه " ابن خميس " لتلمسان هذه من الخير بعد طول المحنة واشتداد البلاء ، ولم يتأخر ذلك عن تاريخ القصيدة غير اربعة اشهر ".(١) يشير إلى فك الحصار عن المدينة بعد فشله .

ونجد رواية اخرى ، توضح هذا الاعتقاد بالكرامات حيث يقال " ان الوزير " اباعبدالله ابن حكم " اقترح عليه ان ينظم له قصيدة هائية ، فابتدأ منها مطلعها وهو :

لمن المنازل لا تجيب هواها مُحِيَتْ معالمها وصمّ صداها

وذلك في آواخر شهر رمضان سنة ٧٠٨ هـ ، ثم لم يزد على ذلك إلى ان توفي وكان آخر ما صدر عنه من الشعر ، وقد أشار معناه الى معناه ، وقد أخذ أولاه بحضور أخراه ، وذكر صاحب " مزية الدريعة " أنه لمّا همّ به قاتله قال له : " أنا دخيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلتفت اليه ، وجعل يجهز عليه ، فقال له : لِمَ لم تقبل الدّخيل بيني وبينك ، فكان آخر ما سمع منه : أتقتلون رجلا أن يقول ربّي الله ، ثم انه استفاض بعد ذلك من حال القاتل ، انه هلك قبل ان يكمل سنة من حين قتله من فالج اصابه فكان يصيح ويستغيث : ابن خميس يعذبني ، ابن خميس يقتلني ، وما زال الامر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال . نعوذ بالله من الورطات ، ومواقعات العثرات.(٢) .

فالروايتان توضحان سيطرة التفكير الصوفي على عقول الناس في ذلك الوقت ، وقد اشرت الى ان صاحبي" البستان في ذكر الاولياء والعلماء في تلمسان " و " بغية الرواد " قد أوردا كثيرا من هذه الاعتقادات التي كانت رائجة في الاوساط الشعبية والمستنيرة على حد سواء .

ومهما يكن من امر ، فإن هذه الاشارات والتلميحات التي وردت في كتب التاريخ والأدب وما ورد في تلك الباقات الشعرية السابقة من شعر " ابن خميس " تلقي بعض الضوء على تصوفه ، وان لم تحدد اتجاهه ومذهبه في التصوف . ومن جهة اخرى فإن النماذج السابقة تدلنا على أن "لابن

---

(١) أزهار الرياض جـ ٢ ، ص ٣٣٦

(٢) " أزهار الرياض " جـ ٢ ، ص ٣٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خميس " شعرا جميلا وكثيرا ، وقد جمع هذا الشعر ودونه القاضي " أبوعبدالله الحضرمي " في جزء سمّاه " الدر النفيس من شعر عبدالله بن خميس " (١) لكنه ضاع فيما يبدو .

وقد بين " ابن خاتمة الأنصاري " مكانته الشعرية فقال :

" وكان رحمه الله من فحول الشعراء واعلام البلغاء ، يصرف العويص ، ويرتكب مستصعبات القوافي ويطير في القريض مطار ذي القوادم الباسقة والخوافي " (٢)

وأبرز " ابن الخطيب " مكانته العلمية فقال انه " كان طبقة الوقت في الشعر ، وفحل الاوزان في المطول ، أقدر الناس على اجتلاب الغريب . " (٣)

---

(١) نفح الطيب ج ٥ ، ص ٣٦١ وهو مفقود
(٢) ازهار الرياض ، ج ٢ ص ٣٠٢ ، المصدر نفسه ، ص ٣٦٠
(٣) الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٥٢٩ المصدر نفسه ص ٣٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموشحـــــــات

لقدكان لهذا الفن ذيوعه وانتشاره في القرن الثامن الهجرى ، وشارك فيه بعض شعـــــــراء تلمسان ، ويأتى في مقدمتهم الطبيب الشاعر الوشاح " أبوعبدالله التلاليسي " .

واذا كانت الموشحات " يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجـــو والمجون ... " (١) وغيرها من الأغراض ، فان المصادر التي أرخت للدولة الزيانية ، واهتمت بأدب هذه الفترة لم تذكر - على حد علمنا - الا قليلا من نصوص هذا الفن لا يتعدى أربع موشحات . وقـــد جاءت هذه الموشحات في الأغراض التالية :

في الغـــــــــزل :

ذكر " يحيى بن خلدون " في هذا الصدد موشحة واحدة " لأبي عبدالله بن البنّاء " جاء فيها :

من أطلع فوق ما يس الرَّيْحَـــــــان ... بـــدر الأفُـــــق
يهتزّ منعّماً علـــى كثبـــــــان ... تحـــت الغســـق

.. .. ..

من نمّق خدّه بروض أنـــــــف ... بادي القطـــف
وطرّزه بسالف منعطـــــــــف ... رقـــم الصحـــف
والثغر غدا لدرّه كالصـــــــدف ... قد أنبـــتت فـــى

.. .. ..

مَرْحٍ قد زانه من المرجـــــــان ... بالشُّهْد بُقِـــــي
أوْ جاد على فؤادى الظمـــــــآن ... أطفى حَرقـــــي

.. .. ..

بدر أزراره تبدّت فلكـــــــــا ... قلبي مَلَكَـــــــا
عينـــاهُ مع الهوى دمِي سَفكـــــــا ... فيه اشتركـــــــا
قد أشبهت المها لحظاً فتكـــــــا ... والخال حكـــــى

(١) دار الطراز في عمل الموشحات " ابن سناء الملك . ص ٥١ تحقيق:جودت الركابي ط:الثانية . دمشق ١٩٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِسْكاً مُسْتَمْسِكاً على سوسان غض عليق

يهدى كنسيم جنّة الرضوان "للمستنشق (١)

وهذه الموشحة من النوع الذى أُطلق عليه " ابن سناء الملك " (٢) الموشح التام حيث بدأت بقفل. غير أن الوشاح لم يلتزم بعدد الأقفال والأبيات التى حدّدها " ابن سناء الملك " للموشح التام حيث كان مجموع موشحته ستة أقفال وستة أبيات .

وتتكون أقفال الموشحة من أربعة أجزاء يمكننا أن نتمثلها في مطلع الموشحة التالي :

من أطلع فوق ما يس الريحان بدر الأفق

جزء ١ جزء ٢

يهتزّ منعّما على كثبان تحت الغسق

جزء ٣ جزء ٤

وأما أبياتها فتتألف من ثلاثة أجزاء مركبة من فقرتين يمكننا أن نلاحظها في البيت التالي :

من نمّق خده بروض أنف بادِي القطف جزء ١ مركب

وطرّزه بسالف منعطف رقم الصّحف جزء ٢ مركب

والشعر غدا لدرّه كالحدف قد أنبت في جزء ٣ مركب

وجاءت أقفال الموشحة على روى واحد هو حرف القاف بينما تنوعت القافية في الأبيات ، فأتى الروى في البيت السابق على حرف الفاء ، وفي الأبيات التي تليه على حروف الكاف ، والراء ، والباء ، والميم ، والنون . ومن هذا الاختلاف أو التنويع الموسيقى في قوافي الأقفال والأبيات ندرك السرّ في تسمية هذا الفن بالموشح .

---

(١) بغية الرواد ، جـ١ ، ص ١٢٤.

(٢) هبة الله بن جعفر بن سناء الملك ، أبي عبدالله المتوفى سنة ٦٠٨ هـ " انظر : وفيات الاعيان جـ٦ ، ص ص ٦١ - ٦٢ ، شذرات الذهب جـ٥ ، ص ٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما الخرجة فجاءت مسبوقة بأحد الألفاظ التي اعتمدها " ابن سناء الملك " كتمهيد لذكر الخرجة في الموشح (١) وهي هنا في هذه الموشحة كلمة قل التي وردت في آخر جزء من البيت الأخير وهو:

قل كيف أروح دون وجد وضنى ممّن فتنا

وبعد ذلك يذكر الخرجة التي جاءت معربة وهي :

ما أخجل قدّه غصون البان بين الورق

الا وسبا المها مع الغزلان سود الحدق

وهذا يخالف ما اشترطه " ابن سناء الملك " من ضرورة أن تكون الخرجة " حجاجية من قبل السخف، فزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حدة منضجة ، من ألفاظ العامة ، ولغات الدامّة " الا اذا كان موشح مدح وذكر الممدوح في الخرجة فانه يحسن أن تكون الخرجة معربة ..." (٢)

هذا من ناحية المبنى أما من ناحية المحتوى فقد أفرد الوشاح موضوع موشحته للغزل فتفنن في وصف مفاتن المرأة التي تغزل بها ، ويبدو ذلك من القفل الاول الى القفل الثالث .

وهو ما مجموعه ثلاثة أقفال وبيتان ، حيث عالج الوشاح ما استأثر به حبيبه من جمال مادي فاتن مستوحيًا تلك الأوصاف المادية للمرأة من صور الطبيعة الفاتنة فشبه خدّها المنمّق بالروض المزهر الباذي القطف ، كما شبه لحظها بلحظ المها ، وهو لحظ فاتك أصمى قلبه وسفك دمه ، وهو معنى استعارة من معاني الحرب . وأمّا خالها فكالفصّ العبق ينشر رائحة طيبة للمستنشق كأنها نسيم جنة الرضوان .

وهنا يستعير الوشاح هذا المعنى الديني الاسلامي ليوظفه في مقام الغزل.وهذا الحبيب كالبدر

---

(١) يرى ابن سناء الملك ضرورة أن تسبق الخرجة بأحد الكلمات التالية : قال أو قلت أو غنى أو غنّيت أو غنّت .. انظر : " دار الطراز " ص ص ٤١ - ٤٢

(٢) نفسه ، ص ص ٤٠ - ٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي يضيء في الظلام لحسنه الى ما هنالك من أوصاف مستمدة من مواطن الفتنة والجمال .

وينتقل بعد هذا الوصف ليشكو الصدود والهجر وما أصابه جرّاء ذلك من قلق وأرق مستعملا شيئا من الحوار الداخلي الذي يعبر عن حالته تلك مخاطبا حبيبه أن يرق له ويرفق به ويتضح ذلك في قوله :

حالي بمذ غبتَ حائلٌ يا قمري ... حالي الكدر
أُنسي بالليل مع نظام الدُّرَر ... نقر الوَتَر
إن كنتَ جهلتَ أدمعي كالمطر ... قل أو سَهَري

فاسأل جنح الظلام عن هيمان ... بادي القلق
يُنبيك عن فيض دمعي الهتّان ... أو عن أرقي (١)

فنلاحظ أنه أضفى على ذلك الموقف جوا نفسيا حزينا يتواءم مع ما يعانيه من ألم البعد والفراق ، فاستعمل كلمات تعبر عن حالته النفسية مثل : حالي الكدر ، وأدمعي كالمطر ، وبادي القلق ، ودمعي الهتان ، وأرقي ، وسهري .. ويلجأ الى الطباق للغرض نفسه كقوله :

الهجر ووصله عدوٌّ وحبيبٌ ... داءٌ وطبيبٌ
والقلب وقدّه كصخرٍ وقضيب ... قاسٍ ورطيب
والرّدف وخصره خصيب وجديب ... غصن وكثيب (٢)

ولما كان الخمر مرتبطا بالغزل ، ويستدعي أحدهما الآخر فان الوشاح لجأ الى وصف الساقية وصفا حسيا ماديا . ويتضح ذلك في قوله :

يا صاحِ أدرْ عليَّ والوجدُ مُقيمْ ... أقداحَ نعيمْ
من كفّ رشا مُهَفْهَف القدّ قويم ... والطرف سقيم
درّي الثَّغْر ريقه كالتَّنْسيم ... مسكيّ نسيم

---

(١) بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ١٢٤
(٢) نفسه ، ص ١٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد أطلع في كواكب القطعـــــان نور الشّفـــــق
هذا كالورد عند مي قـــــــان وذا يقـــــف
.. .. ..
من أنبتـــه الله نباتا حسنـــــــا قلبي سكنـــــا
أنسى الغزلان والمها حين رنـــا منـــه فتنـــــا
قل كيف أروح دون وجـد وضنـــــى ممّن فتنـــــا (١)
ما أجمل قدّه غصـون البـــــان بين الـــــورق
الا وسبا المها مع الغـــــزلان سود الحـــــدق

وعلى هذا الاسلوب أرسل الوشاح غزله في نغمات شجية عذبة ، وعبّر عن عاطفته كما عبّر عنهـــا شعراء الغزل .

وأما المعاني التي اتكأ عليها في غزله،فهي تقليدية معروفة لا جديد فيها عما هو مألوف في الموشحات والقصائد الغزلية . ومع ذلك فقد تميز غزله في هذه الموشحة بالرقة والعذوبة . ووفق الوشاح في ستر هذه المعاني والباسها ضروبا من البيان والبديع من تشبيه واستعارة وجنـــاس وطباق ، وتضمين وغيره من دون تكلف أو افراط كما اختار ما يناسب الغناء من ألفاظ رقيقة وعبارات بسيطة سلسة وأوزان راقصة فجاءت موشحته " عذبة السمع محكمة الصنعة " (٢) على تعبـــير " يحيى بن خلدون " .

---

(١) بغية الرواد ، ج ١ ، ص ١٢٥

(٢) نفسه ، ص ١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المـــــدح

أورد " يحيى بن خلدون " في هذا الصدد موشحتين وهما للشاعر الوشاح " أبي عبدالله التلاليسي " في مدح ولي نعمته السلطان " أبي حمو الثاني " الذى حظي عنده بمكانة مرموقة ، فقد كان طبيبه وشاعر بلاطه . ومما يدعو الى الاستغراب حقا أن صاحب " بغية الرواد " أورد هما ضمن وصفه للمجالس المولدية وما كان يلقى فيها من شعر مع أننا لا نجد في نصّيهما ما يوحي أنهما نظمتا في ذلك الغرض .

نظم الموشحة الأولى سنة ٧٦٢هـ وهي :

يا ويحَ صَبٍّ بان عنه الشبـــاب وأُوْدَع لهيبَ وجْدٍ عندما ودعـــوا

أودى به الوجد وفرط الجَـــوَى
وهدّ منه الشيب كلّ القِـــوَى
ولا له ممّا اعتـــراه دَوَا

مَنْ فقد الخِلاّن مثلي وشـــاب ما ينفعُ الا ليالى الوصل لو يرجـــع

آهٍ لأيام الصِّبا لو تعـــودْ
كأنّ بها قد لاح بدر السعـــود
تَرَى بها ريب الزمان يعـــود

لهفي عليها مالها من أيـــاب فالأدمع تنهل والأجفان لا تهجـــع

ذِكرى لايّام الصّبا لا يفيـــدْ
فمدحُ مولانا الامام السعيـــد
أوْلى وأحرَى فهو بيت القصيـــد

له ملـــوك الارض طُرّاً تهاب وتخضع من مثله حَقّ لها تجْـــزع

إن ذُكِر الاجوادُ فهو الغمـــامْ
أو عُدِّدَ الأبطال فهو الهُمـــام
أو تسألوني قلتُ موسى الإمـــام

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الماجدُ الأسْمَى المنيعُ الجنـــــاب الأمنع عَنْ مُلْكِه الثابت لا يدفـــــع

أهلُ تلمسان به آمنـــــينْ

أكل وشرب وقرار معـــين

قال بها شخص من التّائبين

لَاشْ يحسدوني ويقول لِـــي تـــابْ آشْ يطمع انى كنترك عشقي أو نقطع (١)

والموشحة من النوع التّام فمجموعها ستة أقفال وخمسة أبيات . تتركب أقفالها من ثلاثة أجزاء بسيطة . التزم الوشاح في قوافي أقفالها بحرف العين المهملة بينما نوّع من قوافي الأبيات ، فجاءت على حروف الواو والدال والميم والنون ، بيد أننا نلاحظ أن حرف الدال تكرر كروىّ في قوافي بيتين متتابعين وهو ما يخالف القاعدة التى توكد على ضرورة الاختلاف في قوافي الأبيات . ومن جهة المحتوى سار الوشاح فيها على الشكل التالي :

مقدمة في ذكر الشيب والتحسّر على عهد الشباب الذى زال وانقضى ولن يعود ، فيعزّى نفسه بذكر تلك الأيام التى كانت مليئة بالبهجة والحبور. فكان الماضى أملا بالنسبة لوشاحنا يستظل به فالشباب له دلالته عنده لأنّه رمز من رموز الحياة ولذتها ، ورمز القوة والحيوية أيضا فكان بكاؤه مريرا على الشباب ، وبرزت فيه عاطفته قوية جياشة وزادها قوة استعماله لكلمات موحية معبرة عن حالته النفسيه الكئيبة التي يعيشها في ظل واقعه المثقل بهموم الشيب والضعف والخور نلحظها في قوله : يا ويح صبّ ، ولهيب وجد ، وفرط الجوى ، وأودى ، وهدّمنه الشيب ، وآه التى تدل على التوجع ، ولهفى التى تدل على التحسر ، والأدمع تنهل ، والأجفان لا تهجع .. فهذه الكلمات لها دلالتها وايحاءاتها الخاصة عند الوشاح .

ويبدأ هذا القسم من الموشحة من القفل الأول الى نهاية القفل الثالث .

ويحسن التخلص الى مدح السلطان كما جاء في قوله في بداية البيت الثالث :

---

(١) بغيـة الرواد ، جـ ٢ ، ص ص ٨٦ - ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكرى لايّام الصبا لا يفيـــــدُ

فمدح مولانا الامام السعيـــــد

أَوْلَىَ وأحرى فهو بيت القصيد الى نهاية البيت الخامس .

ويسبغ على الممدوح صفات خلقية ونفسية مثل الشجاعة والحزم والكرم ، والعدل بين الرعية ، ونشر الأمن في ربوع البلاد وغيرها من الصفات التى عادة ما نجدها في قصائد المدح العادية .

ويختتم الموشحة بخرجة عامية . ويغلب الظن أنها أخذت من احدى الأغانى الشعبية التى كانت شائعة في بيئته التلمسانية أو البيئة المغربية آنذاك مما يجعلنا نرجح أن الموشحة نظمت من أجل الغناء .

وأما الموشحة الثانية فنظمها " أبوعبدالله التلاليسي " سنة ٧٦٣هـ . وهى من النوع التام . تتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات ، تتألف أقفالها من جزئين ، وأما أبياتها فتتألف من ثلاثة أجزاء بسيطة .

استهل الوشاح موشحته بالبكاء على شبابه الراحل كعادته وما يحمل من ذكريات جميلة . ويعطى لهذا القسم أهمية خاصة حيث نجده يمثل ثلاثة أقفال وبيتين أى ما يعادل نصف الموشحة تقريبا :

يسخّي أيا مقلتى وانهلّـــــي بدمعك الواكف المنهـــــل

على شبابى الذى قد ولـــى

آهٍ لقد بان واضمحـــــلا

فهل لقلبى أن يُسَلّـــــى

ما في الذى نالنـــي ما يسئـــــل فَقْدُ الشّباب وفقد الأهـــــل

بان الحبيب ووافَى الشّيب

فكيف يسلُو بهذا القلـــب

ترى لما قَدْ دهانـى طـــب

مالي وحق الهوى من مثـــــل لا في انتحابي ولا فى شكـــلي (١)

---

(١) " بغية الرواد " ج ٢ ، ص ١٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويخلص الى مدح ولى نعمته فيصفه بالجود ، ويراه منصورا صاحب أمر ونهى ، وأن نصره مقدر من عند الله . ويبيّن فضله على تلمسان التى عرفت في عهده ازدهارا ورخاء عظيمين فاقت بهما -حسب رأيه- بقية العواصم الأخرى :

شهمٌ جوادٌ كثيرُ البذل ... به اعتصامُ الورَى في المَحْلِ

به تلمسانُ ذات الحسنِ

فيما اشتهت من مُنَى وأمنِ

بغدادُ شوقًا لها تغنّي

أجزت لنا من ديار الخلّ ... ريحَ الصَّبا عاطرات الذَّيْل

يأيّها الملك المنصورُ

يامن له الأمر والتأمير

بنصركم قد جرى المقدور (١)

ومضمون مدحه سواء في هذه الموشحة أو الموشحة السابقة شبيه بما هو موجود في القصائد المدحية التقليدية من حيث الحرص على اظهار الممدوح بصفات البطولة والبأس والحزم والكرم وغيره . وهذه سمة تتّسم بها معظم موشحات المدح في تلمسان وغيرها ، ويختتم موشحته بخرجة معربة هي :

في مد حكم يا زكيَّ الأصل ... يدى تخط وقلبى يملي (٢)

ويذكر " ابن سناء الملك " أن الخرجة في موشح المدح اذا كانت معربة ولم يكن فيها اسم الممدوح ينبغى أن تكون " ألفاظها غزلة جدا ، هزّارة سحّارة خلّابة ، بينها وبين الصبابة قرابة . " (٣) وهو ما لم يحاوله وشاحنا أو يلتزم به في خرجته .

---

(١) " بغية الرواد " ج ٢ ، ص ١٠١

(٢) نفسه ، ص ١٠١

(٣) دار الطراز ص ٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المولد النبوى الشريـــــــف

ساهمت الموشحات في احياء ليالي المولد النبوى الشريف مثل شعر القصيد . ولم نعثر في هـذا الغرض إلا على موشحة واحدة ذكرها يحيى بن خلدون في " بغية الرواد " ونقلها عنه " المقرى " فـــي " أزهار الرياض " وهي " لأبي عبدالله التلاليسي " ألقاها بين يدى " أبي حمو " في مجلس مولـدى سنـــة ٧٦٧ هـ وهي :

لى مدمع هَتَّـــانْ ... ينهلّ مثْلَ الـــدُّرَرْ
قد صَيَّر الأجفـــانْ ... ما إن لها منْ أثَـــر

.. .. ..

حقّ له يجْـــــرى ... دمًا على طول الدَّوا مْ
مُذْ جَدَّ في السَّـــيْر ... ناس الى خير الأنـــام
و عاقـــــــني وِزْرى ... يا صاحِ عن ذاك المقام

.. .. ..

وسارَتْ الأضعـــانْ ... يُحْدَى بها في السَّحَرْ
فاستبشر الرّكبـــان ... بقرب نيل الوطـــر

.. .. ..

يا سعـــد مـــن زارْ ... قبر النبىّ المصطفـى
محمـــد المختـــار ... قطب المعالِي والوفـــا
في مدحه قد حـــارْ ... الخلق طرّا وكفـــى

.. .. ..

في محكم الـــقرآن ... وشرحـــه والسِّـــيَر
فضّله الرحمـــن ... على جميع البشـــر

.. .. ..

يا حادِىَ الركـــب ... بالله ان جئت البقيـــع
تحيّة الصَّـــبّ ... بلغ الى الهادى الشّفيع
غريبٌ بالغـــرب ... عن ذلك المغنى الرفيع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس لي امكـــــان ... ينهضني للسّفـــــر
الامنّ السلطـــــان ... الملك المُظفّـــــر

من لم يَزَلْ يسمُـــو ... الى المعالي كُلّ حِـــينْ
ذاك أبو حمّـــــو ... أعني أمير المسلمـــين
طاعته غُنْـــــمٌ ... نِلنا به دنيا ودِيـــن

أظهر في البلـــدان ... من عدلـه المشتهـــر
وعمّ بالاحســـان ... للبدوِ ثم الحَضَـــر

قابله اسعـــاد ... تكلّ عنه الالسنـــة
قبيل عبد الـــواد ... به غدت في سلطنـــة
أيّامه أعيـــاد ... ياليتها ألف سنـــة

ملك بني زيّـــان ... بالمشرفيّ النّكـــر
أحياه اذ قد كـــان ... ليس له من خـــبر

تاهت تلمســـان ... بملكه على البـــلاد
صار له شـــان ... وسعده في ازديـــاد
قد ضَلّ انســـان ... قال بها يشكو السّهـــاد

ليل الهوى يقظـــان ... والحبّ يربو السّهـــر
والصّبرُ لي خـــوّانْ ... والنّوم من عيني بـــرِى (١)

وهي من الموشح التام ، لكن الوشاح كما نلاحظ يوصلها الى سبعة أقفال وستة أبيات . تتألف أقفالها من اربعة اجزاء صدراهما قافية واحـــدة ، وعجزاهما كذلك وهو ما يطلق عليه الوشاحون اســـم

(١) بغية الرواد " حـ ٢ ، ص ص ١٦٤ - ١٦٦ و " ازهار الرياض " جـ ١ ، ص ص ٢٤٧ - ٢٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللازمة .

وتتألف أبياتها من ثلاثة أجزاء مركبة من فقرتين متفقة صدورها في القافية وكذلك أعجازها .

والموشحة لا تختلف في مضمونها بشكل عام عما رأيناه في قصائد المولد النبوى الشريف ، فقد استلهم الوشاح المعاني نفسها ، فوصف شوقه الى زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهفته الى رؤية تلك الاماكن المقدسة . وحمّل تحيته وأشواقه اليها مع حادى الركب مبينا أعذاره التى قيدته عن واجبه . فهو لا يستطيع زيارة تلك الأماكن الطاهرة وتفيّؤ ظلالها الوارفة وشمّ تربتها الزكية .

ويحسن التخلص الى مدح ولى نعمته فيسبغ عليه المعاني نفسها التي عرفناها مع قصائد المدح مثل صفات العدل والاحسان والحرص على حماية الدين الاسلامى ، وفضله في احياء دولة بني زيان بعدماعفا رسمها ، ويختتم الموشحة بخرجة غزلية معربة .

وعموما فقد التزم " أبوعبدالله التلاليسي " في بناء موشحاته الثلاث بالقواعد التى سنها " ابن سناء الملك " في بناء الموشحة .

وأما من حيث اللغة فان لغة موشحاته الثلاث امتازت بالرقة والبساطة ، والابتعاد عن اللفظ الغريب أو المعنى المستغلق وهذا في الحقيقة كان مطلبا يسعى الى تحقيقه كل الوشاحين لأن الموشحات في الأصل كانت تنظم غالبا لأجل الغناء الذى يتطلب لغة بسيطة يمكن فهمها بسهولة ويسر . وانطلاقا من هذه النظرة جاءت موشحاته بسيطة التركيب ، أقرب الى منثور الكلام . وربما بالغ أحيانا في التحرر فاستعمل بعض المفردات العامية ولكن من غير اكثار أو ركاكة ، وأحيانا يعمد الى تسكين اواخر الفقر أو تسكين قوافى الأقفال والأبيات كما مرّ ، حتى يطوع الاعراب ليبدو أكثر ملاءمة للغناء مثل قوله في أحد الابيات :

ذكرى لأيام الصبا لا يفيد

فمدح مولانا الامام السعيد

أولَى وأحرى فهو بيت القصيد (٢)

---

(٢) " بغية الرواد " ج ٢ ، ص ٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما خرجاته فقد التزم فيها غالبا بالأسلوب المألوف في الموشحات من ضرورة التمهيد لها بالألفاظ التي اعتمدها ابن سناء الملك ٠

والخلاصة أن " أبا عبدالله التلاليسي " قد برز في هذا الفن اكثر من غيره من أدباء هذه الفترة ٠ واذا كانت المصادر لم تذكر له الا هذه الموشحات الثلاث ، فهذا لا يعني أنه لم ينظم غيرها ، فتلك المصادر تتفق على أنه اشتهر بهذا الفن مما يجعلنا نرجح أنه نظم كثيرا من الموشحات لكنها ضاعت لضياع المصادر ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني : النثر الفني

كان القرن الثامن الهجرى في تلمسان حافلا بالنشاط التأليفي، واذا نظرنا في بعض المصادر مثل " نفح الطيب " و " الاحاطة " و " بغية الرواد " وغيرها نجد فكرة واضحة عن ذلك النشاط الذى كان انعكاسا لعوامل التشجيع والرعاية التى أحيط بها رجال العلم والفكر . وقد أشرت أثناء حديثي عن الحياة الفكرية الى أن السلاطين الزيانيين عملوا عامة على استقدام النخبة من العلماء ورجال الفكر منذ تأسيس الامارة في بداية القرن السابع الهجرى . فوفد على تلمسان أعلام مشاهير بأتي في مقدمتهم في ميدان الكتابة " أبو بكر بن خطاب الأندلسي " الذى ترك أثرا كبيرا في الكتابة الفنية في تلمسان سواء أكان ذلك في معاصريه أم في الكتاب الذين جاءوا بعده . وكان ذا مكانة علمية شهيرة، لا سيما في ميدان الادب الذى برز فيه على سائر كتاب عصره حتى اعتبره بعض مؤرخي الأدب خاتمة أهل الأدب . (١) وبرز في القرن الثامن الهجرى من أبناء تلمسان من انتشر صيتهم في الكثير من أصقاع العالم الاسلامي ، حتى أن شهرة بعضهم في المشرق لم تدانها شهرة ، نذكر منهم الفقيه الخطيب " ابن مرزوق " وابنى الامام ، والمقرى الجد وأبا عبدالله الشريف التلمساني والآبلي وسعيد العُقْباني (٢) وتقلد بعض هؤلاء الكتاب وظائف حكومية مختلفة في كنف الدولة الزيانية ، كما شغل بعضهم الآخر وظائف في ظل حكم " بني مرين " . وتركوا تآليف عدة في فروع مختلفة من المعرفة من فقه وحديث وتوحيد وأصول وتاريخ وأدب ، غير أن مجال اهتمامنا في هذه الدراسة هو النثر الفني .

ويكاد هذا النثر ينحصر في بعض الرسائل وعدد من الكتب التاريخية والأدبية نظرا لاندثار وضياع معظم الأغراض النثرية الاخرى من مقامات وخطب وغيرها . إذ أنها لم تصل الينا وضاعت بضياع المصادر .

---

(١) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان " ص ١٢٧

(٢) الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية " ابن قنفذ القسنطيني ، ص ص ٣٧ - ٣٨ ، تحقيق : محمد الشاذلي النيفر ، وعبدالمجيد التركي . تونس ١٩٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القسم الأول : الرسائل الفنيـــــه

استعمل الادباء والكتاب لفظ رسالة في كتاباتهم منذ عهد مبكر كما تشير الى ذلك كثير من المصادر الأدبية والتاريخية (١) ومن هنا كان الادباء يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض ويوجهه الى شخص آخر ، ويشمل ذلك الخطاب والجواب ، غير أن الباحث في رسائل هذه الفترة ، يجد لفظاً آخر مرادفا لمصطلح رسالة وموازيا له في المعنى ، وهو لفظ " كتاب " الذى شاع استعماله من قبل الكتّاب في مكاتباتهم الرسمية والخاصّة . وهذا " عبد الرحمن بن خلدون " يقول في رد له على مكاتبة بعث بها إليه ابن الخطيب :

" وكان كتاب سيدى لشرف تلك الدولة عنوانا .. " (٢) واستعملت كلمة " كتاب " في عبارة " يحيى بن خلدون " بعد استعراضه لقصيدة في الاستصراخ على لسان سلطان غرناطة الى سلطان تلمسان يقول : " .. وبكتاب ورسالة من انشاء الوزير أبي عبدالله بن الخطيب .. " (٣) كما استعمل هذا المصطلح " القلقشندى " في صبح الاعشى كثيرا مما يوحى أنه كان شائعا في المغرب وفي المشرق على حد سواء . وهذا المصطلح ليس وليد هذه الفترة ، بل يعود الى فترات سابقة في عهد المرابطين والموحدين ، وعهد ملوك الطوائف بالأندلس .

ومن الجدير بالذكر أن فن الترسل في تلمسان - كما تشير بعض المصادر - بلغ منزلة مهمة في القرن السابع الهجرى بقدوم " أبي بكر بن خطاب " الى تلمسان الذى ترك أثرا كبيرا في الكتابة الفنية بشكل عام وفن الرسائل بشكل خاص .

وتأثير " ابن خطاب " لم يكن في النثر فحسب ، بل كان في الشعر أيضا ، فقد ذكر " العبدرى " أن " ابن خميس " كان راوية عن أبي بكر بن خطاب وأنه كان تلميذا له ومن المحتمل أن يكون قد تأثر به في اتجاهه الأدبي وأسلوبه، وقد يكون قلّده في رسائله الديوانية بعد أن شغل منصب كاتب الرسائل

---

(١) انظر : اعتاب الكتاب " ابن الأبار ، ص ص ٦٩ - ٧٢ ، تحقيق صالح الاشتر . دمشق . ١٩٦١

(٢) رحلة ابن خلدون ، ص ١٢٤

(٣) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بديوان السلطان " أبي سعيد عثمان " خلفا عنه بعد وفاته ، وان لم يبق لرسائل ابن خميس الديوانية أيّ أثر ، ولا يستبعد أن يكون باقي الكتاب في زمانه قد تأثروا بها كما تأثر به الجو الأدبي في تلمسان عامة .

نبغ " أبوبكر بن خطاب " في الترسل والكتابة الفنية وبها اشتهر اكثر من اشتهاره بالشعر وبلغ فيها درجة كبيرة فاق بها معاصريه في المغرب والاندلس،وقد شغل منصب ديوان الرسائل بغرناطة ، ولما انتقل الى تلمسان،جعله " يغمراسن " صاحب القلم الأعلى كما ذكر التنسي . وأنشأ رسائل عديدة كانت نموذجا يحتذى ، وقد تحدث " ابن خلدون " عن رسائله وأثرها في المغرب كله قائلا :

" إنه كان مترسلا بليغا وكاتبا مجيدا ، فاستكتبه ، وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ " . وفي العبارة ما يفيد أن رسائل " ابن خطاب " صارت تراثا أدبيا يدرس ويحفظ ، بمعنى أنه خلفّ تقاليد كتابية أو أسلوبا خاصا به اقتفى أثره اللاحقون من كتاب القرن الثامن الهجرى . غير ان اكثر رسائله قد ضاع ، وما تبقى منها جمعه أديب مجهول ، وسماه " فصل الخطاب من رسائل أبى بن خطاب " (٥) وذكر فيه تسعة ابواب .

والرسائل الفنية أنواع متعددة نميز منها في تلمسان خلال القرن الثامن الهجرى - الأنماط التالية :

---

(١) الرحلة المغربية ، ص ١٦
(٢) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ص ١٢٩
(٣) نفسه ، ص ١٢٩
(٤) العبر ، جـ ٧ ، ص ١٦٣
(٥) الرباط، الخزانة العامة ، نسخة مصورة عندنا ضمن مكتبة الجامعة الأردنية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- **الرسائل الديوانيـــــه :**

كان الديوان السلطاني في تلمسان يحتوى على عدد من الخطط الكتابية مثل كاتب الأشغال وكاتب سر السلطان وصاحب العلامة . (١) وهذه الخططكانت تفرض على السلطان أن يختار عددا من صفـــوة الكتاب الذين كانوا ذا حظ كبير من الثقافة يؤهلهم لهذا المنصب الرفيع . فقد اشترط " أبو حمو " فـي كاتب السر مثلا أن يكون " فصيح اللسان ، جرىء الجنان ، بليغ البيان ، عارفا بالآداب ، بارع الخـط عالما بالحل والربط .. " (٢) ويرى من جـهة أخرى أن " الكاتب عنوان المملكة .. ومن كتابـــك يستدل على عقلك " . (٣) ولعل ما ألف قديما من كتب تتعلق بديوان الانشاء تبين لنا نوع الثقافـة التى كان من الواجب أن ينالها كاتب الانشاء في ذلك العصر . (٤)

وقد ذكر صاحب " بغية الرواد " مجموعة من الكتاب الذين تولوا هذا المنصب في تلمسان خلال القـرن الثامن الهجرى أشهرهم الفقيه القاضي " محمد بن هدية القرشي " منشىء الرسائل في عهد أبي حمـو الأول ، وولده أبي تاشفين (٥) ومنهم " محمد بن يوسف الشغرى " وكان كاتبا عند السلطان أبـي حمو الثاني ، ويلقبه المقرى " بالعلّامة الناظم الناثر " (٦) ويصفه التّنسي " بالأديب البـــارع المكثر " (٧)

---

(١) ذكر ابن الاحمر أن السلطان أبا حمو الثاني هو أول من اتخذ صاحب علامة من ملوك بنى عبـــد الواد . وذكر أبرز من تولّى هذا المنصب في عهده منهم عبدالرحمن ابن الكاتب بن ميمون ابـن الشامي ، ومحمد بن عبدالعزيز التلمساني ، والشغرى .. انظر :
مستودع العلامة ومستبدع العلامة " ، ص ٢٤ ، ص ص ٧٢ - ٧٤
تحقيق : محمد التركى التونسى ومراجعة محمد بن تاويت .

(٢) واسطة السلوك ، ص ص ٦٠ - ٦١

(٣) نفسه ، ص ٦١

(٤) انظر على سبيل المثال كتاب : العقد الفريد للملك السعيد لأبى سالم النصيبى ص ١٤٨ . القاهرة ١٨٨٨، وصبح الاعشى جـ ١ ، ص ص ١٤٠ - ٤٦٦

(٥) بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ٢١٣

(٦) نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ١٢١

(٧) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ، ص ١٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنهم " علي بن مسعود الخزاعي " الملقب بذى الوزارتين "(١) والكاتب " يحيى بن خلدون "، كاتب سر السلطان " أبي حمو الثانى "، وقد كانت له مراسلات سلطانية مع ابن الخطيب (٢) وغيرهم من الكتاب الذين ذكرهم صاحب " بغية الرواد " وصاحب " زهر البستان " ولا نعلم من حياتهم الا أسماءهم . (٣)

ولا نجد في المصادر غير تلك الاشارات، فما وصلنا من المكاتبات الديوانية قليل جدا اذا قيس بطول هذه الفترة ، وهو يعود في اعتقادنا الى أن كثيرا من المؤرخين قد أغفلوا ذكرها فضاعت ولم تصل الينا . وأغلب ما حفظته المصادر رسائل قليلة تتمحور حول موضوعات سياسية مختلفة تبادلها " بنو عبدالواد " مع بعض الامارات المسيحية في أسبانيا وأشهرها " مملكة أرجون " ، ومع مملكة " بنى نصر " الاسلامية بغرناطة التى كانت تربطهم بها علاقات ودية حميمة، غير أن المصادر لم تذكر الا بعض المكاتبات التى تمت ابتداء من النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى، في حين اغفلت ما تمّ في النصف الأول منه ، فلم تصلنا مثلا مراسلات " أبي حمو الأول (٧٠٨ - ٧١٨ هـ) " الى الاندلس ، ولا مراسلات " أبي تاشفين " (٧١٨ - ٧٣٧ هـ) الذى " جرت بينه وبين السلطان أبي الوليد مراسلات ومهاداة " حسب ما ذكر ابن الخطيب (٤) ثم إن تلك المصادر لا تذكر من المكاتبات إلا ما كان يرد من غرناطة الى تلمسان ولا تذكر العكس وإن كانت الرسائل الجوابية من الأندلس ترشدنا بعض الشيء الى مضامين وفحوى الرسائل الزيانية التى ضاعت .

---

(١) شجرة النور " ص ٢٣٨

(٢) " نفح الطيب " ، جـ ٦ ، ص ٣٩٦

(٣) منهم " أبوعبدالله بن الرّقام الهسكورى . منشيء الرسائل في عهد " أبي زيان الأول "
" بغية الرواد " جـ ١ ، ص ٢١٠
وأبو عبدالله بن مدورة " . المصدر نفسه ، ص ٢١٥
و " محمد بن علي العصامى " نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣١٥
و " محمد بن صالح شقرون " نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٤٣
و " أبو القاسم بن ميمون السنوسي " زهر البستان ، ص ٢٣ و - ٢٤ ظ
و " أبو الحسن علي ابن العطّار " المصدر نفسه ، ص ٣٥ و - ظ الخ .

(٤) اللمحة البدرية في الدولة النصيرية " ابن الخطيب ، ص ٨١
تحقيق : لجنة احياء التراث العربي ط ٣ : بيروت ١٩٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما مكاتبات " بني عبدالواد " الى ملوك الشرق ، وأخص بالذكر ملوك مصر والشام ، فلم يصل منها إلا رسالة واحدة ترجع الى عهد السلطان " أبي تاشفين الأول " وبضع رسائل ومكاتبات تبادلها " أبو الحسن المريني " مع مماليك مصر إبّان حكمه لتلمسان واقامته في " المنصورة " بالقرب منها ، في حين ضاعت المكاتبات المتبادلة بين " بني عبد الواد " وجيرانهم في الشرق وفي الغرب ، وأعني الحفصيين والمرينيين ، فما بأيدينا من مصادر لا تذكر منها شيئا في هذا القرن ، مع أن تلك المصادر كثيرا ما كانت تشير بين الفينة والأخرى الى تبادل الرسائل بين الدولة الزيانية وجارتيها - ولا سيما مع بني مرين - لمعالجة قضايا السلم ومسائل عالقة بينهما تحتاج الى حل حتى تتفرغ الى اصلاح ذات حالها واصلاح شئونها الداخلية . (١)

نماذج من هذه الرسائل :

من هذه الرسائل ما كان متبادلا بين " بني عبدالواد " ومملكة " أرجون " نظرا لتشعب المصالح بين الطرفين وتشابكها . ولعل هذه الرسائل المتبقية تدلنا الى حد ما على نوعية هذه العلاقات القائمة بينهما آنذاك ، فهي تطرح عدة قضايا تتعلق بالتجارة وتأمين حريتها وسبلها كما تشير الى قضايا السلم والهدنة بين الطرفين الى غيرها من القضايا . من ذلك ما وجهه السلطان " أبو تاشفين الأول " الى سلطان أرجون " جاقمة الثاني " في شأن عقد هدنة بينهما جاء فيها :

" سلام على من اتبع الهدى ورحمة الله وبركاته وبعد : حمد الله العظيم ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم ، والرضا عن أصحابه الخلفاء التابعين له ، عليه السلام على المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، والدعاء لهذا المقام العلي التاشفيني السنّي بالنصر العزيز والفتح العميم ، فالكتاب اليكم كتب الله لكم أصلح الأعمال وأزكاها . وبلغكم من التوفيق أنهى الأماني وأقصاها ، من حضرتنا بمدينة تلمسان حرسها الله تعالى على الخير التام واليسر العام ، والحمد لله كما هو أهله وعن الرعى لجانبكم ، والاغتباط بمصاحبتكم ، والعمل على ما يؤكد أسباب

---

(١) انظر : " بغية الرواد " جـ ٢ ، ص ٦٢ ، ص ٦٤ ، ص ٩٢ ، ص ٩٣ ، ص ١٠٢ ص ١٦١ ..الخ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مواصلتكم ٠٠" (١) ويفصح عن قصده ، ويخبره بأنه أرسل مبعوثين له اليه برسم عقد الصلح بينهما على حسب ما في العقود الواصلة معهما ٠ ويختتم رسالته بالسلام مع تحديد تاريخ الرسالة وهو سابع عشر لرجب الفرد عام ٧٢٧هـ. (٢) وهناك رسالة أخرى وجّهها الحاجب " هلال القطلاني " باسم السلطان " أبي تاشفين " الى سلطان " أرجون " "جاقمة الثاني " ، وتكاد تكون صورة طبق الأصل للرسالة الأولى وهي تحمل التاريخ نفسه الذي كتبت فيه الرسالة الأولى ، وآثرت ألاّ أوردها تجنبا للتكرار ٠ وتشير هي الأخرى الى الصلح الذي عزم الملكان على ابرامه (٣) ولكننا لا نعلم من شأن هذا الصلح إلا هذه الاشارة الواردة في الرسالتين.

ومن بين القضايا الملحة التي كانت عالقة بين الطرفين ، وكانت تطرح بالحاح كبير لا سيما من الجانب المسيحي ، قضية الأسرى المسيحيين في تلمسان الذي طالب سلطان " أرجون " في رسالته الى " أبي تاشفين " بتحريرهم جميعا ، وتسريحهم من تلمسان ٠

ومن المعلوم أن هؤلاء الاسرى الذين تحولوا الى عبيد كانوا يعدون بالآلاف كما تشير بعض المصادر التاريخية ٠ (٤) وكان كثير منهم صناعا يقومون بعدة حرف كالتجارة والبناء وغيرها ، ومن هنا ندرك السرّ في رفض " أبي تاشفين " لهذا الطلب في رسالته الجوابية الى سلطان أرجون " جاقمة الثاني " فبعد أن يخبره بوصول كتابه مع مبعوثيه ووقوفه على مقاصده التي ترمي الى مواصلة الود وتجديد ما كان بين الأسلاف من المودة والاعتقاد يخاطبه قائلا :

" ٠٠ وأمّا ما أشرتم اليه من تسريح من عندنا من الأسارى ، فذلك ما لا يمكن أن يكون ٠٠ لأن ما عمّر بلادنا إلا أُسارى ، واكثرهم صنّاع متفننون في أنواع جميع الصناعة ، ولو طلبتم ما يستغني عنه الحال في تسريح خمسة أو ستة لأسعفنا مطلبكم ، وقضينا اربكم ، وأما تسريح الجميع فصعب ، لأن ذلك يخلي المواضع ، ويعطل ما يحتاج اليه من أنواع الصنائع ٠٠" (٥)

---

(١) نشرت هذه الرسالة التي تحمل رقم 89 في :
Los documentos arabes diplomaticos del Archivo de la corana de aragon
انظـــــر :
Le Royaume Abdel.adideWadidee: A l'epoque d'abou hamou moussa 1^er et d'abou tachfin 1^er . Atallah dhina P: 222

(٢) المصدر نفسه ص 223
(٣) المصدر نفسه ص 224 ، وتحمل الرسالة رقم 90 ٠
(٤) بغية الرواد ، ج ١ ، ص ٢١٦
(٥) رسالة رقم ٩١
Los documentos arabes
انظـــر :
Le royaume abdelwadide a l'epoque d'abou hamou moussa 1^er et d'abou tachfin 1^er p.p : 226 - 227

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقدم اقتراحا بديلا عن الأسرى يتعلق بالتعاون في مجالات أخرى :

" فان أردتم أن تكون الصداقة بيننا وبينكم في ما عدا الأسارى ، وتكون حالنا وحالكم واحدا في مانحتاج اليه أو تحتاجون اليه من قضاء الحوائج التى تمكن ، ومن سرحة أو غيرها ، فنحن نعمل ان شاء الله على ذلك ، ونسلك في مودتكم وصداقتكم أنهج المسالك ، فاعلموا ذلك والله يسعدكم برضاه ، ويديم كرامتكم بتقواه ، والسلام على من اتبع الهدى والرحمة والبركة ." (١)

ومن هذه الرسائل ما وجهه السلطان " أبو تاشفين " الى " الفونس الرابع " ملك " أرجون " ويبدو من تلميحات بعض عباراتها أنها تتعلق بهدنة أو اتفاق تجارى بين البلدين وقد جاء فيها :

" أما بعد ، فانا نعرفكم أنه يصلكم الشيخ الفارس الأعزّ الاكرم الأفضل الكبير الشهير " أبو عمران موسى ابن الشيخ الأجل الاعزّ الأرفع الاكبر الاشهر " أبي عنان فارس بن حريز " صحبة أخيكم القائد الاكرم الأفخم " دون جاقما " ، وصحبتهما الشيخ الأجل المكرم الفاضل " أبو يعقوب يوسف المعروف بابن الحورة " وبأيدى المذكورين من الكتب ما تقفوا عليها ، وتتعرفوا ما عندنا منها ان شاء الله تعالى والله الموفق للصواب والمعين عليه ، والسلام على من اتبع الهدى ورحمة الله تعالى وبركاته ." (٢)

وحدد تاريخ المكاتبة باليوم الرابع من شهر رجب الفرد عام ٧٣٠ هـ .

وتجددت الرسائل بين " بني عبدالواد " وملوك " أرجون " في فترة حكم السلطان " أبي حمو الثاني " فقد وجه هذا الأخير الى سلطان " أرجون " عدة رسائل تتعرض لقضايا شتى ، منها رسالة بتاريخ ٤ ربيع الثانى سنة ٧٦١ هـ ، تتضمن قضية اعتداء القراصنة الأسبان على سفينة تجارية أندلسية كانت متجهه الى " وهران " ، ويقود هذا الحادث الى حديث السلطان عن قضية الصلح بين الامارتين ، والتفاوض حول عقده ، والرسالة طويلة الى حد ما نجتزىء منها بعض الفقرات . فبعد المقدمة التى جاءت مليئة بالألقاب والنعوت يخلص الى الموضوع قائلا :

---

(١) Le royaume abdelwadide a l'epoque d'abou hamou 1er et d'abou tachfine 1er p: 227

(٢) رسالة رقم ٩٢ Los documentos arabes

انظـــر : Le royaume abdelwadide , P: 230

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" .. والى هذا أرشدكم الله لأحسن المذاهب ، ووالّى لكم الخير المتتابع المتعاقب ، فأنا لم نزل نمنح من وصل من جهاتكم وانخرط في سلك طاعتكم من التجار المترددين وغيرهم من ذوى الحاجات أجمعين ونوسعهم احسانا وانعاما ، ونيّسر عليهم في جميع مطالبهم وجملة مآربهم اجمالا واكراما .. " (١)

ويقارن هذه المعاملة الطيبة للتجار المسيحيين من طرف بني عبد الواد بما اقترفه بعض القراصنة الأسبان ضد سفينة أندلسية :

" ومع هذا فقد عمدت طائفة من القطلانيين في أجفان معدّين الى مرسانا الشهير مرسى " وهران " المحروسة الكبير وحملوا منه على جهة العمد العدوان والجرأة والاقدام ، وهتكوا حرمة السلطنة وحق الاسلام جفنا موسوقا بالزرع وغيره لتجار أندلسيين كانوا أرادوا التوجه الى بلاد المسلمين واستولوا على الجفن بما فيه .." (٢)

وهذا الحادث قاد السلطان الزياني الى الحديث عن عقد صلح بين الامارتين للحيلولة دون تكرار مثل هذه الحوادث مستقبلا ، فيخبره بأنه أرسل اليه موفدا عنه للتحدث معه حول الصلح ومحاولة ابرامه ، والمفاوضة في عقده وأحكامه ، ويدعوه الى توجيه موفدين عنه الى تلمسان لابرام الصلح ، ويختتم رسالته بالدعاء مع ذكر تاريخ المكاتبة وهو عام ٧٦١ هـ . (٣)

ووجه السلطان " أبوحمو الثاني " رسالة جوابية الى سلطان " أرجون " دون بيدرو " بتاريخ ٢٣ صفر سنة ٧٦٤ هـ يخبره بما تمّ حول الصلح جاء فيها :

---

(١) رسالة رقم ١١١ Los documentos arabes les étas de l'occident musulman aux XIII , XIV et XV siecles . A tallah Dhina P: 518
Office de puplications universitaires ALGER. 1984

(٢) المصدر نفسه ، ص 518

(٣) المصدر نفسه ، ص 518

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" .. والى هذا أرشدكم الله لأحسن المذاهب ، ووالى لكم الخير المتتابع المتعاقب ، فانه وصل كتابكم وعقد الصلح الذى وجهتم الينا صحبة رسولكم الفارس الزعيم الأجد الانصح اليكم . وهو " فرنصيص قسطة " أكرمه الله بتقواه وأرشده وهداه . (١)

وتتعرض الرسالة الى قضايا اخرى منها ما تقدم به سلطان " أرجون " حول تقديم سلفة مالية من قبل " بني عبد الواد " ، فيخبره السلطان الزياني بموافقته على هذا الطلب " فمقامنا هذا والحمد لله كفيل ببلوغ امالكم وصلاح أحوالكم .. " (٢)

ومن بين القضايا الساخنة التى أثارتها الرسالة قضية الأسرى النصارى الذين تمّ أسرهم بالقرب من مرسى " هُنَيْن " : " وأما قضية النصارى الذين كانوا أخذوا في الأجفان وخرجوا بمرسانا " هُنَيْن " المحروسة حين وقع بهم الغلب ، ولجأوا الينا بذلك السبب ، وهرب منهم من هرب ، وتكرر منكم في شأنهم الكتب ، ولححتم في الطلب ، فحين جاءنا رسولكم الأول طالبا لهم خلّينا سبيلهم ، وسرحنا جميعهم على أن يتوجه رسولكم معهم فلما سرحناهم ورأوا أنّا صرفناهم ، وأخذنا لهم الخيل التى كنّا أعطيناهم أمتنع عن الجواز اكثرهم ، واختاروا الاقامة ، وطلبوا منا الخدمة المستدامة ، فانهم كانوا تحت رعى وكرامة برضى منهم وطيب نفس واختيار من غير ضرر تلحقهم في ذلك ولا أضرار ، فرددنا عليهم خيلهم ورجعناهم الى خدمتنا وأجرينا عليهم مرتباتهم وزنّاهم على عادتهم ، وأما الذين أرادوا الجواز منهم الى بلادهم فهم نحو الثلاثين أو ما يقرب من عددهم . ... " (٣)

وهنا يشير الكاتب الى بروز حادث جديد حال دون اطلاق سراح الأسرى المذكورين وأدّى الى تطور الأوضاع وتأزمها ، وهو ما وقع من اعتداء على المسلمين في مراسى هُنَيْن ، ووهران ، ومُسْتَغانَم " فلما جاءوا على الانفصال ، وأُخذوا في الرحال الا وبلغنا أن المسلمين من خدامنا وبلادنا أخذوا من

---

(١) رسالة رقم 113 les états de l'occident musulman. P: 519

(٢) المصدر نفسه ، ص 519

(٣) المصدر نفسه ، ص 519

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مراسينا هُنَيْن ووهران ومستغانم على جهة التعدى والقهر والغلب والمجاهرة بالفتنة والحرب بعدماكنتم انتم كتبتم برسم الصلح الذى به الينا وجهتم . أمسكنا نحن عن ذلك هؤلاء الذين أرادوا الجواز الى هنالك حتى تسرحوا أنتم اولئك المأخوذين وتضيقوا على أيدى المعتدين والمفسدين ، وتعاقبوا الظالمين فاذا سرحتم أُولئك نسرح (١) نحن هؤلاء لكم عملا بمقتضى رسم الصلح الذى أشهدتم على أنفسكم به والتزمتم العمل بحسبه ،، ووجهتم رسولكم " فرنصيص " بسببه .. " (٢)

ويختتم الرسالة مخبرا إيّاه برسم الصلح الذى تم الاتفاق عليه مجددا لمماذكره في شأن تبادل الأسرى بين الطرفين .

والجدير بالذكر أن الرسالتين السابقتين تحملان علامة السلطان الزياني وهي عبارة " صحّ في التاريخ " على خلاف الرسائل الموجهة من قبل السلطان " أبي تاشفين " السابقة . ولعل ذلك يؤكد ما ذهب اليه " ابن الأحمر " في " مستودع العلامة " من أن السلطان " أبا حمو الثاني " هو أول من اتخذ علامة من ملوك بني عبدالواد . (٣)

وأما الرسالة الثالثة فهو كتاب الصلح الذى تم التوصل اليه ، ونص الكاتب في بدايته على العهد :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

هذا كتاب صلح أسست قواعده ، وحملت مصادره وموارده وحَبَى بالنّجح والاسعاد ، والنظم الصالح للعباد منشئه وعاقده ، عقده بعد استخارة الله سبحانه واسترشاده واستعانته واستنجاده .." (٤)

---

(١) في المرجع السابق نسرحوا وهوخطأ والأصوب ما أثبتناه

(٢) Les états de L'occident musulman P: 519

(٣) " مستودع العلامة " ، ص ٢٤

(٤) رسالة رقم 114 انظر : Les états de L'occident musulman P: 520

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف الكاتب كلا من السلطانين المتعاقدين بما يليق من التبجيل ، فينكر نعوت السلطان الزياني والقابه ، ونعوت أبيه الى جده " يَغَمْراسَن " ، وهي نعوت كثيرة على خلاف سالفيه من ملوك هذه الأُسرة ، كما يثني على المكتوب اليه ، ويذكر ألقابه كاملة ، ويخلص الى المقصد فيتضح لنا أن العادة الجارية في كتب الصلح أو الهدنة انما كانت تكتب في نسختين مع وضع علامة السلطانين المتعاقدين بدليل أن منشيء الرسالة ذكر أن السلطان " أبا حمّو" وصله كتاب السلطان " دون بيدرو " المعلوم ، ورسم الصلح المختوم الذي عليه صورة شكله المتعاهدة المتعارفة في مثله الصادرة عنه المتكررة فيه على يد رسوله الفارس الزعيم " فرنصيص قوسطة " (١)

ثم يوضح مدة الهدنة وتاريخها بالسنة الهجرية ، والسنة الميلادية ، وما اشتملت عليه من الشروط وهي " أن تكون السلم بينه وبينه لخمسة أعوام متوالية أولها عام أربعة وستون وسبعمائة من شهر صفر من العام المذكور ، المؤرخ به هذا المسطور ، الموافق من الشهور العجمية لشهر ديجنبر عرفنا الله فيه البركة والخير على جميع ما لإِ يالته العلية ، وشملته دعوته السنية من البلاد حاضرها وباديها ، وثغورها ومواسطها وأطرافها حر س الله جميعها ، وعلى جميع ما للسلطان " دون بيدرو " المذكور أيضا ، حاضرها وسواحلها ، كثرها وقلّها ، لايتعدى أحدهما على أحد ، ولا أهل بلد على بلد في حالي الصدر والورد ، سلما محافظا عليها من الجهتين محفوظا عند الملتين ، ومن كلا الجانبين لا يلحق احدى الناحيتين من الأخرى مضرة في أمر ، ولا تعدّ في سرّ أو جهر ، البر والبحر في ذلك سيّان ،والمساترة فيهما بالأذى والمجاهرة ممنوعان ، لا غدر فيها ولا اخلال بمعنى من معانيها ولا تشن في مدة المصالحة المذكورة غارة ولا تذعر سيارة ، فان كان من جهة النصارى فعلى السلطان المذكور تسريح الأسرى ورد ما يأخذونه للمسلمين على جهة النّهب والسلب ، أو الأنصاف من القيمة ان عدمت العين وأعوزت على الطلب .. وعلى مولانا السلطان أعزه الله مثل ذلك سواء ، وأن يقابل بالوفاء وفاء ،هذا بعد أن يشيع الأمر ويعلم من أين كان الضرر ومن هو المتسبّب بالغدر أو الشر . وكل ما يرجع الى هذه الدعوة العلية ويدخل في طاعة هذه الايالة السنية بعد هذا العقد المحكم فداخل تحت هذه المصالحة والسلم .. " (٢)

---

(١) نفسه ، ص 520

(٢) نفسه ، ص 520

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير كتاب الصلح الى تأمين التجارة وتيسير السبل لتجار البلدين برا وبحرا،وحمايتهم من القرصنة والاذايـــة ٠

وتضمن الكتاب نوعا من الالتزام والوفاء بالشروط وعدم الاخلال بها أو محاولة التأويل في شيء منها ، لا سيما أن الكاتب تجنب في أسلوبه وكلماته ما من شأنه التأويل بذكر لفظ مشترك،أو معنى ملتبس،أو عبارة تفتح الطريق الى التأويل وهو ميزة هذا النوع من المكاتبات ، بل ميزة الرسائل السابقة كلها ٠

ويشير الكاتب الى تاريخ صدور الصلح أو الهدنة وهو يوم ٢٩ صفر من عام ٧٦٤هـ الموافق ل ١٨ " دجنبر " ، ولم يذكر السنة الميلادية ٠ كما تضمن الكتاب ملحقا يطلب من الجهتين توفير الحماية الى من يلجأ الى مراسيها من السفن التابعة للمملكتين اذا تعرض لها عدو في البحر قصد الاذاية والضرر، ويذكر الكاتب في النهاية أسماء الشهود،(١) وذلك حرصا من الطرفين المتعاقدين على تنفيذ مواد وشروط المعاهدة وما تنص عليه ٠

ومن الملاحظ أن الكتب الموجهة من بني عبدالواد الى ملوك " أرجون " كانت باللغة العربية ، وهذه الظاهرة قد حرص المسلون عليها في مكاتباتهم مع ملوك النصارى ، فقد عمل بها أيضا " بنو مرين " وبنو حفص وكذلك مماليك مصر والشام في مراسلاتهم الى ملوك "أرجون " ، وعامة الممالك المسيحية في أوروبا ٠ (٢) وكان يتولى ترجمة هذه الرسائل كتاب يعرفون العربية قراءة وكتابة ،وقد ذكر ذلك " ابن جبير " في رحلته (٣) أما رسائل ملوك "أرجون" الى تلمسان ، فأغلب الظن أنها كانت باللسان الفرنجي،ثم تترجم الى العربية من قبل كتاب لهم المام بهذا اللسان ، أو من قبل مستخدمين مسيحيين انقطعوا لخدمة البلاط الزياني ٠ وفي " صبح الأعشى " ما يؤكد هذه الظاهرة ، فقد أشار الى الكتب التي كانت ترد الى مصر من ملوك الفرنجة،فذكر أن العادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجي ، ثم يتولى ترجمتها من يوثق بهم من

---

(١) نفسه ، ص 520

(٢) " صبح الاعشى " جـ ٨ ، ص ص ٣٣ - ٣٨ ، ص ص : ٣٩ - ٤٢

(٣) رحلة ابن جبير " ص ٢٧٣ ، دار صادر ٠ بيروت ١٩٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخصاء الدولة ممن يعرف ذلك اللسان ، ثم تقرأ الترجمة على السلطان ، ويعتمد ما يأمر به في جوابه ليكتب به . (١)

ولهذا السبب أشار صاحب " صبح الاعشى " الى أهمية معرفة الكاتب بديوان الانشاء بمصر باللغات الاعجمية ، وهي لغة الكتب التي ترد عليه لملكه من الخارج وذلك حتى يفهمها ويجيب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها ان أمكن ذلك حفظا لسرّ ملكه وسلامة بلده .

ويقول القلقشندي : أن اللغة الفرنجية تعتبر من اللغات العجمية التي لها قلم يخصها وتكتب به ، وان كتب الفرنج كانت ترد بخطهم ولغتهم . (٢)

أما ما كان متبادلا من مكاتبات بين ملوك بني عبدالواد وغيرهم من ملوك الاسلام وأشهرهم ملوك مصر ، وملوك غرناطة ، فان مواضيع تلك المكاتبات كانت متنوعة ، فمنها ما كان يهتم بالصداقة بين الملوك والتودد اليهم ، ومن ذلك رسالة السلطان " أبي تاشفين الأول " الجوابية الى السلطان الناصر " محمد بن قلاوون " سلطان المماليك بمصر والشام وكتبت سنة ٧٢٥ هـ . ولم يذكر " القلقشندي " من تولى كتابتها ، ومن المرجح أن تكون من انشاء الكاتب القاضي " أبي عبدالله بن هدية القرشي " الذي كان منشىء الرسائل في عهد " أبي تاشفين الأول " وتعبر الرسالة في مجملها عن العلاقات الودية بين الملكين ، فهي مليئة بالعواطف السامية والالقاب الطّنّانة الرنانة التي جرت العادة في مثل هذه الرسائل على ايرادها .

فبعد حمده لله والصلاة على النبيّ الكريم ، وعلى آله والدعاء للسلطان المملوكي يقول : " سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، من أخيكم البرّ بكم ، الحريص على تصافيكم عبدالرحمن بن أبي موسى " يَغْمْراسَن " وانا كتبناه اليكم ، كتب الله لكم أنجح المقاصد وأرجحها وأثبتها عزا وأوضحها ، من حصن " تلمسان " حرسها الله تعالى ، ولا ناشىء بفضل الله تعالى الا ما عوّد من بشائر تحت جيادها ومسار يتطاول الى المزيد اعتيادها .. " (٣)

---

(١) " صبح الأعشى " ، جـ ٦ ، ص ص ٢١٣ - ٢١٦

(٢) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ص ١٦٥ - ١٦٧

(٣) المصدر نفسه "القلقشندي " جـ ٨ ، ص ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويخلص الى المقصد من الرسالة ، ونلمح من خلا لها بعض ماانطوت عليه رسالة الملك الناصر التى ضاعت ولم تصل الينا . ويبدو أنه يظهر وده "لأبي تاشفين" فيها ويأذن له في أداء فريضة الحج التى كان هذا الأخير فيما يبدو عازما على القيام بها :

" .. والى هذا أعلى الله كلمتكم ، وأمتع المسلمين بطول بقائكم فانا نعرفكم بوصول كتابكم الخطير الأثير ، فتلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم ، وتتبعنا فصوله وأصوله ، وتحققنا مقتضاه ومحصوله وعلمنا ما انطوى عليه من المنن والافضال ، واشتمل عليه من التفصيل والاجمال . ومن أعظم ذلك اذنكم لنا في أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر ، الشفيع في المحشر الذى وجبت له نبوته ومثنى الغيب عليه منسدل ، وآدم صلوات الله عليه في طينته منجدل . " (١)

وبعد توضيح مشاعره وأشواقه نحو تلك المشاهد المقدسة يبدى وده للملك الناصر وحبه له ، ويظهر نوعا من العتاب له لميله الى غيره :

" .. غير أن في قلوبنا شيئا من ميلكم الى غيرنا ، واستئناركم ، ونحن والحمدلله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف ، ولنا القدرة على القيام بواجبكم ، والوفاء بكريم حقكم ، وليس بيننا وبين بلادكم من يخشى والحمد لله من كيده ، ولا يبالى بهزله ولا جده .." (٢)

ولعل ما جاء في الفقرة يفيد انحياز السلطان " الناصر " الى السلطان " أبي الحسن المريني " الذى كان في عداء مستمر مع " أبي تاشفين " كما يوحى من جهة أخرى الى العلاقات المميزة بين " بني مرين " وسلطان المماليك بمصر ، التى كانت في تطور مستمر ، وكان السلطان الزياني لا ينظر اليها بعين الرضا والاطمئنان نظرا للتنافس القائم بين بني مرين وبني عبدالواد منذ أن قام لكل منهما كيان مستقل . والمنافسة هنا بمفهومها الواسع ، فهى تشمل التنافس في مجال الثقافة ، وفي مجال الهيمنة والتوسع ، بالاضافة الى التنافس على كسب ودّ الملوك وتأييدهم لا سيما اذا كان هؤلاء الملوك في حجم المماليك الذين كانت لهم دولة كبرى تضم الشام ومصر وكانوا

---

(١) " صبح الاعشى " القلقشندى ، جـ ٨ ، ص ٨٦

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشرفون على خدمة الحرمين الشريفين ٠

ولعل رسالة السلطان " أبي الحسن المريني " الى السلطان " الناصر " تكشف الى حد ما عن نوع هذه العلاقة بين بني مرين وسلطان المماليك ٠ وقد جاءت هذه الرسالة بعد انتصار السلطان " أبي الحسن " على بني عبد الواد ، واحتلال عاصمتهم ، و تقويض ملكهم ٠ (١)

أما الأغراض الأخرى التى طرقتها الرسائل الديوانية كالأوامر والتوجيهات ، والوصايا الادارية المختلفة ، التى كان الملوك يرسلونها الى ولاتهم وعمالهم وكتابهم في مختلف نواحي المملكة ، أو تلك التى تختصّ بالتولية والتعيين ، فانه لم يصل منها سوى رسالتين تعودان الى فترة حكم السلطان " أبي حمو الثاني " وقد خاطب بها " عبدالرحمن بن خلدون " -وهو يومئذ في بسكرة (٢) عند بني مزني (٣) معولا عليه في استئلاف قبائل " رياح " ليجلب بهم مع عساكره على أوطان " بجاية " وقد ذكر " ابن خلدون " ذلك في رحلته قائلا :

" ٠٠ وخاطبني (اى السلطان أبو حمو) لقرب عهدي باستتباعهم وملك زمامهم ، ورأى أن يعول علىّ في ذلك ، واستدعاني لحجابته وعلامته ، وكتب بخطه ما نصه :

" الحمد لله على ما أنعم ، والشكر لله على ما وهب ، ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون حفظه الله، على أنك تصل الى مقامنا الكريم لما اختصصتم به من الرتبة المنيعة والمنزلة الرفيعة ، وهو قلم خلافتنا والانتظام في سلك أوليائنا ، اعلمناكم بذلك ، وكتب بخط يده عبدالله المتوكل على الله موسى بن يوسف لطف الله به وخار به " (٤)

---

(١) كتبت هذه الرسالة في منصورة تلمسان ، بعد احتلال أبي الحسن المريني لتلمسان سنة ٧٣٧ هـ ، انظر : صبح الاعشى جـ ٨ ، ص ص ٨٩ - ٩٨

(٢) مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات ، وأهلها علماء على مذهب أهل المدينة ، وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل ، وتعرف ببسكرة النخيل " انظر : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٢٢

(٣) أسرة عربية حكمت بسكرة ، وهم من مزنة بن دنفل بن خليفة بن لطيف من عرب الأثبج انظر : العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٠٥

(٤) رحلة ابن خلدون " ص ١٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكتب أحد كتابه الى " عبدالرحمن " الرسالة التالية يوم السابع عشر من رجب سنة ٧٦٩ هـ:

" أكرمكم الله يافقيه أبازيد ، ووالى رعايتكم ، انا قد ثبت عندنا ، وصح لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا والانقطاع الى جنابنا ، والتشيع قديما وحديثا لنا ، مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليه أوصافكم ، ومعارف فقتم فيها نظراءكم ، ورسوخ قدم في الفنون العلمية والآداب العربية . وكانت خطة الحجابة ببابنا العلىّ -أسماه الله- أكبر درجات أمثالكم وأرفع الخطط لنظرائكم قربا منا واختصاصا بمقامنا ، واطلاعنا على خفايا أسرارنا آثرناكم بها ايثارا وقدمناكم لها اصطفاء واختيارا ، فاعملوا على الوصول الى بابنا العلى -أسماه الله- لما لكم فيه من التنويه ، والقدر النبيه حاجبا لعلى بابنا ومستودعا لأسرارنا ، وصاحب الكريمة علامتنا الى ما يشاكل ذلك من الانعام العميم والخير الجسيم ، والاعتناء والتكريم ، لا يشارككم مشارك في ذلك ، ولا يزاحمكم أحد وان وجد من أمثالكم . فاعلموه وعوّلوا عليه والله تعالى يتولاكم ويصل سراءكم ، ويوالى احتفاءكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " (١)

ويذكر ابن خلدون أن هاتين الرسالتين تأدّت اليه على يد سفير من وزراء السلطان جاء الى أشياخ الدواودة في هذا الغرض " فقمت له في ذلك أحسن مقام ، وشايعته أحسن مشايعة ، وحملتهم على اجابة داعي السلطان ، والبدار الى خدمته ، وانحرف كبراؤهم عن خدمة السلطان "أبي العباس " الى خدمته ، والاعتمال في مذاهبه ، واستقام غرضه من ذلك ، وكان أخي " يحيى " قد خلص من اعتقاله " ببونة " وقدم علىّ ببسكرة ، فبعثته الى السلطان " أبي حمو " كالنائب عنّى في الوظيفة متفاديا من تجشم أهوالها ، بما كنت نزعت عن غواية الرتب ، وطال علىّ اغفال العلم ، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك ، وبعثت الهمّة على المطالعة والتدريس ، فوصل اليه الأخ ، فاستكفى به في ذلك ، ودفعه اليه . " (٢)

وانطلاقا من النماذج السابقة يتضح أن أسلوب تلك الرسائل لا يسير على وتيرة واحدة . فالرسائل التى وجهت الى " ملوك أرجون " اتسمت غالبا بالايجاز ، والسهولة في الألفاظ والبساطة

---

(١) " رحلة ابن خلدون " ص ص ١٠٢ - ١٠٣

(٢) " رحلة ابن خلدون " ، ص ١٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في التعبير ، لأن الهدف منها هو توضيح موقف الدولة الزيانية من بعض القضايا التي كانت على بساط البحث بينها وبين هؤلاء الملوك ، وعلى هذا الاساس فقيمة الأسلوب فيها ليس في صوره البيانية ، وانما في استخدام الألفاظ في معانيها الحقيقية لا المجازية حتى لا تحتمل التأويل والتفسير ، وهذه الميزة نلاحظها خاصة في كتاب الهدنة بين " أبي حمو " وسلطان " أرجون " . وهذه الظاهرة يمكن أن نلاحظها كذلك في رسالتي " أبي حمو " الى " عبدالرحمن بن خلدون " .

أما ميزة رسالة الشكر التي وجهها أبو تاشفين الى سلطان مصر ، فالغالب عليها العناية بألفاظ المدح والثناء وعبارات التبجيل والتعظيم ، وهذه الميزة تنطبق على رسائل الشكر والتهنئة كلها ، ومن ذلك قول " ابن الخطيب " في شكر " أبي سعيد الزياني " على ما قدمه للأندلس من مساعدات :

" .. فأثنينا على قصدكم الذي لله أخلصتموه ، وبهذا العمل البرّ خصّصتموه ، وقلنا : لا ينكر الفضل على أهله ، وهذا برّ صدر عن محلّه ، فليست اعانة هذه البلاد الجهادية ببدع من مكارم جنابكم الرفيع ، ولا شاذة فيما أسدى على الأيام من حسن الصّنيع ، فقد علم الشاهد والغائب ، ما تقدم لسلفكم في هذه البلاد من الارفاق والارفاد .. " . (١)

ونجد ذلك أيضا في رسالة التهنئة التي وجهها " ابن الخطيب " الى السلطان " أبي سعيد " الزياني اثر استرجاعه لتلمسان من بني مرين ، (٢) ورسالة أبي الحسن المريني الى سلطان مصر . (٣)

أما رسم المكاتبات في الرسائل الديوانية السابقة ، فكان متشابها في الاطار المنهجي العام ، مع اختلاف جزئي في طريقة العرض ، وفي استعمال بعض المصطلحات الكتابية السائدة يومئذ ، فجاء رسم المكاتبات في تلك الرسائل على الشكل التالي :

- استهلت بعض الرسائل بذكر " الحضرة " مع دعاء يناسب الحال ، ويقع التخلص الى المقصد ، ويختتم بالدعاء المناسب من ذلك ما جاء في رسالة السلطان " أبي تاشفين الأول " الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

---

(١) صبح الاعشى ، جـ ٨ ، ص ٤٦

(٢) ريحانة الكتاب ، جـ ١ ، ص ٢٦٨

(٣) صبح الاعشى ، جـ ٨ ، ص ص ٨٩ - ٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الى الحضرة العالية ، السنية ، الماجدة ، المحسنة ، الفاضلة ، المؤيدة ، المظفرة، المنصورة ، المالكة ، حضرة السلطان ، الملك ، الجليل (١) .. ويؤتى بما يناسبه من الألقاب بعد ذلك . وهى في الرسالة ألقاب كثيرة كان سلاطين المماليك فيما يبدو يعتدون بها . وقد نعت الكاتب الحضرة المملوكية بلقب " العالية " وذلك أن ألقاب الحضرة درجات كما ذكر " القلقشندى " ، وتختلف باختلاف الممالك ، فألقاب صاحب " ايران " : الحضرة الشريفة ، العالية ، السلطانية .." (٢) ، وألقاب صاحب تونس " الحضرة العلية السنية .." ، (٣) وألقاب صاحب تلمسان ، وصاحب "فاس" كما وردت في مكاتباتهم " الحضرة العلية " مثل ألقاب صاحب تونس .

وبعد حمد الله ، والصلاة على النبي وآله ، يخلص الى المقصد بعبارة : والى هذا فى قوله " والى هذا أعلى الله كلمتكم ، وأمتع المسلمين بطول بقائكم ، فانا نعرفكم بوصول كتابكم .." (٤) ويختتم رسالته بالدعاء مستعملا الاستثناء بالمشيئة .

واستهلت بعض الرسائل باسم المكتوب اليه ، والرسم فيه أن يقال : الى فلان ، من ذلك ما جاء فى رسالة " أبي تاشفين " الى سلطان أرجون :

" الى الملك المعظم السلطان الأسعد الانجد الأضخم الأفخم الأعزّ الأشهر ، عماد أهل ملته ، الضابط لمملكته بجميل سياسته،ملك أرجون وبلنسية وسردانية ومرسية " جاقمة " سنّى الله توفيقه ، ونهج الى الرشاد والهدى طريقه،من مفخّم سلطانه ، ومرفّع محلّه على ملوك النصرانية وشانه . عبدالمقام العلي التاشفني السنّي أيده الله تعالى هلال بن عبدالله . سلام على من اتبع الهدى ورحمة الله تعالى وبركاته .. " (٥)

---

(١) صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٨٦
(٢) نفسه ، ج ٦ ، ص ١٢٩
(٣) نفسه ، ص ١٢٩
(٤) نفسه ، ج ٨ ص ٨٦
(٥) Le royaume abdelwadide P: 224

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد استعمل الكاتب ألقابا جرت الكتابة السلطانية عليها في مخاطبة ملوك الكفر مدة ، وأصبحت عرفا شائعا لا يمكن التخلص منه . وفي هذا الصدد يقول القلقشندي :

" .. ويؤتى لاهل الكفر من الملوك ونحوهم بما لا حرج فيه على الكاتب كالشجاعة ، وما في معناها . والتقدم على ملوك طائفته ، وأهل ملته وما في معنى ذلك ، فان اجتمع في شخص واحد أوصاف متعددة من الممادح جُمِعَت له ، على أن اكثرما يستعلمه الكتاب من الألقاب غير موجودة في صاحبها ، وانما هي ألقاب حفظوها لرتب معينة ، لا يسعهم الاخلال بشيء منها ، وان كانت كذبا محضا .." (١)

ونلاحظ كذلك أن صيغة السلام في الرسالة ، جاءت مخالفة لصيغتها في الرسائل الأخرى الموجهة الى ملوك الاسلام في المغرب أو في المشرق ، حيث اختار الكاتب صيغة تناسب مقامهم وهي " سلام على اتبع الهدى .." وهي صيغة قديمة تعود الى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث وردت في كتبه الى ملوك الفرس والروم والحبشة .(٢)

ويخلص الى الموضوع بعبارة " والى هذا " ، ويعرض المقصد كله ، ويختتم رسالته بالسلام كما بدأها بالصيغة السابقة نفسها ، غير أنها جاءت هذه المرّة معرّفة هي " والسلام على من اتبع الهدى " . ويوضح صاحب الصناعتين هذا الفرق قائلا : " وتقول في أول كتابك : سلام عليك وفي آخره والسلام عليك ، والحدّ فيه أن الأول نكرة اذ لم يتقدم له ذكر ، والثاني معرفة يشار به الى السلام . والأول على حد قوله تعالى " وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّا " . فسلام التحية يكون ابتداء فيكون نكرة ، وسلام الوداع يكون انتهاء فيكون معرفة لرجوعه الى الأول . " (٣)

وهذا الذي أشار اليه صاحب الصناعتين ، جاء في كل الرسائل التي ذكر فيها السلام .

وقد تفتتح المكاتبة باسم المكتوب عنه ، والرسم فيه أن يقال : من فلان الى فلان بألقابه ونعوته ، ونعوت آبائه ، ويأتي على المقصد ، ويختتم بالدعاء ثم السلام (٤) كما جاء في رسالة " أبي تاشفين " الى سلطان أرجون " جاقمة الثاني " :

---

(١) " صبح الاعشى " جـ ٦ ، ص ٩٦

(٢) " نفسه " ص ص ٣٧ - ٣٧٦ (٣) نفسه ، ص ٢٢٩

(٤) المصدر نفسه ، جـ ٧ ، ص ٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" من عبدالرحمن بن موسى بن عثمان بن يَغْمراسَن بن زيان ، أيّده الله أمره ، وأعزّ نصره ٠ الى الملك المعظم السلطان الأعز الانجد الأشهر الأضخم الأفخم الأرضى ، الكامل في أهله ، الأمضى في مملكته ملك أرجون ٠٠

ـ ويذكر رتبه كاملة ـ اكرمه الله بتقواه ، ووفقه وأرشده وهداه ٠ سلام على من اتبع الهدى ورحمة الله وبركاته " (١) ٠ ويخلص الى المقصد بالصيغة التالية : " ٠٠ وبمقتضى ذلك وجهنا اليكم ولدكم الزعيم الأنجد ٠٠ " (٢) ويختتم رسالته بالسلام ٠

وسار على هذا الأسلوب في رسالة أخرى ، الا أن التخلص الى المقصد في رسالته هذه جاء بعد عبارة " أما بعد " مباشرة :

" أمّا بعد ، فانا نعرفكم أنه يصلكم الشيخ الفارس الأعز الافضل ٠٠ " (٣)

ومن أمثلة الرسائل التى جاءت على هذا الأسلوب رسالة السلطان " أبي حمو الثاني " الى سلطان أرجون ٠ بدأ المكاتبة بذكر نسبه مع دعاء يناسب الحال ، ويذكر المكتوب اليه ويعته بما يليق من الألقاب :

" من عبدالله موسى أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين ابن الأمير أبي يعقوب " الى السلطان الأعز الأمنع ٠٠ ملك بني الافرنج سلطان أرجون ٠٠ " دن بيدرو" أسعده الله برضاه ، وأرشده الى سبيل هداه ، وأكرمه بتقواه ٠٠" (٤)

ويأتى على المقصد كله مختتما بالدعاء ، غير أن الرسالة خلت من السلام ٠ ونلاحظ في الرسائل الجوابية أنه كان يعبر في المقصد بما يدل على وصول الكتاب المرسل مثل استعمال ألفاظ ، وكلمات وصل ، أو ورد ، أو نحو ذلك (٥) مثل ما جاء في رسالة " أبي تاشفين " الجوابية الى سلطان

---

(١) Le royaume abdelwadide . P: 222

(٢) المصدر نفسه ، ص 222

(٣) المصدر نفسه ، ص 222

(٤) Les États de L'occident musulman P: 518

(٥) " صبح الاعشى " القلقشندى ، جـ ٧ ، ص ص ١٠٣ ـ ١٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أرجون " حول موضوع الأسرى يعلمه بوصول كتابه " ٠٠ وقد وصل كتابكم مع ارسالكم ٠٠ " (١) ، ويقول في أخرى :

" وموجبه اليكم أعلامكم بوصول كتابكم ، وعلمنا ما ذكرتم فيه ٠٠ " (٢) وفي رسالة "أبي حمو الثاني " الى سلطان أرجون " دن بيدرو" :

" والى هذا أرشدكم الله لأحسن المذاهب ، ووالى لكم الخير المتتابع المتعاقب فانه وصل كتابكم وعقد الصلح الذي وجهتم الينا صحبة رسولكم ٠٠ " (٣)

وكما جاء في رسالة " أبي الحسن " الجوابية الى سلطان مصر " ٠٠ فقد وصل كتابكم الأثير المزري بالمسك النشير ٠٠ " (٤)

هذا ويجمع المكاتبات السابقة طابع عام :

فالمخاطبة تقع للمكتوب اليه بميم الجمع مع الانفراد مثل قول أبي تاشفين " في مخاطبة الملك الناصر :

" سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، من أخيكم البر بكم ، الحريص على تصافيكم "(٥) كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنا الجمع مع الانفراد كقول أبي تاشفين أيضا :

" غير أن في قلوبنا شيئا من ميلكم الى غيرنا ٠٠ ونحن والحمد لله ٠ " (٦)

ـ كما أن الكتاب دأبوا على التزام الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم : كتبنا بأن يقال : كتبنا اليكم كتب الله لكم كذا ،، مثل ما جاء في احدى رسائل أبي تاشفين :

" ٠٠ فالكتاب اليكم كتب الله لكم أصلح الأعمال وأزكاها ٠٠ " (٧)

---

(١) Le royaume abdelwadide P: 226

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٠ 220

(٣) Les états de L'occident musulman P: 519

(٤) " صبح الاعشى " جـ ٨ ، ص ٨٩

(٥) المصدر نفسه ، ص ٨٦

(٦) المصدر نفسه ، ص ٨٦

(٧) Le royaume abdelwadide P: 222

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه السمة لا تختص بها الرسائل السابقة فحسب بل تفرّد بها كتاب المغرب عن كتاب المشرق حسب ما ذكر القلقشندى . (١)

هذا ما يتعلق بالكتب التى أصدرها ديوان الرسائل في تلمسان ، أما الرسائل التى تلقاها هذا الديوان فلا تخرج عن المنهج العام الذى سارت عليه الرسائل السابقة . وهذا نموذج من احدى رسائل ابن الخطيب على لسان سلطانه " أبي عبدالله محمد النصرى " الى سلطان تلمسان " أبي سعيد الزياني " عند بعثه بطعام الى الاندلس ، يشكره على ذلك ، ويخبره بفتح حصن من حصون الاندلس يسمى حصن قنيط .

وأما رسم المكاتبة فجاء على الشكل التا لى :

يستهل رسالته بذكر لفظ " المقام " ويذكر النعوت التى جرت عليها العادة ، ثم يقال محل أخينا أو ولينا ، ويذكر اسم المكتوب ويدعو له ، ومما جاء فيها :

" المقام الذى تحدثت بسعادته دولة أسلافه ، واتفق بها قوله من بعض اختلافه ، مقام ولينا في الله الذى هيّأ الله له من جميل صنعه أسبابا .. ، السلطان أبي سعيد عثمان بن الأمير أبي زيد بن الأمير أبي زكريا بن السلطان أبي يحيى يَغْمراسَن مع ذكر ألقاب كلٍ منهم بحسبه .. سلام كريم ورحمة الله تعالى وبركاته . " (٢) ويخلص الى المقصد قائلا :

" والى هذا - أيّد الله أمركم - فاننا ورد علينا فلان .. صادرا من جهتكم الرفيعة الجانب . السامية المراقب ، طلق اللسان بما خصّكم الله به من فضل الشمائل وكرم المذاهب ، محدثا عن بحر مكارمكم بالعجائب .. ووصل صحبته ما حملتم جفنةً من الطعام برسم اعانة هذه البلاد الاندلسية ، والامداد الذى افتتحتم به ديوان اعمالكم السنية ، وأعربتم به عمّا لكم في سبيل الله من خالص النية .. " (٣)

ويثنى على هذا القصد الجميل ، والعمل البر الجليل الذى يراه ليس ببدع من ملوك هذه الايالة الزيانية الذين كان لهم حظ موفور من المشاركة في الجهاد بالأندلس ، ويخبره بما أنعم الله على المسلمين من فتح حصن " قنيط " ، وهو من الحصون الشهيرة المعروفة ، والبقع المذكورة بالخصب

---

(١) " صبح الاعشى " ، جـ٧ ، ص ٣٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥

(٣) نفسه ، ص ٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموصوفة ، ودفع الله مضرته عن الاسلام وأهله ، ويسره بمعهود فضله .. " (١)

ويدعو للسلطان الزياني ويعبر عن امتنانه وعرفانه بالجميل ، ويختتم رسالته بالسلام . وقد سار ابن الخطيب في عدة رسائل له الى بني زيان على هذا الشكل من المكاتبة ، ويتجلى ذلك في رسالتي التهنئة التي وجهها الى كل من أبي سعيد (٢) ، وأبي حمو (٣) اثر استرجاعهما لتلمسان من يد بني مرين .

---

(١) نفسه ، ص ٤٦
(٢) ريحانة الكتاب جـ ٢ ، ص ص ١٥٦ - ١٥٧
(٣) نفسه ص ١٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - الرسائل الاخوانيـــــه

شارك الكثيرون من كتاب تلمسان وأدبائها في هذا اللون من الرسائل كما يستدلّ من بعض المصادر ، نذكر منهم "ابن خميس" و " ابن هدية القرشي " و " ابن مرزوق " و " يحيى بن خلـــــدون" و " محمد بن يوسف الشغرى " وغيرهم ، لكن المصادر لا تطلعنا في الغالب الا على تلك الرسائل التي وجهت اليهم من كتاب المغرب والاندلس، وبصورة خاصة من " لسان الدين بن الخطيـــب " الذى كانت تربطه ببعض هؤلاء صداقة ومودة وكان " للسان الدين " شأو بعيد في مجال الادب والابداع ، بل يمكن القول جملة انه كان القطب الذى يدور في فلكه كثير من أدباء المغرب لعهـده . ومن هنا آثرت أن أورد بعض رسائله، أو بالأحرى تلك التي لها علاقة وارتباط تاريخي وأدبـــي بموضوعنا لأنها تكشف عن مضامين بعض الرسائل الاخوانية لعدد من كتاب تلمسان ، فقـــــد ضاع معظمها ، ولم يكتب لبعضها الآخر الذيوع والانتشار ، ولذا فان الرسائل التي سنوردها ربمـــا تساعدنا على تبين ملامح النشاط الأدبي في تلمسان في القرن الثامن الهجـرى .

وأما مواضيع الرسائل الاخوانيه التي دبّجتها أقلام الكتاب . فتشتمل على الشكر والمدح والتهنئـة والشفاعة والتهادى وغيرها من الموضوعات المألوفة لدى الكتاب .

فمن هـذه الرسائل ما كان في التهادى والترحيب بقدوم صديق ، واظهار الود نحو ، ومن ذلك مـا وجهه " ابن مرزوق التلمساني " الى ابن الخطيب مرحبا بقدومه الى فاس ، وكان "ابن مرزوق " يومها خطيب الحضرة المرينية وأحد كتابها المبرزين . استهل " ابن مرزوق " رسالته بترحيـــب شعرى بصديقه ، مدحه فيه وحدثه عن تقدير السلطان " ابي عنان " له واعجابه به ، واخبـــــره بما سوف يناله من كريم المثوى وجزيل العطاء عنده ، ومما قاله في هذا الصـــدد :

يا قادمـــا وافي بكل نجـــــاح ... أبشر بما تلقـاه من أفـــراح

هذى ذرى ملك الملوك فلذ بها ... تنل المنى وتفز بكل ســماح

مغنى الامام ابي عنان يمـــــن ... تظفر ببحر في العلا طفـــاح (١)

وظاهرة توشيح الرسائل بالنظم ، وتضمينه فيها ظاهرة كانت معروفه في هذا العصر ، بل فـــــي عصور أدبيه سابقة . فهو تقليد أدبي عرفه المغرب والأندلس كما عرفه المشرق . (٢)

أعقب "ابن مرزوق" الأبيات الشعرية السابقة بالقطعة النثريـــة التاليـــة :

---

(١) نفح الطيـــب جـ٦ ، ص ٦٤

(٢) انظر "احكام صنعة الكلام" ابو القاسم الكلاعى، ص ٦٠ - ٦٢ ، تحقيق محمد رضوان الداية . بيروت ١٩٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الحمد لله ياسيدى ، وأخي على نعمه التى لا تحصى ، حمدا يوم به جميعنا المقصد الاسنى ، فيبلغ الأمد الأقصى فطالما كان معظم سيدى للأسى في حبال ، وللأسف بين اشتغال بال ، واشتغال بلبال ، ولقدومكم هذا المقام المولوى في ارتقاب ، ولمواعيدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب ، فها أنت تجتلي من هذا المقام العلي تشييعك وجوه المسّرات صباحا ، وتتلقّى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا بحول الله تعالى ، ولسيدى الفضل في قبول مركوبه الواصل اليه بسرجه ولجامه ، فهو من بعض ما لدى المعظم من احسان مولاه وانعامه ولعمرى لقد كان وافدا على سيدى في مستقره مع غيره فالحمد لله الذى يسّر في ايصاله على أفضل أحواله ..."

وقد جاءت الرسالة قصيرة موجزة ركّز فيها الكاتب على المطلوب من غير اطناب أو تفصيل ، وهي تحمل فكرة بسيطة تتعلق بترحيبه بصديقه في الحضرة المرينية والاشارة الى بعض هداياه اليه ، وفي جملتها جواد من عتاق الخيل بسرجه ولجامه .

وقد " رد " ابن الخطيب " برسالة افتتحها هو الآخر بأبيات جاءت على وزن أبيات ابن مرزوق ورويها مدح بها السلطان "أبا عنان " ومن هذه الأبيات :

راحت تذكرني كؤوس الراح ... والقرب يخفض للجنوح جناحي

وسرت تدلّ على القبول كأنما ... دلّ النسيم على انبلاج صباح

حسناء قد غنيت بحسن صفاتها ... عن دملج وقلادة ووشاح (١)

ثم خاطب " ابن مرزوق " نثرا ، مخبرا أياه بوصول كتابه ، مشيرا الى الافكار التي احتوتها رسالته ، ثم يبدى مشاعره نحوه . ويثني على السلطان المريني ، ويختتم رسالته بالسلام مع ذكر تاريخ المكاتبة وهي ليلة الأحد ٢٧ من ذى القعدة سنة ٧٥٥ هـ . (٢)

واذا كانت رسالة " ابن مرزوق " السابقة لا تمثل بالتأكيد أحسن نماذجه الاخوانية فلا شك أن التاريخ سجّل له رسائل أخرى الى جانب اشعاره ترتفع عن هذا المستوى ، فقد كان لكاتبنا مراسلات كثيرة مع " ابن الخطيب " تضمنت مواضيع مختلفة ولم تحتفظ المصادر منها الا برسائل " ابن الخطيب " (٣) ولذا يصعب على الباحث أن يصدر حكما على رسائله الاخوانية جملة أو على

(١) نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٦٥ (٢) نفسه ، ص ٦٥ (٣) انظر هذه المراسلات في المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ص ٦٤ - ٦٥ ، ص ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، ص ٣٨٧ ، ص ص ٣٨٨ - ٣٨٩ ، ص ص ٤٠٣ - ٤٠٥ ص ص ٤١٩ - ٤٢٧ وريحانة الكتاب ونجعة المنتاب " ابن الخطيب " جـ ٦ ، ص ص ١٤٤ - ١٤٩ ، ص ص ١٥٦ - ١٥٩ تحقيق محمد عبدالله عنان ط الاولى القاهرة ١٩٨٠، والاحاطة جـ ٣ ص ص ١١٨-١٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدرته في ميدان الترسّل من خلال هذا النموذج الوحيد الذى لا نملك غيره . فاصدار أيّ حكم يعتبر من قبيل المجازفة ولا يخلو من تعسّف . لكن من المؤكد ان الكاتب كانت له مكانة مهمة ، وكان باعه طويلا في الكتابة الفنية ، ولعل أصدق مثال على ذلك كتابه " المسند " في سيرة السلطان " أبي الحسن المريني " ، وقد حلّاه " ابن الخطيب " بكثير من النعوت العظيمة في الشعر والنثر على حد سواء (١) وهو حكم نقدي له قيمته ولا سيما أنه صدر من أديب كبير بحجم " ابن الخطيب " الذى كان ملء السمع والبصر في وقته .

ومن الشخصيات الأدبية التي كانت تربطها " بلسان الدين بن الخطيب " أواصر الصداقة الكاتب " يحيى بن خلدون " صاحب كتاب " بغية الرواد " . ولا شك أن " يحيى بن خلدون " قد استفاد كثيراً من احتكاكه " بلسان الدين " اثناء أقامته في فاس تلمسان ، ومن المحتمل أن يكون قد تأثر به في فن الترسل واتقان الكتابة الفنية . وقد احتفظت لنا بعض المصادر بمراسلة بينهما من أنشاء " ابن الخطيب "، هنأ فيها الكاتب المذكور حين تقلّد كتابة السرّ في تلمسان . وهي في الحقيقة رسالة جوابية عن كتاب كان بعث به اليه " يحيى بن خلدون " من تلمسان ، يدعوه فيه الى تجديد الود والمحبة بينهما ، ويطالبه بمواصلة المراسلة ويستفسر منه عن أحواله بالاندلس ، كما نطلع من خلال رسالة ابن الخطيب ، على أن " يحيى بن خلدون " قد طلب منه انتساخ ديوان ، ويبدو أنه ديوان شعر وهذا يدل على أن تلك الرسائل كانت مجالا أيضا للتباحث حول قضايا أدبية وفكرية الى جانب اهتمامها بشؤون الصداقة والاخوة .

يثني " ابن الخطيب " في مقدمة رسالته على صديقه ، ويدعوله ، ثم يخلص الى المقصد فيخبره بوصول كتابه ، ويبرز مشاعره الصادقة التي يكنها له ، ويمتدح فيها بلاغته وفصاحته ، ويعبر فيها عن اعجابه وتقديره لأدبه وبيانه الذى يراه طبعا وسليقة في أسرة آل خلدون . ومما جاء في هذا الصدد :

" ... وقد وصل كتابكم الذى فاتح بالرّيحان والروح ، وحلّ من مرسوم الولاء محلّ البسملة من اللوح ،

---

(١) الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ١٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وآذن لقوافح الثناء بالبوح ، يشهد عدله بأن البيان يا آل خلدون ، سكن مثواكم دار خلود ، وقدح زنداغير صلود ، واستأثر من محابركم السيّالة ، وقضب أقلامكم الميّادة والميّالة باب منجب وأمولود . (١)

والنص يعبر عن مكانة " ابن خلدون " الأدبية والثقافية ، تلك المكانة التي جعلته أهلا لاعتلاء منصب رفيع في بلاط " بني عبد الواد " هوكاتب سر السلطان " أبي حمو الثانمي " وكان شروعه في هذا المنصب فألا ويمنا على هتذه الدولة حسب تقدير " ابن الخطيب " كما تبين العبارة التالية : " ..فلله هو من قلم راعي نسب القنا ، فوصل الرحم ، وأنجد الوشيج والملتحم ، وساق بعصاه من البيان الذود المزدحم ، وأخاف من شذّ عن الطاعة مع الاستطاعة ... (٢)

ويلجأ " ابن الخطيب " الى الشعر ليزيد مدحه تبيانا ، فيركز على ابراز مكانته الأدبية التي يرجع لها الفضل الأول ، والأثر الكبير فيما تحقق " لبني عبد الواد " من انتصارات ادّت الى استتباب الأمن والطمأنينة في النفوس ، ولمّ الشمل بعد الانقسام ، ويرى أن ذلك معجزة تشبه معجزة موسى عليه السلام ، والفرق أن معجزة هي عصاه ، وأما معجزة " يحيى " فقلمه وبيانه (٣) ولعله يشير الى الدور الناجح الذى كلّل به مسعى " يحيى " عند قبيلة رياح ، التي حثّها على الوقوف بجانب " أبي حمو " ومؤازرته ضد خصومه في المناطق الشرقية في وقت بدا فيه ان حكم " أبي حمو " قارب حد التضعضع والانحلال وأوشك على الأفول . (٤) وهذا النجاح يعبر عن حسن تدبير " يحيى " ونفاذ بصيرته .

ولا ينسى " ابن الخطيب أن يجيب صديقه عن استفساره حول أحواله بالاندلس ، ويعتذر له عن عدم تمكنه من تلبية طلبه المتمثل في انتساخ ديوان بسبب بعض المشاغل والمهام السياسية في تلك المدة حيث كانت الحضرة النصرية منكبة على أمور الجهاد (٥) ويختتم رسالته بالدعاء غير أن الرسالة لاتحمل تاريخا ، ومن المرجّح انها كتبت سنة ٧٦٩ هـ وهي السنة التي تولّى فيها " يحيى بن خلدون "

---

(١) " نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٣٩٧ (٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩٧
(٣) نفسه ، ص ٣٩٨
(٤) انظر الدور الذى قام به يحيى لدى قبيلة رياح في : بغية الرواد " ج ٢ ، ص ص : ٢٠٠ - ٢٠٢
(٥) نفح الطيب ج ٦ ، ص ٣٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كتابة السرّ في تلمسان.(١) وكما خاطب " ابن الخطيب " يحيى بن خلدون " خاطب أيضا أخاه " عبدالرحمن " المؤرخ المشهور ، يتشوق اليه ، وكان يقيم يومئذ في " بسكرة " وتادى هذا الكتاب كما ذكر " ابن خلدون " الى تلمسان على يد سفراء ابن الاحمر ، ثم ارسل اليه من هنالك . (٢)

استهله بأبيات شعرية في التشوق ، وهو ما يعبر عنه نثرا أيضا في قوله :

" فاما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج ، وأما الصبر فاسأل به أية درج ، بعد ان تجاوز اللوى والمنعرج لكن الشدة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الأرج .. وفي الجسد بضعة يصلح اذا صلحت ، فكيف حاله ان رحلت عنه وان نزحت .. " (٣)

وبعد ان مدح حكام " بسكرة " من آل مزني الذين آوى اليهم " ابن خلدون " بعد نكبته في " بجاية " (٤) صور مشاعره وأحاسيسه التي يعاني منها نتيجة بعده وفراقه له ، وذكر الأيام الخوالي التي قضاها بقربه بالاندلس .

فأجابه " ابن خلدون " برسالة تفادى فيها من السجع كما قال خشية القصور عن مساجلة " ابن الخطيب " الذى لم يكن شأوه يلحق في هذا الجانب . وصوّر فيها شوقه ولهفته الى لقائه جاء فيها :

سيدى مجدا وعلوا ، وواحدى ذخرا مرجوا ومحلّ والدى برّا وحنوّا ، ما زال الشوق مذ نأت بي وبك الديار واستحكم بيننا بـ البعاد - يرعى سمعي انباءك ويخيّل اليّ من أيدى الرياح تناول سائلك حتي

---

(١) بغية الرواد جـ٢ص ص ٢٠٠ - ٢٠٢

(٢) رحلة ابن خلدون ، ص ١٠٤

(٣) نفسه ، ص ١٠٥

(٤) نفسه ، ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورد كتابك العزيز على استطلاع غير مضاع ، وودّ ذى اجناس وأنواع . فنشر بقلبي ميت السّلـــــو وحشر أنواع المسرات ، وقدح للقائك زناد الأمل ومن الله اسأل الامتاع بك قبل الفوت على ما يرضيك ويسني أمانيّ وأمانيك . (١)

وذكر ابن خلدون انه لمّا فرّ " ابن الخطيب " من الاندلس ، وقدم الى تلمسان كتب اليه يعرفه بخبره ويعتب عليه ماكان فيه بحقه حين مقامه بالاندلس .(٢) فاجابه " ابن خلدون " برسالة يؤكد فيـــها حبه ويدفع عن نفسه مظنة الفتور والوقيعة ، ويهنئه بنجاته (٣).

وكان "للسان الدين " مراسلات مع السلطان " أبي حمو الثاني " صاحب تلمسان ، فكثيرا ماكان يوجـــه اليه بالأمداح ، من ذلك هذه الرسالة التي جاءت أثر قصيدة مدحية حازت قصب السبق .

ويذكر " المقرى " ان " لسان الدين فعل ذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه ، فجعل هذه الرسالـــة مقدمة بين يدى نجواه ، لتمهد له مثواه ، وتحصل له المستقر اذا ألجأه الأمر الى المفر . (٤)

استهل " ابن الخطيب " رسالته بقصيدة طويلة أشرت اليها في غرض الـــمدح . أعقبها بنثر بديع بدأه بالثناء على قصيدته التي يرى أن كل ما احتوت عليه من مدح ، عبارة عن عنوان من كتاب ، وهـــو كناية عن علوّ مكانة " أبي حمو " وسموّ خصالة التي يراها الكاتب أبعد من أن يصفها القلم ، فهـــــي كالبحر الذى لا ينفد بالاغتراف (٥) وهي من المبالغات التي جرت عليها العادة في الشعر وفي النثر على حد سواء . ويرسم الكاتب لممدوحه صورة مثالية نموذجية كتلك الصورة التي رسمها الشعـــــراء لأنه يرى فيه المثل الأعلى الذى ينبغي أن يكون عليه السلطان أو الملك تجاه رعيته .

فان كان الملك اليوم علما يدرس وقوانين في قوة الحفظ تغرس وبضاعة برصد التجارب تحرس ، فأنتـم مالك دار هجرته المحسوبة ، وأصمعي شعوبه المنصوبة الى ما حزتم من أشتات الكمال المُرْبية علـــى الأمـــال ... (٦)

---

(١) رحلة ابن خلدون ص ١٢٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٠ بتصرف

(٣) انظر الرسالة في المصدر السابق ص ص ١٣٠ ـ ١٤٧

(٤) " نفح الطيب " جـ ٦ ، ص ١٩٥

(٥) نفســـه ، ص ٢٠٢ بتصرف

(٦) نفســـه ، ص ٢٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير الى نسبه العلوي ، والى خصال أخرى كالكرم ، وحسن التقوى ، والشجاعة وهي معاني وخصال طالما ردّدها الشعر عامة وشعر المدح خاصة ، واستهلكت منذ أمد بعيد ، كما نراه يشير الى شاعريته مضمنا قولا مأثورا لخدمة غرضه وذلك في قوله : " والشعر يغترف من عذب نمير ، ويصدق ما قال : بدىء بأمير وختم بأمير ٠٠" (١) اشارة الى امرىء القيس والى "أبي حمو" حسب رأى الكاتب ٠

ويذكّر الكاتب ممدوحه انه كان يرغب في الالتحاق بتلمسان لولا أن الظروف حالت دون تحقيق هذه الرغبة،وكل ذلك جعله مقدمة لخدمة فكرته الاساسية التي أنشأ الرسالة من أجلها،وهي امكانية الالتحاق بتلمسان مستقبلا اذا دعته الظروف الى ذلك ، وهو ما كشف عنه في نهاية الرسالة ٠

وكما كانت هذه الرسائل الاخوانية مناسبة لتبادل التهاني واظهار الشوق وغير ذلك ، فانها كانت مناسبة أيضا للتباحث حول قضايا فكرية وعلمية ، ولا غرابة في ذلك ، فان هؤلاء كانوا أدباء، وتناولهم لمثل هذه القضايا يعتبر من الأمور البديهية ٠

وقد حفظت لنا المصادر مراسلة بين " ابن الخطيب " و "الثغري" أوردها " المقرى " في النفح نقلا عن " ريحانة الكتاب " ٠ فقد وجه " الثغرى " على لسان سلطانه رسالة الى " ابن الخطيب "، يدور موضوعها فيما يبدو حول مسائل في التصوف ، ونستدل على ذلك من خلال بعض الاشارات التي وردت في رسالة " ابن الخطيب " ونستنتج مما سبق انه كان " للثغري " مكان في ميدان التوسل على الرغم من انه كان شاعرا محترفا بالبلاط الزياني ، ويعزز ذلك ما جاء من اطراء لاسلوبه في رسالة " ابن الخطيب " وما ذكره " المقرى " من أنه ناظم ناثر (٢) وما قاله " التنسي " " بأنه اديب متفنن (٣) وهما حكمان نقديان لهما قيمتهما في تقييم هذا الاديب في غياب أى أثر نثرى للكاتب يمكن به أن يحكم الباحث على هذا النثر ويقيمه ٠ ولا شك أن نثره لم يكن يخرج عن طبيعة عصره ومقاييسه الادبية بكل ايجابياتها وسلبياتها ٠

استهل "ابن الخطيب " رسالته بمدح الحضرة الزيانية وتغنّى فيها بجمالها وأبهتها ، لينتقل بعدها الى الثناء على رسالة " الثغرى " نثرا ، مبديا اعجابه بأسلوبه وبيانه الذى يراه كما

---

(١) نفح الطيب ، ج٦

(٢) نفح الطيب ج ٧ ، ص ١٢١

(٣) انظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ص ١٦٨ ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال : " شذاكما تنفست دارين ، وسطور رقم حللها التزيين ، وبيان قام على ابداعه البرهان المبين ونقس وشي بـــه طرس فجاء كأنه عيون العين ..." (١) ويدخل " ابن الخطيب " بعد ذلك الى المقصد فيخبره بوصول كتابه الذى يحمل في طياته مشاعر صادقة ، وأحاسيس نبيلة ، كما نراه يلمح الى بعض ما تضمنته رسالة " الثغرى من مسائل في التصوف ويتضح ذلك في قوله من أن تلـــك الرسالة تسلك المسالك القصية ، وأبعدت عن التطوف ، وجاءت تبتغي اسرار التصوف .. ومـ تـــى تقرن السبع الشدادبحانوتالحداد.." (٢) ونلتمس ذلك أيضا في قوله :

" .. والله تعالى يجعل المحب عند ظنّ من نظر بمرآته أو وصفه ببعض صفاته،وهي تزلق عن صفاتـــه فالتصوف أشرف ، وظلاله أورف من أن يناله كلف بباطل ، ومغرور بسراب ما طل ، لا . بربـــــاب هاطل ..." (٣) الى غيرها من الاشارات ، ولكننا نجهل طبيعة الموضوع الذى تناولته الرسالـــة بسبب لجوء " ابن الخطيب " الى التلميح والايجاز .

ومن اشهر الرسائل التي اصطبغـت بصبغة صوفية وفلسفيّة رسالة " ابن خميس " التي استهلهـا بقولـــه :

عجبـا لها أيـذوق طعـم وصالهـا ... من ليس يأمل ان يمرّ ببا لهـا

وانا الفقـير الى تعلة ساعـــة ... منهاوتُضعني زكـــاة جمالهـا (٤)

وقد اورد " ابن الخطيب " هذه الرسالة في الاحاطة من دون ان يتعرض للتعريف بها . كما انـــه لم يذكر مخاطب " ابن خميس " او الظروف التي كتبها فيها . وأما المقرى فلم يذكر من الرسالـــة الا قسمها الشعرى وأهمل مادتها النثرية معتذرا عن ذلك لطولها ، ولكون " ابن خميس " معرّى النزعة (٥) على حد تعبيره . غير ان القاضي (النباهي " أشار في تأليفه " المرقبة العليا فيمن يستحـــق القضاء والفتيا " الى ان " محمد بن هدية القرشي " قاضي تلمسان في عهد " ابي تاشفين الاول " شرح رسالة " ابن خميس التي استفتحها بقوله :

عجبا لها أيذوق طعـــم وصالها ... من ليس يأمل ان يمـــرّ ببالهـــا

---

(١) نفح الطيب جـ ٦ ، ص ٤٢٧ " ريحانة الكتاب جـ ٢ ، ص ١٤٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٣٠ " المصدر نفسه " ص ١٥٢

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٣٠ " المصدر نفسه " ص ١٥٢

(٤) الاحاطـه ، جـ ٣، ص ٢٥٩

(٥) ازهار الرياض جـ ٦ ، ص ١٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى آخر الرساله من نظم ونثر شرحا حسنا أتى فيه بفنون العلم وضروب المعرفة ما دل على براعته ، وكان جميل الاخلاق ، جمّ المشاركة ، مفيد المجالسة " كاتبا بليغا ينشيء الرسائل المطولة في المعاني الشاردة ، ذا حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ ..." (١)

وأما الرسالة فقد وجهها " ابن خميس حسب ماجاء في شرح " ابن هدية " المسمى " العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس " - وقد استطاع احد الباحثين في التاريخ الحصول على نسخة منه في احدى بيوتات العلم بوادي بجاية - الى " الفضل بن يحيى " مشرف مدينة فاس ، يمدحه فيها ، ويثني عليه ، شاكرا له وشاكيا له من عصابة اساءت اليه ." (٢) والظاهر انه كان يقصد فقهاء "فاس " الذين ناظروه ، وحكموا عليه بالزندقة ، وفي هذه المحاكمة يقول ابن هدية :

" فاتفق ان اجتمع في بعض محافلها ومجالسها العامرة بأهل الفضل ، الأهلة بطائفة من حذاق الاشعرية ، وجماعة من الفقهاء المالكية ، كالشريف " أبي البركات " وغيره من فقهاء ذلك القطر ، ففتحوا باب المذاكرة ، وسلكوا سبيل المناظرة ، وتفننوا في الكلام الى ان اخذوا في علم الكلام استدراجا " لابن خميس واستخراجا لخبء مذهبه الفلسفي الخسيس . " (٣)

وقد دافع " ابن خميس " عن آرائه ، وافحم خصومه بحجج قاطعة ، حتى لم يبق في المناظرة الا خصمه الذى نصب له الكمين ، وهو الشريف ابو البركات وفي ذلك يقول " ابن هدية " :

" فلم يلبث ان فاوضهم فيما عنده ، وكشف لهم معتقده ، فانبرى له الشريف " ابوالبركات " معارضا ولمذهبه السيء مناقضا ، وكثر القول بينهما ، وتخلّى القوم عنهما (اى الفقهاء الذين حضروا للمناظرة) .. فامتد مجال الجدال بينهما ، فلم يكن بأسرع من أن خاس " ابن خميس " وخاست الفلسفة ، وسكت مدحوض الحجة ، فلم ينطق بينت شفة ، ثم نظر في القول الصادر منه ، وما ينشأ من الحكم الشرعي عنه ، وخاف بوادر الكلام فادرع جلباب الظلام ، وفرّ فرار الآبق ، ولم يلو على مرافق ولا موافق ، ولم يلق عصا تسياره الا بتلمسان داره ... " (٤)

يستنتج الباحث مما سبق ، ومن مضمون الرسالة ان " ابن خميس " كان ينتصر للفلاسفة ، ويشيد

---

(١) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا " ابو الحسن النباهي ص ١٣٤ - ١٣٥ تحقيق لجنة احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٠

(٢) انظر مقالا بعنوان : " ابوعبدالله بن خميس التلمساني " المهدى البوعبدلي " ، مجلة الاصالة عدد ٥٠ ، ص ٢ ، السنة ١٩٧٧

(٣) نفسه ، ص ٣

(٤) نفسه ، ص ٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأساطينها واعلامها الذين كان يراهم المثل الأعلى لحرية الفكر مما كان يعتبره الفقهاء في وقته زندقة ، وكفرا صريحا ، وخروجا على تعاليم الاسلام الحنيف .

ولعل تأثر الكاتب ببعض الأفكار والاتجاهات الفلسفية ، والأخذ بتعاليمها هو الذى جعل فقهاء " تلمسان "وعلى رأسهم " ابن هدية القرشي " يتهمونه في دينه ، ويرمونه بالزندقة ، وربما كان ذلك من الأسباب التي جعلت " ابن خميس " يعيش في تلمسان منزويا منعزلا ومجهولا في الاوساط العلمية . وقد لاحظ " العبدرى " ذلك حينما زار " تلمسان " اذ قال انه " وجده في حال انزواء وتقلل من الدنيا " (١) ولعل ذلك ايضا من الأسباب التي أدت الى فراره من تلمسان الى سبته ثم الاندلس .

استهل "ابن خميس " رسالته او بالاحرى ملحقها النثرى بالثناء على قصيدته السابقة التي استفتح بها رسالته ، وما تحمل من افكار ومعارف جمّة ، ويبدو انه كان معجبا بها . تخلّل ذلك شيء من الدعاء للمكتوب اليه ثم رجا بأن يولي الممدوح تلك القصيدة مكانتها اللائقة بها ومما جاء في مستهلها :

" هذه أمتع الله ببقائك ، وأسعد بلقائك ، واراها بما تؤمله من شريف اعتنائك ، وترجوه من جميل احتفائك " كريمة الاحياء ، عقيلة الاموات والاحياء ، بنت الاذواء والاقيال ، ومقصورة الأسرة والحجال ، بل أسرة الاساوير والاحجال ..." (٢)

ويستغرق ثناؤه على قصيدته في هذا القسم سطورا عديدة ليتنقل بعدها الى الافتخار بنفسه وبأصله مستعملا اسلوبا اتّسم بالمبالغة والغلو ، ومن ذلك قوله :

"..فلو ساجلت بنبعها أباكرب ، وارته ضراعة خدّها الترب ، لساجلت به أخضر الجلدة في بيت العرب ، ما جدا يملأ الدلو الى عقد الكرب .. بل لوحظت بفناء بيتها الحجرى رحلها ، وتساجلت بفناء جدّها ذى رعين لاستوفت سجلها " (٣)

وفي العبارة ما يوحي انه يشير الى مناظرته لفقهاء" فاس " من خلال اكثاره من ترديد الفعل ساجل وفي تضمينه الكلام المأثور الذى يناسب مقام الفخر فقوله " لساجلت به أخضر الجلدة "العبارة"

---

(١) الرحلة المغربية ص ١٦

(٢) الاحاطة جـ ٢ ، ص ٥٥٧

(٣) نفسه ص ٥٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مضمن من قول " الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب (١) في البيتين التاليين مفتخـــــرا :

وانا الاخضـــــر من يعرفنـــــــــي اخضـر الجلدة في بيت العـــرب
من يساجلني يساجل مـــا جـــــــد ا يملأ الدّلو الى عقـــد الكـــرب (٢)

واما غرض الكاتب من وراء هذا التضمين ، فهو دعم فكرته الاساسية التي كان يسعى اليها ، وهـــــو التدليل على رفعته ، وعلو منزلته ، وكريم اصله ، حتى ينال منهم . وهو في هذا السياق تراه يشيد بأدبه وبعلمـــــه ، وينتصر للفلسفة من خلال اشارته الى بعض علومها ، وفي ذكره لعدد من أعلامها وأئمتها مثل سقراط وغيره . فمن هذه الاشارات ما جاء في قوله :

" وتحت هذه الأستار محذرات أسرار اضرّ بها الأسرار ، وطالما نكر معارفها الانكار ، ونقلت من صدور اولئك الصدور ، الى بطون هذه الاوراق في ظهور فوق دفاتر فلسفيات معاني علومهم الرقاق " . (٣)

ويتضح من بعض الفاظ هذا النص مثل محذرات أسرار ، ونكر معارفها الانكار ان ارباب الفلسفـــــة والمشتغلين بها كانوا محاصرين في هذه الفترة ومضايقين من قبل الفقهاء ، يدعم ذلك ما يذكـــــره " ابن هدية " في تعقيبه على الفقرة السابقة من " ان الفلسفة عند اهل السنة وكافة الاشعرية هـــي الزندقة البحتة والضلالة المحضة " . (٤) ويستشهد برأي الغزالي في تقسيمه لعلومها واصنـــــاف اربابها الذين يرجعهم الى ثلاثة اقسام " على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم ، وتشعب طرقهـــــم وهم : الدهريـــون ، والطبيعيـــون ، والالهيـــون ، وكلهم زنادقـــة كفّار ، لعائن الله تتـــرى عليهم . (٥)

وهذا يوضح لنا سطوة الفقهاء الذين كان لهم نفوذ واسع وتأثير كبير في الاوساط العامة والخاصـــــة .

وتبرز ثقافة " ابن خميس " الصوفية في عدة مواضع من الرسالة . من ذلك ما جاء في النص التالـــي الذى استخدم فيه حوارا داخليـــا :

" ايه أيها الشمرى المشمعل ، دعنـا من حديثك المضمحل ، سر بنا أيهـا الفارس النّـــــد س

---

(١) الفضل بن العباس بن عتبة بي ابي لهب من قريش ، شاعر من فصحاء بني هاشم ، كان معاصرا للفرزدق ، والاحوص ، وله معهما اخبار ، توفي سنة ٩٥هـ . انظر " نسب قريش " ص ٩٠ ، ابوعبدالله المصعب بن عبدالله الزبيرى . نشر ليفي بروفنسال .

سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون " ابن نباته المصرى ، من ص ٣٤٣ - ٣٤٦ تحقيق :محمد ابوالفضل ١٩٦٤

(٢) نسب قريش ص ٩٠ ، سرح العيون ، ص ٣٤٣ (٣) الاحاطة جـ ٢ ، ص ص ٥٥٩ - ٥٦٠

(٤) انظر مجلة الاصالة ، عدد ٥٠ ، ص ٥ (٥) نفســـه ، ص ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من خظيرة النفس الى حضرة القدس ، صرّح باطلاق الجمال ، وجل من عالميتك الملكوتية في افسح مجال ، تمشّى بين مقاصر قصورها ، ومعاصر خمورها زخيّ البال ، مرخيّ السربال ، فما ينسح لك على منـــوال ." (١)

فنلاحظ عددا من المصطلحات الصوفيه مثل النفس ، والحضرة ، والجمال ، والملكوت ، والتـــي تحمل معاني ودلالات خاصة عند الصوفية ، كما نجد كلمات عادة ما تستخدم في ميدان الغزل ووصـــف الخمر مثل جمال ، ومعاصر الخمور ، والدنّ ، لكن الكاتب لا يقصد ظاهر معناها . فهذه الكلمـــات وما تحمل من الدلالات التي تعودنا استعمالها عند شعراء الغزل قد استعارها " ابن خميس " ليعبر بها عن أفكاره وفلسفته الصوفيّة بطريق الرمـــز والايحاء، شأنه في ذلك شأن بقية الصوفية . وينسج الكاتب على هذا المنوال لينتقل بعد ذلك الى تصوير انطباعاته عن فقهاء " فاس " الذين نصبوا له كمينا ليستدرجوه ، وحكموا عليه بما هو معروف :

" افحمتني والله عن مكالمتكم هذه المحن ، ومنعتني من طلب مسالمتكم ، مالكم عليّ في دنياكـــم هذه من الاحـــن ، ان تكلمت كلمت ، واذا استعجمت عجمت ، أما لهذه العلّة آس . أم على هـــذه الفيلة مواس ، ما حيلتي في طبع بلدكم الجاسي . أما يلين لضغفي . اما يرق قلب زمانكـــم القاســـي . " (٢)

ففي مخاطبته هذه ندرك درجة معاناته من سطوة خصومه عليه ، ونلاحظ ذلك في نوعية الكلمات التـــي وظفها ، ومن خلال الحوار الذى أداره . وزاد من تعميقه لهذا الاحساس لجوؤه الى اسلوب الاستفهام الانكاري،ويلجأ بعد ذلك الى فضح ممارساتهم، فيورد حديثا نبويا شريفا للنيل منهم ، وللتدليل على سوء تربيتهم .

" ما هذه الدّمن يابنـي خضراوات الدمن ، اظهرتم المحن ، فقلب لكم ظهـر المجـن،ان مرّ بكـــم الوليّ حمقتموه ، وان زجركم العالم فجرتم عليه ففسّقتموه،واذا نجم فيكم الحكيم غصصتم به . فكفرتمـوه وزندقتموه ." (٣) فانتقد ناقديه وتنقّص علمهم ، وشنع عليهم ، وعراهم من صحة الفهـــم والادب وكأنه في سياق هذا التعريض بهم يريد ان ينفي ما اتهموه به من مروق وزندقة ليدلل على قلـة علمهم وسوء فهمهم . ويسرد ممارساتهم وما أحدثوه من بدع ما انزل الله بها من سلطان ، غير انـــه

---

(١) الاحاطة جـ ٢ ، ص ٥٦٠

(٢) المصدر نفسه ص ٥٦١

(٣) " الاحاطـة جـ ٢ ، ص ٥٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يفصح عنها ، ويكتفي بالتلميح والاشارة :

" ضيعتم النص والشرائع ، وأظهرتم في بدعكم العجائب والبدائع ، نفاقتم التفاف ، وأقمتم سوق الفسوق على ساق . استصغرتم الكبائر ، وأبحتم الصغائر ، أين غنيكم الشاكر ، يتفقد فقيركم الصابر ، أين عالمكم الماهر ، يرشد متعلمكم الحائر . مات العلم بموت العلماء ، وحكم الجهل بقطع دابر الحكماء . " (١)

ويدعو خصومه في الختام الى الرجوع الى جادة الصواب والحكمة الحسنة ، لكنه يستدرك ويرى ان ذلك غير مجد مع قوم ركبوا طريق الضلال والفساد واللجوء الى القوة هو السبيل الوحيد لارجاعهم الى رشدهم ، وابعادهم عن غيهم . وهذه الفكرة اشار اليها " ابن خميس " ايضا في ختام قصيدته التي استهل بها رسالته والتي ينصح فيها " أبا الفضل بن يحيى " أن يعامل بموجبها فقهاء فاس حيث يقول :

اغلظ على من عاث من أنذالها واخشع لمن تلقاه من ابدالها (٢)

وعلى الرغم من أن " ابن خميس " وجه هذه الرسالة الى صديق ، وحاول فيها ابراز مشاعره نحوه وما يكنه له من محبة وتقدير واخلاص ، كما جرت العادة عليه بين الاصدقاء والخلان ، الا أننا نلاحظ أن الكاتب يكاد أن ينسى مخاطبه باستثناء بعض المواقف القليلة ، وهو راجع الى أن تركيزه كان منصبا على تسليط الضوء على قضية مهمة ، تتعلق بمناظرته لفقهاء فاس ، والرد على هؤلاء الخصوم المتهمين له .

وأما من جهة الاسلوب ، فقد اكثر الكاتب من المحسنات البديعية التي أثقلت كاهل الرسالة مما جعلها تؤثر على المعاني وتطغى عليها . كما نلاحظ اهتمامه بالاسلوب القصصي من خلال استخدامه للسرد والحوار في بعض المواقف . ويلجأ الى اسلوب التهكم والسخرية حينما كان يعرض بخصومه .

وقد تضمنت النماذج المقدمة شيئا من ذلك ، ويظهر من خلال الرسالة أن الكاتب يكثر من الاشارة الى الاحداث التاريخية في الجاهلية والاسلام وذكر أسماء الأماكن والمواقع في الجزيرة العربية (٣) كما لجأ الى الامثال والحكم . ولا سيما حينما كان يعرض فخره بنفسه وبمعارفه (٤) مما يتبىء عن المام واطلاع بالتاريخ العربي الاسلامي .

---

(١) الاحاطة ج ٢ ، ص ٥٦١
(٢) نفسه ، ص ٥٥٦
(٣) انظر المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ص ٥٥٧ـ ٥٥٩
(٤) نفسه ، ص ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الظاهرة كثيراً ما نجدها في شعره (١) كما نراه يلجأ الى الاغراب في اللفظ وفي المعنى وهو مذهب عرف به في شعره أيضا ، وكان مولعا به ، وقد اشار الى ذلك كل من ابن خاتمة ، وابن الخطيب والعبدري وغيرهم ، وكان لهذا الاتجاه تأثيره على اسلوب الرسالة مما جعلها تتسم بالغموض في كثير من اجزائها .

أما ثقافته الصوفية والفلسفية ، فتبرز في كثير من الاماكن من الرسالة ، فكان يصرح بها أحيانا ويلمح اليها احيانا اخرى .

ومهما يكن من امر فان هذا النص النثري يعطينا صورة عن نثر " ابن خميس " الذي يمثل سمات العصر ، من التزام الصنعة والاساليب البديعة . غير ان " ابن خميس " عرف بالشعر واشتهر به اكثر من اشتهاره بالنثر ، وقد عبر " ابن الخطيب " عن ذلك قبل عرضه لهذه الرساله في قوله : " ان هذا الرجل مغرب النزعة في شغوف شعره على نثره (٢) وذكر " ابن دقيق العيد" لما وصلت اليه هذه الرسالة ان " ابن خميس " معرّى النزعة ، وهو شيء أشرت اليه .

وقد تتجه بعض الرسائل الاخوانية الى الاهتمام بالامور اليومية ، وما يتعلق بها من شؤون خاصة مثل رسالة " ابن حكم السلوى " (٣) الى المقرى الجد ، وقد أورد المقرى الحفيد هذه الرسالة ضمن فصل خصّصه لذكر فوائد جدّه فذكر مناسبتها على لسان جده قائلا :

« كان الاستاذ ابن حكم قد بعث اليّ بمحرر لأبعث به الى من يعرضه للبيع ، ثمّ بلغه ان احمالا من المتاع التونسي قد وصلت الى البلد ، فكتب اليّ :

" الحمد لله الذي امر عند كلّ مسجد بأخذ الزينة وصلواته الطيبة ، وبركاته الصيبة على من ختم به شريعته ، واكمل دينه ، وعلى آله واصحابه الذين اتبعوه ، والذين يتبعونه . وبعد فمما تعلق به الأعلام ، أن تعوضوا المحرر بأحرام ، لا يخفي على مثلكم جنسه ومجانسه ، وفي كلام العرب كل ثوب ولابسه ، وان أربى على ثمن الأول ، ثمن الثاني ، فلست عن الزيادة والحمد لله بالواني . " (٤)

---

(١) انظر قصيدته البائية في الزهد : الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ص ٥٤٢ - ٥٤٥ وانظر خائيته في نفح الطيب جـ ٥ ، ص ص ٣٧٢ - ٣٧٦ (٢) نفسه ، ص ٥٥٦ (٣) ابراهيم بن حكم السلوى ، ابو اسحاق ، ورد تلمسان بعد العشرين الى ان قتل بها أثناء احتلالها من قبل بني مرين سنة ٧٣٧ هـ انظر اخباره في نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ص ٢٢٤ - ٢٣٠ (٤) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٢٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والرسالة قصيرة موجزة ، ركّز الكاتب فيها على المطلوب ، وهي لا تعدّ نموذجا للرسائل الاخوانية في " تلمسان " فصاحبها وان كان ذا مكانة في الادب واللغة الا ان المصادر لم تثبت أنه كان من المترسلين البارزين في تلمسان ٠

جـ - الرسائل النبوية :

وهي الرسائل التي كانت ترسل مع ركب الحجاج الى قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد أوضح المقرى أهمية هذا النوع من الرسائل قائلا :

" هذا مقام طالما طمحت اليه همم الرجال ، وتسابقت جياد أفكارهم في مضماره بالروية والارتجال ، وسارت أرواحهم مع الرفاق ، وان أقامت الاشباح ، وطارت قلوبهم بالأشواق ، ولم لاوهم سوق تعظم فيه الرباح ٠ " (١) فهذه الرسائل تصور نفسية كتابها الذين لم تسعفهم الظروف لزيارة الحرم المكي ، والقبر النبوى ، وتصف ما يكابدونه من شوق وحنين الى تحقيق تلك الأمنية التي حرموا ٠

والجدير بالذكر أن هذا اللون الادبي شاع لدى المغاربة والأندلسيين لبعد بلادهم ، ونزوح أقطارهم كما علّل ذلك " القلقشندى " (٢) ولم يورد اى نموذج في هذا المجال لغير المغاربة ٠ بيد أنه لم يصلنا من هذا النوع أيّ نموذج مما خطكتاب تلمسان باستثناء اشارة واحدة وردت في " واسطة السلوك " ساقها أبو حمو في معرض حديثه عن قصيدة نبوية أرسلها الى البقاع المقدسة مصحوبة برسالة رجاء للثواب وتيسيرا للأسباب ٠ (٣)

---

(١) أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٠ تحقيق سعيد أحمد عراب ، حمد بن تاويت ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي ٠

(٢) صبح الاعشى ، ج ٦ ، ص ٤٦٩

(٣) واسطة السلوك ، ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القسم الثانـــــى : الادب السيـــاســـي

ظهرت فى تلمسان فى هذا القرن عدة مؤلفات أدبية وتاريخية وسياسية أشهرها " واسطـــة السلوك " لأبى حمو و " بغية الرواد " لأبى زكريا ابن خلدون ، و " المسند " لابن مـــرزوق و " زهر البستان " لمؤلف مجهول وغيرها من المؤلفات التى لم تصل الى أيدينا .

١. واسطة السلوك فى سياسة الملوك " لأبي حمو موسى الثاني :

أوضح أبو حمو فى مقدمة كتابه أنه ضمن كتابه " وصايا حكمية وسياسة عملية علمية ممـــا تختصّ به الملوك ، وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك " (١)

فهو - كما توضح العبارة - من نوع كتب نصائح الملوك كتلك التى ظهرت فى العصر العباسي ومـا بعد مثل " سيرة الملوك " و " كليلة و دمنة " و " الأدب الصغير " و " الأدب الكبير " لابـن المقفع ، ومثل كتاب " التاج فى أخلاق الملوك " للجاحظ ، وكتاب الاحكام السلطانيـــة للماوردى (٢) و " سراج الملوك " للطرطوشي (٣) رسلوان المطاع " لابن ظفر الصقلـــي (٤) و " الشهب اللامعة " لابن رضوان المالقي معاصر أبي حمو وغيرها من الكتب السياسية الا ان مـا يميز كتاب " واسطة السلوك " عن الكتب السياسية " أن النصائح الواردة فيه ليست موجهـــة الى الملك من طرف الحكماء والكتاب كما هى العادة ، وانما هى صادرة عن أحد الملوك وموجهـــة الى وليّ العهد والى غيره من الأمراء والملوك .

ولذا فان " أباحمو " طرق موضوعه من زاوية خاصة تختلف عما عهد عند غيره ممن كتبوا فى هـــذا المجال . (٥)

---

(١) " واسطة السلوك " ص ٣

(٢) علي بن محمد بن حبيب ، أبو الحسن الماوردى ، قاض توفى سنة ٤٥٠هـ " انظر : شذرات الذهب " جـ ٣ ، ص ٢٨٥ ، " وفيات الاعيان " ، جـ ١ ، ص ٣٢٦

(٣) محمد بن الوليد محمد بن خلف القرشي الفهرى الأندلسى ، أبو بكر الطرطوشي ، توفى سنة ٥٢٠هـ ، انظر : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٦٨

(٤) محمد بن عبدالله أبي محمد بن محمد بن ظفر ، الصقلي، أبوعبدالله ، أديب رحالة مفسر ، توفى سنة ٥٦٥هـ " أنظر : وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٥٢٢

(٥) انظر : " أبوحمو موسى الزياني : حياته وآثاره " ص ١٩٠ بتصرف عبدالحميد حاجيات ، الجزائر ١٩٧٤ ، وانظر كذلك : النظرية السياسية لأبي حمو الزياني الثاني ومكانتها بين النظريـــات السياسية المعاصرة لها " د : وداد القاضى . الاصالة ، عدد ٢٧ ، ص ٤٥ ، السنة ١٩٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعرض " أبو حمو " لبناء كتابه ومنهجه في مقدمة تأليفه قائلا :

" ورتبناه ترتيبا ، وبوبناه تبويبا ، وجعلناه على أربعة أبواب :

الباب الاول : في قواعد الملك والوصايا والآداب والحكم المرشدة الى طرق الصواب

الباب الثاني : في قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك اليه في قوام سلطانه

الباب الثالث : في الأوصاف التي هي نظام الملك وكماله وبهجته

الباب الرابع : في الفراسة وهي خاتمة السياسة . فهذه عدة الأبواب " (١)

أما الباب الأول ففيه أربع صفات أو نصائح عامة يدعو المؤلف ولي عهده أن يراعيها ، ويلتزم بها ليضمن النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة . يستهلها بالحديث عن العدل الذي يراه الضمان الاكبر لدوام الملكة ، والأساس الذي يقوم عليه الملك كله : " اعلم يا بنيّ أن العدل سراج الدولة ، فلا تطف سراج العدل بريح الظلم ، فان ريح الظلم اذا عصفت قصفت ، وريح العدل اذا هبّت ربت ، ومن شروط الامارة العدل في الأحكام ، والرفق بالأنام ، والتجنب عن الحرام .. " (٢)

ويدعو ولي عهده أن يغلب عقله على هواه ، ويحضه على ملازمة التقوى ، وطاعة الله وذكره ، وحسن التسليم له وفعل الخير والعفة وعدم الاغترار بالدنيا أو الاستسلام للذاتها وشهواتها : " فالعقل راحة النفس ، فاجعل عقلك راحة نفسك ، وجالب أنسك ، واجعل العقل ميزان رأيك ، والفكر مرآة عقلك ، واعلم أن الدنيا منقلبة فلا تغترّ بغرورها ولا تطمئن لسرورها ، ولا تفرح لها اذا أقبلت ولا تحزن عليها اذا أدبرت .. " (٣)

ـ ويدعوه الى حفظ المال لأنه من الذخائر الفاخرة التي يحفظ بها الملك قوته . فهو الوسيلة التي بها يتوصل الملك الى أغراضه مع صديقه وعدوه زمن السلم وزمن الحرب ، لأن المال به " تدفع العدا وحصن يتقى به من الردى . به تدفع آلام الأعراض ، ويتوصل الى المقاصد والأغراض . (٤)

ـ ويدعوه الى حفظ الجيوش والأجناد لأن الجيش " أبهة الخلافة وحصن منيع من المخافة ، وهم سيوف الارهاب ، وحماة الطعن والضراب ، فمن كثرت أجناده ، عمرت بلاده ، وهابه أعداؤه وحساده . ومن كثر جيشه ، قلّ خوفه وطاب عيشه ... " (٥)

---

(١) واسطة السلوك ، ص ٤ (٢) نفسه ، ص ٤ (٣) نفسه ، ص ٧

(٤) واسطة السلوك ، ص ٩ (٥) نفسه ، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما الباب الثاني فيشتمل على أهم أقسام الكتاب ، وهي أربعة قواعد لحفظ الملك وهي : العقل والسياسة والعدل والاعتناء بجمع المال والجيش .

وفضيلة العقل من الفضائل التي يرى المؤلف ضرورة وجودها في الملك ، لذا يلجأ في مطلع الفصل الى مدح العقل ، ويستشهد على فضله بأحاديث نبوية وأقوال للصحابة والتابعين (١) ويقرر أن بالعقل تكتسب الفضائل وتجتنب الرذائل ، وبه يجمع بين الدنيا والآخرة (٢) ويقسم الملوك بحسب العقل الى اربعة أقسام :

ملك له عقل يصلح به دنياه وأخراه ، وعلامته هو أن يكون عقله فيما بينه وبين الله عز وجلّ حسن السريرة ، وأن يكون مع رعيته حسن السيرة ، مؤثرا عقله على هواه ، محبا لرعيته ما يحبه لنفسه ، وهذا العقل اذا توفر في الملك ، يبقى ذكره بعد أن يموت ، ومثاله بين خلفاء المسلمين عمر بن عبدالعزيز . (٣)

وملك له عقل يصلح به أخراه دون دنياه ، فهذا عقله ناقص ينصرف بالعبادة والزهادة ، ويهمل أمر رعيته ودولته ، ويفرط في الجيش والمال اللذين بهما صلاح دنياه وأخراه ، فتسود الفوضى في دياره مما يؤدي الى خراب ملكه ، وتعجيل ملكه لعدم اكتراثه بأمور رعيته وأتباعه . (٤)

وأما الملك الثالث فله عقل يصلح به دنياه دون أخراه ، وهذا عقله غير تام تصلح به دنياه دون آخرته ، فعقله يقوده الى حسن السياسة مع الرعية يعاملها " بما يجذب به نفوسهم ، ويوجب ألفتهم وتأنيسهم ، ويصلح أمورهم ، ويحوط خاصتهم وجمهورهم .. " (٥) وهذا يرجى له دوام دولته وبقاء مملكته الا أنه يضيع أمر آخرته ، ومثاله ملوك الفرس من العجم ، وأبو جعفر المنصور من المسلمين - حسب رأيه - فانهم أقاموا سياسات عظيمة ، لكنهم أضاعوا في نهاية الأمر أخراهم . (٦)

---

(١) " واسطة السلوك " ص ص ٢١ - ٢٢
(٢) نفسه ، ص ٢٣ بتصرف
(٣) نفسه ، ص ص ٢٣ - ٢٤ بتصرف
(٤) نفسه ، ص ص ٢٥ - ٢٦ بتصرف
(٥) نفسه ، ص ٢٧
(٦) نفسه ، ص ص ٢٧ - ٢٩ بتصرف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واما الملك الرابع فانه يسىء الى الدين والرعية وينصرف الى الملذات ، فلا يلبث الناس أن يزيلوه عن ملكه قهرا ، ومثاله بين خلفاء المسلمين " الوليد بن يزيد " و " الأمين بن الرشيد "(١) وقد نصح " أبو حمو الملك أن يكون فى عقله مثل الملك الأول ، حتى ينال الآخرة الى جانب الدنيا .

وعلى الملك أن يتدبر فى اختيار الأعوان كالوزراء والكتاب والقضاة وغيرهم ويشترط المؤلف أن تتوافر فيمن يحتل مثل هذه المناصب صفات حتى تسلم دولته وملكه ، ويستمر سلطانه .

فأما الوزير فيشغل الحديث عنه أكبر قدرمن المكان بين سائر موظفي الدولة . ويرى أبو حمو أن على الملك أن يختار " وزيرا كبيرا ، مهذبا خطيرا ، بالأمور بصيرا " (٣) وأن تتوافر فيه ثمانية خصال منها : أن يكون من خيار قومه وعشيرته ، ويكون وافر العقل حتى يحافظ على سر الملك ، ويكون حاضر الذهن سريع الفهم ، ويكون صالحا شجاعا فى المهمات وعند نزول الملمات . (٤)

ويحتل كاتب السر منصبا من أهم مناصب الدولة ، ومرتبته تأتى ثانية بعد الوزير لذلك يشترط فيه المؤلف جملة شروط ، منها : أن يكون من ذوي البيوتا والأحساب ، فصيح اللسان ، بليغ البيان ، عارفا بالاداب ، سالكا طريق الصواب .

أما كاتب الأشغال ، فيجب أن يكون مقتدرا فى الحسابات ، وأن يكون " ذا ثقة وأمانة وعفة وصيانة وصلاح وديانة . " (٥)

وعلى الملك أن يختار لدولته فقيها عالما نبيها موسوما بالصلاح . سالكا طرق الرشاد والفلاح .. ليبين له ما أشكل عليه من الاحكام ، وما يأتيه من الحلال ، ويدعه من الحرام ، وأن يعظه وينكره بأحوال الاخرة . (٦)

---

(١) نفسه ، ص ص ٢٩ - ٣١ بتصرف
(٢) نفسه ، ص ٣٢
(٣) نفسه ، ص ص ٣٢ - ٣٣ بتصرف
(٤) نفسه ، ص ٦١
(٥) نفسه ، ص ٦١ بتصرف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينبغي أن يختار قاضي الحضرة من بين الفقهاء ، أفضلهم في متانة الدين، وأرغبهم في مصالح المسلمين ، ويشترط فيه أن يكون عادلا شجاعا في قول الحق لا يرتشي ، ويساوي بين الشريف والمشروف والقوي والضعيف في أحكامه . (١)

ويشترط في وظيفة العامل رجلا عارفا بجباية الخراج ، ويكون ذا حزم وكفاية ، ودربة ودراية وضبط وأمانة ، وفضل وديانة حتى لا يضيع اعمال الملك المخزنية ، ولا يضرّ في ذلك الرعية . (٢)

وأما الجيش فقد سمى أقسامه ، وحدد المطلوب من كل فئة فيه ، فجاء تركيب الجيش على الشكل التالي :

يعتبر أبوحمو قواد الجيش من أهمّ المفاتيح للملك في الجيش ، ويجب أن يكونوا من أفضل جنده كفاية ، وحزما وبسالة ومعرفة ودراية ، وممن لا يميلون الى الرعية بمضرة أو أذى . (٣)

وأما القسم الأول من الجيش فجعله : خاصة الملك ، وهم يتألفون من وجوه القبائل الذين يستخلصهم الملك لنفسه ، معتمدا في اختيارهم أن يكونوا بخاصة محبين له . (٤)

والثاني قبيل الملك ، وعليه أن يرضيهم لمكانهم من القرابة منه ، فيقدم الأشياخ على الجموع ، ويجعل على كل جماعة منهم شيخا من كبارهم وأعيانهم ، على أن يكون كل واحد من هؤلاء الأشياخ من بين اكثر قبيله محبة له ورعية في خدمته ، واستعدادا لتحريض جماعته على طاعته . (٥)

والقسم الثالث هم حماة الملك وأنصاره . وهؤلاء يظلّون محيطين بالملك لا يفارقونه ليلا ولا نهارا، ويجب على الملك أن يختارهم من أصحاب الشبات في الشدائد ، ومن أكثر الناس موالاة له واستعدادا لنصرته في حال الحاجة . (٦)

والقسم الرابع هم مماليك الملك ، ويتألفون من الأعلاج والنصارى والأغزاز والوصفان ، ودور هؤلاء هو قمع كل عصيان ، ويجب أن يكونوا أهل شدة وبأس ، لا يفارقون الملك طرفة عين . (٧)

---

(١) نفسه ، ص ص ٦١ - ٦٢ بتصرف
(٢) نفسه ، ص ٧٢ بتصرف
(٣) نفسه ، ص ص ٧٨ بتصرف
(٤) نفسه ، ص ص ٧٨ - ٧٩ بتصرف
(٥) نفسه ، ص ٧٩ بتصرف
(٦) نفسه ، ص ص ٧٩ - ٨٠ بتصرف
(٧) نفسه ص ص ٨٠ - ٨١ بتصرف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويطالب أبو حمو الملك أن يعتني بجمع المال والجيوش لأن كل واحد منهما متوقف على ما حبه فلا مال الا بجيش ، ولا جيش الا بمال غير أن أباحمو ينصح الملك أن يجمع المال والجيش بقدر ما تسمح به أيالته من البلاد وما له من الاقاليم والأعداد . (١)

وينبغي أن يكون له جيش بقدر ما يكفيه من المال ، ولهذا ينصح المؤلف الملك أن يقيم نوعا من التوازن في الاهتمام بين الجيش والمال ، فلا يفرط في الجيش مقابل الاشتغال بجمع المال ، ولا يجمع الجيش ويفرط في المال . وأما اذا فرط الملك في الجيش والمال معا فان ذلك يقوده الى التهلكة . (٢)

وأما الباب الثالث من واسطة السلوك ، فيتضمن أربع صفات حميدة جعلها المؤلف أساسا يستقيم بها الملك ، وهي الشجاعة والكرم والحلم والعفو .

فأما الشجاعة فان أباحمو مدحها بشدة في مقدمة الفصل الذي خصصه لها قائلا :

" انها وصف محمود وبها يتفاخر الوجود " ، (٣) وجعلها مقترنة بالكرم ، متجافية عن البخل " واعلم بأن الشجاعة والكرم اخوان ، كما أن الجبن والبخل اخوان ، ودليلهما أن الشجاع يجود بنفسه ، فأحرى أن يجود بماله ، والبخيل يبخل بماله ، فكيف يجود بنفسه في حاله؟ " .(٤)

وأما الكرم والحلم والعفو فتختلف نظرة " أبي حمو " اليها عن النظرة المعتادة لدى كتاب السياسة من المسلمين ، فهو يرى ان اقامة العدل في استعمالها شرط أساسي ، لكونها مستحبة أو مستهجنة لدى الملك . (٥)

فاذا كان الكرم بالنسبة اليه محمودا ، والبخل مذموما ، فان الملك الذي يكون كريما على رعيته دون نفسه وأهل بيته أيضا مذموم ، كذلك الملك الذي يكون كريما على نفسه وأهل بيته دون رعيته ، ولا يحسن كرم الملك الا اذا كان الملك عادلا في توزيعه بين نفسه وأهل بيته ورعيته ، متوسطا غير

---

(١) نفسه ، ص ١٢١ (٢) نفسه ، صص ١٢٧ - ١٢٩
(٣) نفسه ، ص ١٢٩ (٤) نفسه ، ص ١٢٩
(٥) النظرية السياسية لابي حمو الزياني ، الاصالة ، ص ٥٤ بتصرف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مسرف ولا مفرط في الانفاق في دربه . (١)

ـ وموقف أبي حمو من الحلم يشبه موقفه من الكرم ، فهو يعترف بأنه من الصفات الحميدة لكنه يرى أن الحلم لا يكون صحيحا الا اذا طبقه الملك على رعيته وخاصته " لأن من العدل المساواة في الاحكام بين الخاص والعام " . (٢)

ـ والعفو أيضا في نظر " أبي حمو " من الصفات المحمودة المطلوب توافرها لدى الملك في معاملته للرعية ، لكن اذا كان موجها الى من لا يستحق العفو فهو مذموم . (٣)

وهكذا نصح أبو حمو بالتحلي بالفضائل الدينية والدنيوية ، وحضّ على الالتزام بفضيلتي الدين والدنيا : العقل والعدل ، ومايلحق بهما من فضائل هي الشجاعة والكرم والعفو . فاذا اتبع الملك هذه الفضائل والصفات ، نجح سعيه ودام ملكه . (٤)

وأما الباب الرابع من " واسطة السلوك " فخصصه " أبو حمو " للفراسة :

والفراسة بتعريف أبي حمو " قوة نفسانية وأسرار ربانية ، يؤيد الله بها النفوس حتى ينقلب بها المعدوم كالمحسوس " (٥) فهي الملكة التي بهايستطيع الملك أن ينفذ الى خفايا النفوس وخفاياها ، فيدرك حقيقة ما يعتمل فيها صافيا من دون كدر . وذكر في هذا الباب الاشخاص الذين يجدربالملك ان يختبرهم بالفراسة والامور التي يمكن أن يستدل على حقيقتهم منها .

فالملك ينبغي أن يتفرس في وزيره فيعرف اذا كان كامل العقل أو ناقصه واذا كان ناصحا له صادقا معه ، مفضلا لخدمته على شكران ذاته والعمل لمصلحته . (٦)

---

(١) واسطة السلوك ، ص ص ١٣٦ ـ ١٣٧
(٢) نفسه ، ص ١٣٨
(٣) نفسه ، ص ١٤٠
(٤) النظرية السياسية لأبي حمو الزياني ، الاصالة ، ص ٥٥
(٥) واسطة السلوك ، ص ١٤١
(٦) نفسه ، ص ص ١٤٢ ـ ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي كاتب سره ليتأكدهما اذا كان قائما بالحق ، حافظا لسره (١) وفي قضائه ، فيعلم مدى تكالبهم على القضاء وميلهم الى الذرية والفساد، ومدى قبولهم للرشا ، وتسامحهم في الأحكام (٢) ، وأما الجيش ، فيجب أن يتفرس اهتماماتهم أيام السلم ، هل في الزينة واللهو أم بالتفاخر بالخيل والعدة وآلة الحرب والنجدة . (٣)

كذلك يجب على الملك أن يتفرس في الولاة ، وينظر الى ظلمهم للرعية ومدى قبولهم للرشا (٤) وكذلك الحال مع كاتب الاشغال (٥) وصاحب الحسبة . (٦)

أما الارسال (السفراء) ، فان اعمال الفراسة فيهم من أهمّ الأمور لسلامة مهمتهم ، ولا يرسل أحدا منهم الا بعد أن ينجح في الاختبار . وعلى الملك أن يتفرس فيه بعد الرجوع ليدرك مدى ولائه له ، وحرصه عليه ، وليكشف ما اذا كان عدوه قد استماله اليه وأغراه بالمال وغيره . (٧) وكذلك عليه أن يتفرس في ارسال الملوك الواردة عليه (٨) وفي كتبهم اليه . (٩)

وقد عرض أبو حمو طرائق عديدة يمكن للملك بواسطتها أن ينجح في الوصول الى حقيقة الرجل الذي يتفرس فيه ، وأبرزها :

أن يتفرس في كلام الرجل ، وفي حركاته ، وفي أساريره ، وفي تصرفاته ، وكذلك يستطيع أن يصل الى حقائق الناس عن طريق نصب الاشراك لهم اختبارا وغيرها .

وينهي أبو حمو كتابه بتوجيه بعض النصائح الى ولي عهده يدعوه الى التحلي بمكارم الأخلاق . والى مساعدة المسلمين بالأندلس ، كما يدعوه الى احياء ليالي المولد النبوي الشريف .

---

(١) نفسه ، ص ص ١٤٦ ـ ١٤٨
(٢) نفسه ، ص ص ١٤٨ ـ ١٤٩
(٣) نفسه ، ص ص ١٥٠ ـ ١٥١
(٤) نفسه ، ص ص ١٥١ ـ ١٥٢
(٥) نفسه ، ص ١٥١
(٦) نفسه ، ص ١٥٣
(٧) نفسه، ص ص ١٥٣ ـ ١٥٧
(٨) نفسه ، ص ص ١٥٧ ـ ١٦١
(٩) نفسه ، ص ص ١٦١ ـ ١٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كانت الموضوعات السابقة التي ضمنها " أبوحمو" كتابة موضوعات مطروقة كثيرا في كتب السياسة فان الناظر في " واسطة السلوك " يرى أن " أباحمو" عالجها معالجة جديدة مخالفة لمعالجة كتاب السياسة المسلمين وغيرهم لها . ويتجلى ذلك بخاصة في الأبواب الاخلاقية ، فانها لا تظل أبوابا أخلاقية وعظية صرفا ، وانما تلبس لباسا فلسفيا . (١)

فالشجاعة تقسم الى أربعة أقسام : الشجاعة التي يصحبها الرأي ، والشجاعة التي لا يصحبها العقل ولا الرأي . (٢) والكرم يكون أيضا على أربعة أنوّاع في الملوك ، فمنهم من يكون كريما كرما متوسطا ، ومنهم من يكرم على رعيته دون نفسه وأهل بيته ، ومنهم من يكرم على نفسه وأهل بيته دون رعيته ، ومنهم لا يكرم لا على رعيته ولا على أهل بيته . (٣) وكذلك الحال بالنسبة للحلم والعفو وغير ذلك أيضا .

ومن جهة أخرى فان " أباحمو " لا يكتفي بايراد الأُمثلة والاخبار التاريخية القديمة التي توردها المصادر كتلك التي ترجع الى ملوك الفرس وأخبار الخلفاء الراشدين وأمراء بني أمية وبني العباس ، بل يخالف كتاب السياسة السابقين بلجوئه في كثير من الأحيان الى ايراد أمثلة قريبة من عصرة حتى تكون عبرة يجب أن يعتبر السياسي أو الملك بها . مثال ذلك : حديثه عن المعركة التي انهزم فيها " أبوالحسن المريني " بالأندلس سنة ٧٤١ هـ . (٤) وحديثه عن " أبي تاشفين الأول" واخفاقه في رد " بني مرين " عن احتلال بلاده ، لأنه فرط في الجيش وعني بجمع المال (٥) وغير ذلك . كما يصف الوقائع التي شاهدها بنفسه ، مثل حركته الموفقة من تونس الى تلمسان طلبا لسلطانه مخاطرا في ذلك بنفسه ، (٦) ومثل تفرسه في " عبدالله بن عمر " وزير ملك المغرب ورسوله اليه سنة ٧٦١ هـ (٧) .

---

(١) النظرية السياسية للسلطان " أبي حمو موسى الزياني " انظر الاصالة ، عدد ٢٧ ، ص ٤٤
(٢) واسطة السلوك " ص ص ١٢٩ - ١٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ص ١٣٦ - ١٣٧
(٤) المصدر نفسه ، ص ص ١٣٢ - ١٣٣
(٥) المصدر نفسه ، ص ص ١٣٥ - ١٣٦
(٦) المصدر نفسه ، ص ص ١٣ - ١٥
(٧) المصدر نفسه ، ص ص ١٥٨ - ١٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما نراه أحيانا يبدى رأيه الشخصي في أثناء سرده لبعض الحوادث كما جاء في الباب الثاني عندما تحدث عن الملك الذى له عقل يصلح به دنياه دون أخراه فذكر أباجعفر المنصور الذى ير أنه " أصلح دنياه ، واتبع في خلافته هواه ، ولم يعتبر في اكثر أموره أخراه " (١) وكحديثه عن عبدالملك بن مروان وتوليته الحجاج بن يوسف على العراق الذى أدى الى ظلم كبير فيقول :

" فمن دهائه (يقصد عبدالملك) ، أن العامة تنسب الظلم الى الحجاج لا اليه ، وأما الخاصة فلا تردّ اللوم الا عليه ، وما سفك الحجاج من الدماء في الحقيقة الا على يديه وكذلك حصار مكة ، وهدم الكعبة ، فالحجاج سيئة من سيئات عبدالملك " (٢)

وهذا يدل على حسن استيعاب " أبي حمو " للمواقف والآراء التى يتحدث عنها ، فأبوحمو أذن نقل في كتابه من المصادر في السياسة وغيرها عند العرب ، الا أن هذه المصادر لم تستبعده ، بل كان هو الذى يطوع مادتها بحسب حاجته اليها .

---

(١) واسطة السلوك ، ص ٢٧

(٢) نفسه ، ص ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القسم الثالث : الأدب التاريخـــــي :

اتجه بعض الكتاب في كتاباتهم اتجاها تأريخيا ، واختاروا في كتاباتهم تلك أسلوبا فنيا يعنـــى بالتّأنق في العبارة وتجويد الاسلوب ، أوجمعوا بين التارخ والادب . ومن أشهر الكتب التي نحت هذا المنحى والاتجاه في هذا القرن نذكر : " بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد " لابي زكريا يحيى بن خلدون .

طرق المؤلف في كتابه -كما يدل عليه عنوانه -موضوعا يتعلق بتاريخ دولة بني عبدالواد من نشأتها الـــى عصره ، فذكر في المقدمة أنه ألّف هذا الكتاب بأمر من السلطان أبي حمو الثاني لغرض تخليد أمجـــاد ملوك هذه الدولة عامة وعهد أبي حموخاصة . (١) وسار المؤلف في بناء كتابه ومنهجه على ثلاثـــة أقسام : أمّا القسم الأول فيشتمل على ثلاثة أبواب :

يخصص الباب الأول لذكر " محل اعتمار بني عبد الواد من الأرض " فيتعرض بالوصف الى البلاد التي شملتها مملكتهم ، مستدلا على فضل هذه البلاد في الاسلام بأحاديث ورد فيها ذكر المغرب ومـــا - يرجى من أهمية الدور الذي يلعبه في نصرة الاسلام ، معتمدا في ذلك على بعض المحدثـــين المشهورين كمسلم (٢) والدراقطني (٣) وبقيّ بن مخلد (٤) لتأييد الرواية التي ساقها . (٥)

---

(١) بغية الرواد ، جـ١ ، ص ٧٩

(٢) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، أبو الحسن . حافظ من ائمة الحديث ، أشهر كتبه صحيح مسلم ، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة في الحديث ، توفـــي سنة ٢٦١ هـ " انظر : تاريخ بغداد ، جـ ١٣، ص ١٠٠ ، مصر ١٩٣١

(٣) علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ، ابو الحسن الدار قطني الشافعي ، توفي سنة ٣٨٥ هـ ، امام عصره في الحديث ، وأول من صنّف القراءات وعقد لها ابوابا " انظر : تاريخ بغداد جـ ١٢ ، ص ٣٤ ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٣٣١

(٤) بقي بن مخلد بن يزيد ، أبو عبدالرحمن الاندلسي القرطبي ، حافظ مفسر محقق من أهل الاندلس توفي سنة ٢٧٦ هـ " انظر : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٥٨٩

(٥) بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ص ٨٤ - ٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينتقل الى وصف تلمسان وموقعها الطبيعي معتمدا في ذلك على بعض الجغرافيين مثل البكري وغيره ٠ ويورد في هذا السياق بعض القصائد الشعرية في وصفها ٠ (١) ويعدد من أنجبته تلمسان ، واستقر بها من العلماء والصالحين مذ حوالي القرن الخامس الهجري ٠ (٢) وينهي هذا الباب بفصل عن تاريخ تلمسان ومن تملكها من لدن الفتح ٠ ويبدي الكاتب اهتماما بدولة الادارسة أجداد بني عبدالواد حسب رأي المؤلف ورأي من عاصره من علماء البلاط الزياني ٠ (٣)

ويخصص الباب الثاني للتعريف بجنس قبيل عبدالواد وفضله ، فتعرض الى أصل البربر ومنتمى زناتة منهم (٤) مستعرضا في هذا المجال آراء النسابة والمؤرخين العرب من أمثال السهيلي (٥) والمسعودي (٦) والطبري (٧) ومالك بن المرحل (٨) وغيرهم ٠

ويذهب في هذا السياق الى اثبات صحة انتساب بني عبدالواد الى الادارسة ٠ ومما قاله :

" ولا يسمح للطعن في هذا النسب الكريم لأنه من الشهرة في الآفاق ، والفشوّ في القبائل والآباء ، بحيث لا يحجبه بعد دار ، ولا يجحده لسان عدو ٠٠ (٩)

---

(١) بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ص ٨٥ - ٩٢

(٢) نفسه ، ص ص ١٠٠ - ١٣٢

(٣) نفسه ، ١٦٦ - ١٦٩

(٤) نفسه ، ص ص ١٧٨ - ١٨١

(٥) ابو زيد عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبغ السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ هـ انظر : الديباج المذهب ، ص ص ١٥٠ - ١٥١

(٦) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ " انظر : فوات الوفيات جـ ٣ ، ص ص ١٢ - ١٣

(٧) ابو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ " انظر : البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ١٤٥

(٨) ابو الحكم مالك بن عبدالرحمن بن علي بن عبدالرحمن بن المرحل السبتي المتوفى سنة ٦٩٩ هـ " انظر : نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٣٠٥ ، بغية الوعاة ، جـ ١ ، ص ٣٨٤

(٩) بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ١٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتعرض في الباب الثالث الى الأوضاع التى مكنت " بنى عبدالواد " من الاستقرار بناحية تلمسان منذ العهد الموحدى حينما ترك " بنو عبد الواد " الصحراء ، واستقروا بالتل الذى اتخذون مربعا " بما أنسوه من خصبه وغضارة عيشه " . (١) ثم ينتقل الى ذكر سبب مصير الملك اليهم وذلك حينما استولى جدهم " جابر بن يوسف " فى عهد الخليفة " المأمون الموحدى " على تلمسان " واستقلّ بحكمها الا ماكان من ذكر المأمون على المنبر وفى الدرهم والدينار " (٢)

أما القسم الثانى ، فيتضمن ثلاثة أبواب ، خصص الأول لذكر الملوك الأولين وأخبار دولتهم ، وهى الفترة التى بدأ بعهد " يغمراسن بنى زيان " مؤسس الدولة ، وتنتهى بمقتل السلطان " أبى تاشفين الاول " وتغلب السلطان " أبى الحسن المرينى " على تلمسان . (٣)

وما يمكن أن يلاحظه الباحث في هذا السياق أن المؤلف يهمل فترة الحكم المرينى لتلمسان ولا يعيرها اى اعتبار يذكر علما أن تلمسان كانت مقرا للحكومة المرينية سنوات عدة في عهد أبى الحسن المرينى ، فضلا عن الانجازات العمرانية الهامة التى انجزت فى هذه الفترة .

ويتناول في الباب الثانى والثالث الظروف التى أدّت الى احياء الدولة الزيانية عقب زوالها على يد الاخوين الاميرين " أبى سعيد وأبى ثابت " سنة ٧٤٩ هـ الى ان استولى بنو مرين على تلمسان سنة ٧٥٣ هـ . (٤) أما القسم الثالث والاخير من الكتاب فقد خصصه كله لذكر عهد " أبى حمو الثانى " من سنة ٧٦٠ هـ الى سنة ٧٧٦ هـ ، ويشتمل هذا القسم ايضا على ثلاثة ابواب تناول فى أولها " سجاياه وسيره الحميدة " (٥) والثانى " في أوليته ومصير الملك اليه " (٦) .

---

(١) بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ١٩٨
(٢) نفسه ، ص ١٩٩
(٣) نفسه ، صص ٢٠٤ - ٢١٩
(٤) نفسه ، صص ٢٣٤ - ٢٤٧
(٥) نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧
(٦) نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتعرض " الباب الثالث - وهو أهم باب في الكتاب - الى تاريخ عهد " ابى حمو " من سنة ٧٦٠هـ الى سنة ٧٧٦هـ ، أيّ ما يمثل النصف الأول من حكم " أبى حمو " وهنا يقول المؤلف : "انّى ذاكر في هـــذا الباب ما التزمته من تفصيل ما اشتملت دولته من حرب وسلم وتفريق ولمّ ، وحكمة وحكم " (١).

وينتهى هذا القسم من " بغية الرواد " بذكر حوادث آخر سنة ٧٧٦هـ . ويفهم من أشارة وردت فى آخر الكتاب أن المؤلف كان ينوى اتمام كتابه وهى قوله : " تمّ السّفر الأول من كتاب بغية الرواد فـــى أخبار الملوك من بنى عبدالواد بحمد الله وحسن عونه " (٢) الا أن مقتل الكاتب سنة ٧٨٠هـ حـــال دون تحقيق هذا المشروع فيما يبدو .

هذا وقد سار المؤلف في عرض كتابه على المنهج التالى :

أوضح المؤلف في بداية القسم الأول بأنه سيذكر في هذا القسم " مالا غنى بنا عنه من التعريف بكنـــه قبيل بنى عبدالواد وأوليته " ، (٣) ويقول : " ولما كان كل حادث مقتصرا بذاته الى مكان سابق وزمان لاحق ، وجب أن نفرد لذكره ، وذكر كل منهما بابا ، نفى فيه بغرضنا من خبره . " (٤)

فكان هذا القسم عبارة عن مقدمة طويلة للموضوع تضمنت خاصة تاريخ تلمسان وتطورها السياسي قبـــل الفترة المعنية . ولا شك ان يحيى بن خلدون " قد سار في ذلك على منهج بعض المؤلفـــــــين المغاربة مثل ابن الخطيب (٥) وغيره .

---

(١) نفسه ، ٣٨
(٢) نفسه ، ص ٣٢٧
(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٨٤
(٤) نفسه ، ص ٨٤
(٥) انظر اللمحة البدرية ، ص ص ١٢ - ١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ أما القسم الثاني ، فقد رتّب أبوابه حسب تتابع الملوك ، فقد بدأ " بيغمراسن بن زيان " وانتهى بامارة الاميرين " أبي ثابت وأبي سعيد " مع ذكر تاريخ بيعة كل ملك ونكروزرائه وكتابه وقضاته كما يذكر أهم الاحداث التي جرت أثناء حكمه .

ـ أما الاخبار في القسم الثالث ، أو بالأحرى في الباب الثالث منه ، فقد رتّبها على نظام السنوات مثلما فعل قبله وبعده عدد كبير من المؤرخين . (١) ومما يلفت النظر ، أن المؤلف أدرج في سياق عرضه التاريخي عددا كبيرا من القصص ، وكثيرا من القصائد الشعرية وأوصاف المجالس المولدية فضلا عن الابيات والمقطوعات القصيرة ، الا أن أغلبها كان له ارتباط بالاحداث التاريخية التي كان يسردها ، وبعضها جاء لغرض التمثيل واستخراج المغزى والعظة من الحوادث ، مثل القصص الفارسية (٢) وبعض الأبيات الشعرية .

ولا شك أن لعلم التاريخ في زمن المؤلف فائدته في المجالين الديني والخلقي ، وقد عبر الكاتب نفسه عن ذلك حينما قال في مقدمة كتابه : إن " أخبار السلف عبرة للخلف " وإن تدوين أخبار العظماء " أسوة في الفخر اللباب ، وعظة وذكرى لأولي الالباب " (٣) لكن يبدو أن " يحيى بن خلدون " مثل غيره من المؤرخين لا يعتبر هذا العامل الخلقي عاملا أساسيا لانتاجه التاريخي بل ، كانت الغاية الأساسية ، هي تخليد أمراء الدولة الزيانية ، ولا سيما السلطان "أبي حمو الثاني " الذي انصرف الى مدحه والثناء عليه .

ومن هذه الكتب التي اتجهت هذا الاتجاه التاريخي الملوكي أيضا ،كتاب " المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن " لابن مرزوق التلمساني ، وهو كما يوضح عنوانه سيرة ذاتية للسلطان " أبي الحسن المريني " لكن هذه السيرة ليست تاريخية علمية صرفا ، بل هي مدح وثناء على مزايا

---

(١) على سبيل المثال " البيان المغرب " لابن عذارى المراكشي ، و " نظم الدر والعقيان " للتنسي .

(٢) من هذه القصص مثلا : قصة سابور ابن هرمز ملك الفرس .. انظر : بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ص ١٤٢ ـ ١٤٥

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السلطان،ويمكن للباحث ان يستدل على ذلك من خلال تصفح عناوين فصوله وأبوابه كما أن المؤلف يطلعنا في بعض الفصول على بعض الاحداث والمواقف ، وذلك حينما يتحدث مثلا عن الوزراء وحاشية السلطان وكتابهم (١)وحول أعمال تشييدالزوايا والمدارس (٢) وعلاقاته بالملوك المعاصرين له .

لقد كتب " ابن مرزوق " المسند " بعد وفاة السلطان " أبى الحسن " بدافع تقديم الشكر والتعبير عن الامتنان الذى كان يكنه " لبنى مرين " وربما كان ينوى الانتقال الى المغرب ، فجعل كتابه تمهيدا لمقدمه ، فلعله يحظى بالترحاب والاستقبال :

" وبلغنى الأن ما امتنّ الله به على الخلائق ، وما شرفت به المغارب على المشارق ، في احياء الحسن الذى عهدته ، وعود اللطف الذى تعودته ، والمعهود الذى بالوطن المحبوب حوجته ... بادرت حين تعذّر أملى وتغيرت في الوقت طرقى الى محله الشريف وسبلى ، أن أتقرب اليهم بما يجدّد فى حضرتهم العلية ذكره .. " (٣)

اشتمل كتاب " المسند " على مقدمة وخمس وخمسين بابا وخاتمة :

فأما المقدمة فتشمل على عدة فصول تعرض خلالها الى حقيقة الخلافة لغة وشرعا (٤) وذكر اختلاف العلماء حولها . (٥) واشار الى وجوب طاعة من يتولى أمرها وتحريم عصيانه ومخالفته ، مستدلا بعدة أحاديث نبوية صحيحة على ذلك . (٦) ويخصص فصلا للحديث عما يجب على الخليفة أو من يتولى أمامة المسلمين من وجوب الالتزام بقواعد اخلاقية تجاه رعيته من الرفق بها ، وتحريم غشّها واهمال مصالحها . ويلجأ الى الاستشهاد بالأحاديث النبوية التى تشدّد على من قصّر في حقوق الرعية التى

---

(١) انظر " المسند " ص ص ٣٥٩ - ٣٧٣
(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ص ٤٠٥ - ٤٠٩
(٣) المسند " ص ص ٩٢ - ٩٣
(٤) المصدر نفسه ، ص ٩٥
(٥) المصدر نفسه ، ص ص ٩٦ - ٩٨
(٦) المصدر نفسه ، ص ص ٩٩ - ١٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تولّى أمرها ليبين أهمية هذا الامر العظيم (الخلافة) وخطورته . (١) على أن المؤلف يؤكد أن ملوك " بنى مرين " كانوا في مستوى مسئولياتهم التاريخية في تحمّل هذا الأمر :

" فالحمد لله الذى طهّر أئمتنا من رذيلة الظلم والجور ، وجعلهم أحسن الملوك قياما بسياسة الرعية والنصح لها ، وأشدهم شفقا عليها ، وأحرصهم على اتصال الخير ، وأبعدهم من الاحتجاب عنها ، وأقربهم منها . " (٢) ثم يورد قسما ملحقا بهذه المقدمة يتناول فيه قضية هامة في وقته ، ولها اتصال وارتباط بقضية الخلافة ، وهى اثبات نسب " بنى مرين " الشريف ، ويبدو أنه يسلم بشرفهم وانتسابهم للدوحة النبوية والنبعة الحسنية على الرغم من ايراده لقول أحد سلاطينهم – وهو يعقوب بن عبدالحق – ينكر فيه مثل هذا الأمر وينفيه . (٣)

ويتعرض بعد ذلك الى تاريخ " بنى مرين " ومواطنهم الأصلية الأولى بالمغرب الاوسط ، والى ملكهم السابق الذى امتد من بلاد الزّاب الى تاهرت وأحواز تلمسان مشيرا الى أن بقايا من قبائلهم ما زالت الى عصره ببلاد الزاب وأوراس ويشير الى تاريخ ظهور هم على الساحة السياسية حينما تملكوا المغرب الأقصى في النصف الثانى من القرن السابع الهجرى فيذكر من تعاقب على حكم هذه الدولة الى أن يصل الى عهد السلطان الكبير " أبى الحسن " المعنى بهذه الدراسة والذى خدمه " ابن مرزوق " حيث شغل منصب خطيب حضرته وأمين رسائله فى وقته فضلا عن تقريبه واختصاصه به وتكليفه بأمور كبيرة . (٤)

أما الابواب الخمسة والخمسون فقد خصصها كلها للحديث عن خصال السلطان " أبى الحسن " العظيمة ، وهى تقريبا سيرة ذاتية لهذا السلطان طيلة مدة حكمه ، فمن هذه الابواب : في نسب " أبى الحسن المرينى " ، (٥) في ملاحظاته لاحوال رعيته ، (٦) فيما كان يؤثره من العلوم ، (٧) وفي ذكر وزرائه وجلسائه وكتابه ، (٨) وفي انشائه المدارس وبناء الجوامع والمساجد

---

(١) المسند " ، ص ص ١٠٣ - ١٠٤
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٥
(٣) المصدر نفسه ، ص ص ١٠٧ - ١٠٩
(٤) المصدر نفسه ، ص ١١١
(٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٧
(٦) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٣ - ١٧٧
(٧) المصدر نفسه ، ص ص ٢٧١ - ٢٧٨
(٨) المصدر نفسه ص ص ٣٥٩ - ٣٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والزوايا والمارستانات والقناطر والجسور والسقايات (١) الى غيرها من الابواب التى يحويها المسند ، وهو في هذه الابواب جميعا يورد من القرآن ما يرتبط بالباب ، ثم يثنى بالأحاديث المتعلقة به وبعد ذلك يأتى بالمرويات الأخرى كالشعر مثلا .

ففى الباب العشرين - الذى خصّصه للحديث عن ايثاره للعلم ومحبة أهله - يبدأ بذكر فضل العلم على الجملة فيورد من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى :

" قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (٢) وقوله تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " . (٣) ثم يورد من الأحاديث مثل قول الرسول عليه الصلاة والسلام : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " (٤) متفق عليه ، كما يستدل بالشعر للتدليل على فضل العلم مثل قوله :

والعلم يحيى قلوب المؤمنين كما ... تحيا البلاد اذا ما مسّها المطر

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يجلّي سواد الظلمة القمر (٥)

وبعد ذلك كله يتعرض لفضل " أبى الحسن " على العلم ، وتقريب أهله وتبجيلهم ، ومما جاء فى هذا الصدد قوله :

" لا خفاء باختصاصه اهل العلم لمجالسته ومحاضرته ومشاورته ومشاركته فيما يتقلّده من الأمور الشرعية ويتلقاه من السير الرضية ، وجعلهم بطانته . " (٦)

وقوله كذلك :

" .. كان رضى الله عنه أبرّ الناس بأهل العلم وأعرفهم بقدرهم ، استخلصهم لنفسه وجعلهم من سائر بلاده فى حضرته ، اذا سمع بمن له رسوخ قدم في العلم أقدمه على حضرته ، وجعله من

---

(١) المسند ، ص ص ٤٠١ - ٤١٧.

(٢) سورة الزمر ، الاية ٩

(٣) سورة المجادلة ، الاية ١١

(٤) فتح الباري بشرح صحيح الامام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري للامام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ج ١ ، ص ١٦٤ ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

(٥) المسند ، ص ٥٨٢

(٦) نفسه ، ص ٦٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خواصّ أهل مجلسه ، وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضرا وسفرا ، فاجتمع بحضرته أعلام ثمّ ضمّ لهم من كان بتلمسان وأحوازها حين استيلائه عليها ، ثم استمرّ هذا العمل في دخوله بلاد افريقية ، ولم يزل على هذا الى أن توفي رضي الله عنه " (١) ويذكر المؤلف جمهرة من علماء حضرته الملازمين له من أهل المغربين ومن أهل افريقيا (٢) ويسير المؤلف على هذا النهج في سائر ابواب كتابه .

أما خاتمة الكتاب فتشتمل على عدة فصول ، تعرض في بدايتها الى سبب اتصاله بالسلطان " أبي الحسن " والذي تمّ في عُبّاد تلمسان . (٣) ويشير الى ما أولاه من المبرّة والكرامة ، وما ألبسه من الحلية والشّارّة ، مثل تقليده أياه لخطّة الخطابة وتقليده الشهادة في عقوده والامامة ، وتأهيله للاقراء . (٤) وينهي الخاتمة بدعاء . (٥)

وعلى الرغم من اختصاص المسند بالملوك والرؤساء ، وخلوّه من معلومات اجتماعية تتناول الطبقات الدنيا وعلاقاتها بهؤلاء الملوك ، مثل غيره من معظم الكتب التاريخية السلطانية في وقته " كبغية الرواد " مثلا ، الا أنه يمدنا بمعلومات قيمة عن الانظمة الادارية والحياة العقلية والقيم الدينية والاخلاقية التي كان يقوم عليها المجتمع المريني في تلك العصور . ولا شك في أن ما قاله " ابن مرزوق " عن أبي الحسن " وبلاطه ووزرائه وكتابه ، والانظمة الادارية التي سار عليها في دولته ، تنطبق على كل الانظمة السياسية في المغرب يومئذ من زيانيين وحفصيين . ومن جهة أخرى فان الباحث يجد في " المسند " خطوطا نظرية عن السلوك السياسي وفن الحكم ، وسير الأمور . فهو يرسم الصورة التي يجب ان يكون عليها الحاكم أو السلطان . وقد رأينا أنه كان في كل فاتحة باب يحلي هذا المنهج حسب ما جاء في القرآن والسنة والشريعة . وهذا يعني ان على كل حاكم مسلم أن يسير على منهج الاسلام الحكيم ، وأن يتبع نهج الخلفاء الأولين .

---

(١) " المسند " ص ٢٦٠
(٢) المصدر نفسه ، ص ص ٢٦١ - ٢٧٠
(٣) المصدر نفسه ، ص ص ٤٧٩ - ٤٨٥
(٤) المصدر نفسه ، ص ص ٤٨٥ - ٤٨٧
(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الكتب التاريخية الأدبية أيضا يمكن أن نذكر " زهر البستان في دولة بنى زيّان " لمؤلف مجهول وهو معاصر فيما يبدو " ليحيى بن خلدون " ، ولا يوجد منه الا السّفر الثانى الذى خصه للحديث عن أخبار " أبى حمو " خلال السنوات الا ربع الاولى من حكمه ، وفيه أخبار كثيرة ومفصلة عن هذه الفترة ، ربما لا توجد فى غيره من المصادر التى أرخت لبنى عبدالواد .

وقد ضاع السفر الأول من هذا الكتاب الذى يتضمن تاريخ الدولة الزيانية قبل عهد " أبى حمو " . ولا ندرى إن كان المؤلف ينوى اتمام كتابه حينما قال "تمّ السفر الثانى من زهر البستان فى دولة بنى زيان"(١) ويتضح من السفر الذى ما يزال موجودا أن صاحبه سار في كتابه على منهج كتاب البلاطات السلطانية في كتابة التاريخ . وأغلب الظن أنه ألفه تقربا " لابى حمو " .

ومن هذه الكتب أيضا " تاريخ تلمسان " لابن هدية القرشى " ولا نعلم عنه شيئا يذكر وهو في حكم المفقود . ومن المرجح أن يكون مؤرخو البلاط الزيانى ، ولا سيما " يحيى بن خلدون " قد أخذوا عنه ، لا سيما أن صاحبه كان ذا باع طويل فى الأدب واللغة والتاريخ ، وعاش في فترة زمنية قريبة منهم ، حيث توفى في عهد السلطان " أبى تاشفين الأول " سنة ٧٣٧ هـ ، الى غيرها من الكتب المفقودة .

واذا كانت اتجاهات هؤلا ء المؤرخين مثل " يحيى بن خلدون " و " ابن مرزوق " وصاحب زهر البستان " وغيرهم من مؤرخى البلاطات ، سواء فى تلمسان او فى المغرب ، هى الرغبة فى تدوين سير من خدموا من السلاطين والملوك خاصة ، وتمجيد مآثر الدول التى عاشوا فى ظلالها عامة ، فان " عبدالرحمن بن خلدون " الذى عاصرهم ، وتنقل في مختلف البلاطات المغربية أعطى لعلم التاريخ في مقدمته فلسفة جديدة ، ونهجا جديدا لم يكن معروفا لدى المؤرخين والمشتغلين بعلم التاريخ من قبل سواء في المغرب أو فى المشرق .

---

(١) زهر البستان ص ٩١ ظ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن المعلوم أن " عبدالرحمن بن خلدون " كتب مقدمته الشهيرة خلال خلوته فى قلعة " بنى سلامة " بالقرب من مدينة " تاهرت " بعد أن ترك تلمسان حينما حاول سلطانها " أبو حمو " أن يستخدمه لاغراض سياسية، (١) بينما كان هو عاقدا العزم على اعتزال السياسة والتفرغ لتحصيل العلم . ففى خلوته في تلك القلعة التى قضى بها أربع سنوات كاملة ، دوّن مقدمته الشهيرة التى بها اشتهر ، وبها أصبح للتاريخ اتجاه جديد، وتعتبر هذه المقدمة أثرًا لحياة " ابن خلدون " وثقافته وتجاربه فى دول المغرب والمناصب التى تولاّها اذ جاءت نتيجة لتلك التجارب التى اكتسبها خلال تجاربه العديدة فى تلك الاقطار . فقد نظر " ابن خلدون " فى المجتمع وأخبار الدول ، ودرس أحوال ملوكها وعاداتها وأخلاقها ، وتتبع نشوءها وتحولها ، والمراحل التى مرت بها ، ليستخلص من ذلك كله قوانين كاملة ، ومبادىء ثابته . وهذا يدل على أن ما جاء في المقدمة شيء جديد لم يتعرض له أى عالم قبله . وهذا المعنى يعبر عنه ابن خلدون فى قوله :

" .. واخترعته من بين المناحى مذهبا عجيبا ، وطريقة مبتدعة وأسلوبا ، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن ، وما يعرض فى الاجتماع الانسانى من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على أحوال ما قبلك من الايام والاجيال وما بعدك .. " (٢)

فهذه المقدمة اذن عبارة عن فصل عرض فيه نظريات عديدة منها : أن الاجتماع الانسانى ضرورى . (٣) وان البداوة جيل أقدم من الحضر وسابق عليه ، وان البادية أصل العمران والامصار مدد لها، (٤) وأن رسوخ الصنائع فى الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها ، (٥) وان الهواء

---

(١) اقام ابن خلدون بتلمسان سنة ٧٧٦ هـ ، حيث زاول التدريس بمدرسة العباد لكن السلطان " أباحمو " كلفه بالسفارة الى عرب الدواودة لاستئلافهم للوقوف معه فى وجه خصومه مما اضطره الى مغادرة تلمسان ، ولعله كان ينوى كتابة تلك المقدمة بخلوته بالعباد منها " انظر : " رحلة ابن خلدون " ص ص ٢٤٤ - ٢٤٥

(٢) المقدمة ، ص ٦ (٣) نفسه ، ص ص ٦٩ - ٧٣

(٤) نفسه ، ص ص ٢١٣ - ٢١٤ (٥) نفسه ، ص ص ٢١٥ - ٢١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يؤثر فى ألوان البشر ، والكثير من أحوالهم (١) الى غيرها من النظريات .

ومن هنا فالتاريخ عنده ليس سرد الحوادث فقطكما جاء عند أخيه ، يحيى وعند " ابن مرزوق " وغيرهم بل ينبغي تحليل تلك الحوادث ، والبحث عن أسبابها ، والنظر فيها بعين ناقدة تميز بين الأساطير والتاريخ ، وتمحّص حتى تقف على الخطأ والصواب فى الخبر . ولعل هذه الحماسة فى طلب الحقيقة هى التى جعلته يصرح فى خطبته بأن فى كتب " المسعودى " و " الواقدى " " من المطعن ما هو معروف عند الاثبات ، ومشهور بين الحفظة الثقات ." (٢)

وعن طريق هذه الموضوعية والنزاهة فى الاحكام سلم مما وقع فيه معاصروه من المؤرخين من اخطاء وفى جملتهم أخوه " يحيى " وابن مرزوق ، وابن الخطيب ، ومن سار فى دربهم فى كتابة التاريخية .

ومهما يكن ، فان ما ظهر من كتب تاريخية وسياسية فى تلمسان خلال القرن الثامن يقوم دليلا على نشاط تأليفى في ميدان الأدب والتاريخ ، وان غلب على معظمها الصبغة الملوكية الرسمية ، مما جعل قسما هاما من نتاج المؤرخين فى خدمة السلاطين على حساب الموضوعية والصدق .
ومن الملاحظ أن هذا المنهج والاتجاه فى الكتابة التاريخية كان عرفا شائعا لدى المؤرخين فى عصرهم أو فى العصور التى سبقتهم . فم يجد الكتاب بدا من السير عليه .

---

(١) المقدمة ص ص ١٤٨ - ١٥١
(٢) نفسه ، ص ص ٣ - ٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخصائص الفنيـــة للشعـــــر والنثـــــــر

اولا : الشعـــــــر :

البناء الفني للقصيـــــــدة

حافظت القصيدة الشعرية في هذاالقرن علىالخصائص الفنيّة التي كانت تطبع القصيدة العربيـــــة فيالعصور الأدبية السابقة • ومنجملة هذه الخصائص بناء القصيدة الذى يتمثل في المقدمة وحسن التخلص والخاتمـــــة •

أما المقدمة فتعتبر ظاهرة من الظواهر الفنية التي صاحبت القصيدةالعربية على اختلافالعصـــور التي مرت بها ، والامصار التي انتقلت اليها ، لذا فقد التزم بها شعراء تلمسان في هذه الفتـــرة في عملية بنائهم للقصيدة ، وذلك أن العرف الأدبي والذوق الاجتماعي معا كانا يفرضان هـــــذا التقليد الشعرى فرضا •

ولو حاولنا أن نتبين ملا مح هذه المقدمات التقليدية عند شعراء تلمسان في هذا القـــرن ، انطلاقا من النصوص التي بين أيدينا ، لوجدنا أن تلك المقدمات تكاد توجد بشكل آلي في جل تلـك القصائد ، وإن غلب ذلك على قصائد المدح بصورة خاصة •

وقد تنوعت مقدمات القصائد كما لاحظنا أثناء حديثنا عن قصائد الموالد النبوية ، أو قصائـــد المدح وأخذت عدةاتجاهات •

فثمة مقدمات غزلية وطللية التزم أصحابها الأسلوب التقليدى القديم كما فعل " أبو حمـو " في معظم قصائده الفخريه والمولدية ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في إحدى قصائدهالتي ضمنها ما كـــان يشعر به في منفاه من آلام وآمال ابان استيلاء " بني مرين " على عاصمته يقول :

قف بالمنازل وقفة المتـــــــردد ... ما بين نوْى بالطّلـــول وموقـــــد

وإذا مررت على الرّبوع مسلمـــــــا ... فاسأل عن القلب الغريـــب المفـرد

حدّث بها خبر الأسى عن مدنـــــف ... بجلى الغرام موشح ومقلّـــــــد (١)

---

(١) بغيةالرواد جـ ٢ ، ص ٢٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتزم بها " محمد بن خميس " في معظم قصائده . يقول في إحداها :

مشوق زار ربعك يا أمامـــــــــا مَحـا آثار دِمْنتها التثامـــــــا
تتبّع ريقة الطَّلِّ ارتشافـــــــا فما نفعت ولا نقعت أُوامـــــــا (١)

ويبدأ " أبو علي حسن بن ابراهيم " أحد شعراء بلاط السلطان " أبي حمّو " بالغزل في إحـــدى مولدياتـــه قائلا :

هو الحبّ تهديـه العيـون الفواتـــر ويخفَي فتُبْديـه البوادي البـــوادر
وتغرسـه في روضة القلب روضـــــة من الحسن مرعاها جوى أو جواهـــر
فيثمر إن وصلا بحلو وان نـــــوى فمرّ وان عتبـاً فطعم مُغايـــــر (٢)

واتجه " محمد بن يوسف الثغرى " هذا الاتجاه في معظم قصائده ولا سيما في المولديات منهـــا . وثمة مقدمات في ذكر الشيب كما هو الشأن مع " أبي عبدالله التلاليسي " ، وقد سبق أن ذكرنا أنـــه عرف بهذا المذهب في شعره وتميّز به ، ومن أمثلة ذلك قوله في إحدى مولدياتـه :

قلبـــي المبلّى لـــــه أُوار والجسم أُودَى بـــه السَّقـــام
لما تولّى الشباب عـــــنّي واستشعـرت نفسـيَ الحمـام (٣)

وإذا كان الشعراء في أُغلب قصائدهم قد التزموا بهذه المقدمات التقليدية على شكلها الموروث المكتسب، فإننا لا نعدم في قصائد بعضهم بعض التغيير أو التحوير في تلك المقدمات لجعلها تعبر عـــن تجربتهم الذاتية وواقعهم الاجتماعي . فقد وقف " ابن الخميس " بعض مقدمات قصائده في البكاء على تلمسان في قصائد الحنين والشوق اليها في أثناء مقامه بسبتة أو الاندلس ، كقولـه يتشـوق الى ربوعها ، ويحنّ الى معالمها ومنتزهاتها :

تلمسـان جادتك السَّحابُ الدّوالـــحُ وأرْسَـتْ بَوَاديك الرياحُ اللّواقِـــحُ
وسحّ على ساحات باب جيادهـــــا مُليثٌ يُصافِـي تربها ويُصافِـــحُ (٤)

---

(١) الاحاطة جـ ٢ ، ص ٥٢٩
(٢) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢
(٣) نفســه ، ص ١٥٤ (٤) نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ١٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذهب هذا الاتجاه نفسه في مقدمة قصيدة أخرى يتشوق فيها إلى تلمسان :

سلِ الريحَ انْ لم تُسْعِد السُّفن أنّواءٌ فعند صباها من تلمسانَ أنباء
وفي خفقان البرق منها إشارة إليك بما تنمي اليك وايماء (١)

كما نجد عند " الشثري و " التلاليسي " بعض المقدمات في وصف تلمسان مع مزج هذا الوصف بشيء من الغزل على عادة الاندلسيين ، وقد أتينا بنماذج لهما في أثناء حديثنا عن غرضي الوصف والغزل .

وعلى الرغم مما يبدو في هذه المقدمات من اتجاه نحو التجديد ، أو ما فيها من عناصر الطرافة والجدة ، الا أنه في الحقيقة لا يعدّ شيئا مبتكرا في هذا القرن ، فهو استبدال تقليد أدبي بتقليد أدبي آخر ، مع بقاء الأصل والجوهر المتمثل في المقدمة التقليدية . فقد استبدل " ابن خميس " في تلك القصائد المذكورة بالبكاء على الأطلال البكاء على تلمسان . أما " الشثري " و " التلاليسي " فقد جعلا بعض تلك المقدمات وصفا لتلمسان . واستهلال القصائد بالوصف ليس وليد هذه الفترة ، إذ إن هذا اللون من المقدمات ظهر قبل هذه الفترة في قصائد الشعراء الاندلسيين والعباسيين من أمثال " ابن حمديس " و " ابن خفاجة " و " البحتري " و " أبي تمام " وغيرهم .

وقد التزمت القصائد بصورة عامة ، ولا سيما قصائد المدح ، بهذا العرف الشعري السائد الذي طبع القصيدة التقليدية ، وحافظت عليه وإن شذت في أحيان قليلة كأن تأتي القصيدة من دون مقدمة تقليدية مثل قصيدة الشاعر " محمد بن صالح شقرون " في مدح " أبي حمّو " وتسجيل انتصاره على " بني مرين " في إحدى الوقائع ومطلعها :

حَدِّثْ عن الملك المنصور ما شيتا تجد ألذّ حديث يشبه القوتا (٣)

ومثل قصيدة " محمد بن علي بن قاسم المرسي " أحد كتاب الديوان بتلمسان يمدح " أبا حمّو "

---

(١) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٣٧٦

(٣) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اثر فتح بجاية :

مولى الملوك وواحد الخلفـــــــاء ومقــرّ كل مجادة وعـــــــلاء (١)

ومثل قصيدة " محمد بن علي العصامي " في المناسبة السابقة أيضا :

بشرى كمنبلج الصباح المسفـــــــر أوكالصّبا جاءت بريا العنبـــــر

حيّاك عاطر نشرها فكأنهـــــــــا داريّنٌ أهدت طيب مسك أذفـــــر (٢)

ولكن هذا لا يعتبر أيضا شيئا جديدا ، ذلك أن النقد العربي القديم لم يكن حاسما صارما في هـــذا الامر ، " فابن الأثير " يرى أن القاعدة التي يبنى عليها أساسا " المطلع "، أنه يجب على الشاعر اذا نظم قصيدا أن ينظر ، فان كانت مديحا صرفا لا يختصّ بحادثة من الحوادث ، فهو مخيّر بـــين أن يفتتحها بغزل أولا . اما اذا كانت القصيدة في حادث من الحوادث كفتح أو غير ذلك ، فانـــه ينبغي ألا تبدأ بالغزل لأن هذا يدل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره من الغاية . أو على جهلـــه بوضع الكلام في مواضعه .. ولأن الأسماع تكون متطلعة الى ما يقال في تلك الحوادث . (٣)

ومما يتصل بالحديث عن المقدمة ، الحديث عن مطلع القصيدة ، لأن للمطلع قيمة كبيرة فهو أول ما يقرع السمع ، وهذا له تأثير على السامع ، اذ يجعله يقبل على تتبع أبيات القصيدة أو يحجم عنها وفقا لجودة المطلع أو هبوطه .

والناظر في مطالع القصائد على اختلاف موضوعاتها يلحظ أن الشعراء قد وفقوا توفيقا كبيرا في مطالع قصائدهم ، من حيث الأسلوب وظهور المعنى واستخدام الألفاظ المناسبة للموضوع المتحدث عنـــه ، وهو ما يسمى ببراعة الاستهلال . (٤)

فأبو عبدالله التلاليسي في هذا المطلع الذي يرثي به الأمير " أبا يعقوب يوسف " :

كأس الحمام على الأنام تـــــــدور ما ان لها الا القضاء مديـــــر (٥)

---

(١) بغية الرواد ، ص ٣١٦

(٢) نفســـــه ، ص ٣١٥

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " ج ٢ ، ص ٢٣٦ بتصرف ، تحقيق : احمد محـــي الدين عبدالحميد مصر . ١٩٣٩

(٤) " منهاج البلغاء وسراج الادباء " حازم القرطاجني ، ص ص ٣٠٩ - ٣١٠ تحقيق وتقديم : محمد الحبيب ابن الخوجة . تونس ١٩٦٦

(٥) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ١١٠

(٦) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد حدد موضوعه منذ البداية وهو الرثاء ، كما التزم بالتصريع الذي اشترطه النقاد في مطلع القصيدة لأنه يحدث إيقاعا موسيقيا معينا . وهذا التقيد نجده في مختلف مطالع القصائد المختلفة .

ومما يتصل بالقصائد ذات المقدمات أيضا ، ما أطلق عليه النقاد " حسن التخلص " . (١) وقد حرص الشعراء على العناية بالشكل والدقة والخروج من جزء الى جزء خروجا يشعر بالتحام الأجزاء وتماسكها . ويمكن أن نمثل بما جاء في إحدى قصائد " أبي عبدالله التلاليسي " ، حيث نراه ينتقل من وصف رحلته الى الحجاز الى مدح الرسول عليه السلام من دون أن نشعر بخلل فني أو طفرة في هذا الانتقال :

أشيع ركباً بعد ركب لطيبة ... ويقعدني غيّي وكثرة آمالي
بقرب رسول الله طاب ترابها ... وأضحى لها جيد بأنواره حالي
نبي كريم شرّف الله قدره ... وفضله في القبل والبعد والحال (٢)

وقد وصل الشاعر معناه الأول بمعناه الثاني من دون أن نحسّ بأيّ انفصال للمعنى الثاني عما قبله إذ جاء ممتزجا به حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد ، وهذا يدل على حذق الشاعر وقدرته . ونلحظ الشيء نفسه عند الانتقال من مدح الرسول عليه السلام الى مدح وليّ النعمة دون اختلال في النسق . ويحسن " الشغري " التخلص من مدح الرسول عليه السلام إلى الاشادة بممدوحه حيث يقول :

ويا مولد المختار وافيت زائرا ... فلله ما أسنى الحبيب الموافيا
حللت بربع الملك فاختال زاهيا ... وصار لنور النيرات مباهيا
تلقاك مولانا الخليفة باسما ... لقاء مشوق لم يكن عنك ساليا (٣)

ثم يدخل مباشرة في المدح . وما نجده عند هذين الشاعرين من حرص على حسن التخلص نجده عند غيرهم من الشعراء .

ولم يكن اهتمام الشعراء بخاتمة القصيدة أقلّ من اهتمامهم بمطلعها ، وهم بذلك يطبقون

---

(١) المثل السائر ، جـ ٢ ، ص ص ٢٥٨ - ٢٧٩
(٢) بغية الرواد جـ ٢ ، ص ١٤٠
(٣) نفسه ، ص ١٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مفهوما نقديا يرى في الخاتمة قفل القصيدة كما أن المطلع مفتاح لها . (١)

فالخاتمة يجب أن تكون ذات صلة قوية بموضوع القصيدة لأنها آخر ما يبقى من الأسماع . وقد كانت القصيدة عادة ما تنتهي ببيت من الحكمة كقول " أبي حمو " في قصيدة رثائية :

الموت باب وكلّ الناس داخلـــــه والعبد يجزى بما جنى وما اقترفـا

والله مطلع فوق العباد وقـــــد يؤاخذ العبد في الدنيا بما سلفا (٢)

وقد تنتهي بالدعاء التقليدى كقول " أبي محمد عبدالعزيز بن على " في مدح "أبي حمّو" :

فابق يا أوحد الملوك رفيعـــــا في العلى ما تصاحب الفرقـــدان (٣)

وقد تنتهي القصيدة بمدح ولي النّعمة كقول " الشنرى " :

ولا زلت في العزّ المكين مخلـــدا وربّك فيما ترتجيه معـــــين (٤)

ومثل قول " ابن الخطيب " في مدح " أبي حمو" :

ثمّ السلام عليك يزرى عرفـــــه طيبا بعرف العود والبلســـان (٥)

وقد تنتهي بالصلاة على النبيّ كقول " أبي حمو " :

فلله منا الحمد والشكر دائمـــــا وصلى على المختار من آل هاشـــم (٦)

وهكذا يتضح أن هؤلاء الشعراء قد حافظوا على الاتزان الفني في قصائدهم فضلا عن طول النفس الشعرى الذى يحلي به معظم الشعراء . وقد بدا لنا أن هذا النفس الشعرى يطول في المدائح والمولديـــات غالبا ، ولعل هذا النوع من القصائد راجع الى تعدد الأغراض الشعرية فيها .

وتكاد هذه الظاهرة توجد عند أغلب الشعراء ، ولكننا نجد كذلك القصيدة ذات الغرض الواحـــد في المديح مثل قصيدة " محمد بن صالح شقرون " الطويلة . غير أنه غالبا ما تتّسم قصيدة المدح بالقصر اذا اقتصرت على المدح ، وقد مثلنا بعدة قصائد في هذا السبيل .

---

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده " جـ ١ ، ص ٢٣٩ . تحقيق محي الدين عبدالحميد .ط:الثالثة ١٩٦٣

(٢) زهرة البستان ص ٨٤ و

(٣) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١٢٢

(٤) نفسه ، ص ١٣٥

(٥) نفســـه ، ص ٣٠٧

(٦) واسطة السلوك ، ص ١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاسلوب واللغـــــة

اختلفت أساليب الشعراء في تلمسان تبعا لاختلاف الأغراض التي طرقوها ، حيث كانوا يختارون لهذه الأغراض ما يناسبها من الألفاظ والعبارات ، وهم في ذلك لا يخرجون عن آراء النقاد القدامى كالجرجاني ، ومن تابعه الذين يرون أن الألفاظ ينبغي أن تقسم على قدر المعاني " فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدك ولا تعريضك مثل تصريحك ، بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه .. " (١) فكان لهذه المقولة النقدية صدى في شعرهم مثل غيرهم من الشعراء في مختلف الأقاليم والبيئات الأدبية العربية . فاتسم أسلوبهم في الغزل بالرقة والعذوبة في كثير منه . ومن أمثلة ذلك ما جاء في إحدى قصائد " أبي حمو" المولديـــة :

مشوقٌ تزيّا بالغرام وشاحا ... متى ما جَرَى ذكر الأحبّة باحا
تعذبه أشجانه وهو صابر ... ويبدى اشتياقا زفرة ونواحا
محبٌ مشوق قيدته يد الهوى ... أسير لديكم لا يريد سراحا
عذابي صلاحٌ في رضاكم فإنكم ... رأيتم صد ودِي في الغرام صَلاحا
رميتُمْ بأكبادى سِهام نواكم ... وأودعتمُ قلبي أسي وجراحا
لكل محبّ في التأوه راحة ... إذا أنّ من فرط الغرام وناحا
فكم زفرة في القلب أحرقت الحشا ... كنارٍ تلاقي في الهُبوب رياحا
أبحتُم صدودي في الغرام ولم تروا ... وصالي في شرع الغرام مُباحا (٢)

وبالوقوف على هذه الأبيات ، يتبين للباحث أن الشاعر كان يلتمس الرقة في انتقاء كلماته . فالأشجان والشوق والهوى والعذاب والغرام والتأوه والزفرة ، وحرقة الحشي ، كل لفظ منها له سمة

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه" القاضي على بن عبدالعزيز الجرجاني ، ص ٢٣ ، تحقيق : محمد الفضل ابراهيم ، وعلى محمد البجاوى ط : الاولى ١٩٤٥

(٢) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ص ٩٧ - ٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعاني الرقيقة -

ونجد هذه الرقة كذلك عند " محمد بن يوسف الثغري " في إحدى قصائده المولديـــــة :

ذَكَّـرَ الحِمَى فتضاعفت أشْجانـــــــه ... شوقا وضاق بسرِّه كتمانُـــــــه
فَنَفَتذكّر من عهـــــــود وداده ... ما لم يكن من شأنـه نسيانـــــه
يَهْفُو لبَرْقِ الأُ برقَيْن تعـــــــلّلاً ... والقلب منه دائـــمٌ حفقانـــــه
وَيَرُومُ سُلْوَانُ الهوى فيجيبـــــــه ... ان المحبّ مُحرَّم سُلْوانـــــــه
ويشُوقُـــه مرُّ النّسيم اذا سَـــــرَى ... من نحو طيبـــة طيبا أُردانـــــه (١)

فنلمس في هذه الابيات التي يحنّ فيها الشاعر الى الديار المقدسة رقة وعذوبة في ألفاظها استطاع الشاعر من خلالها أن ينقل الينا نجوى نفسه ونبض وجدانه .

والألفاظ التي جاءت في التضمين السابقين لا تقل رقة عن تلك الألفاظ التي استخدمها شعراء الغـزل في القرن الأول الهجرى حيث ازدهـر هذا الفن على أيدى عمر بن أبي ربيعة ، وجميل بثينة ، وكثير عزة وغيرهم من الشعراء الغزليين .

وأما الرثاء والحنين فكانت الأساليب الشعرية متسمة بالرقة والعذوبة أيضا كما رأينا ذلك مـــن خلال نماذج من شعر "ابن خميس " ، و " أبي حمو " و " الثغري " و " التلاليسي "، في حـــين اتسم أسلوبهم في المدح والفخر بالقوة والجزالة والفخامة ، ولا سيما إذا تعرضوا للأعداء أو وصفـــوا الحرب والخيل ، وذكروا صفات الممدوح الحربية . وفيما يلي أبيات من شعر " أبي حمو " يصـــور فيها إحدى وقائعه ضد " بني مرين " :

كررنا عليهم كرّة بَعد كـــــــــرّة ... وقد سعرت للحرب نيران جاحـــم
بضرب يُزيل الهام عن مُسْتقـــــــرّه ... وطعْنٍ مضى بين الكلى والحيـــازم
فهذا أسير صفّدتـــه يد الوغـــــــى ... وهذا قتيلٌ في عُجـاج المصـــادم
فطوبَـى لعبد الواد عند ازدحامهـــم ... لقد جَدّلوا في الحرب كُلّ مزاحـــم (٢)

---

(١) بغيةالرواد ،جـ٢، ص ص ٤٤-٤٥
(٢) " واسطة السلوك " ص ١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فنلاحظ في الابيات السابقة جزالتها وقوتها وملاءمتها للموضوع . فالالفاظ التي اختارها الشاعر مثل الحرب والضرب والطعن والوغى والقتل وغيرها ألفاظ توحي بالقوة والسطوة والرهبة .

وهذا نموذج اخر من شعره الذى يخاطب فيه وزير المغرب " عمر بن عبدالله الياباني " اثر انتصاره على جيوش بني مرين في إحدى غاراته على المناطق الشرقية من بلادهم أواخر سنة ٧٧٦هـ يلومه على نكثه للعهد ويرميه بالضعف والعجز .

فكَمْ تحاولُ أمرًا ليس تُدركه ... تُخْطي الطريق وكَمْ ترمي فلا تصب
قد خنتَ من بعد أيمان مُؤكّدة ... وتلك عادتكم في سالف الحقب
وكم تُجيب لداعي الغيّ مبتدرًا ... وان دعوتك يوم الحرب لم تجب
فانصب الى الحرب ميدانا تشيب له ... سود الذّوائب بين الحَرْب والحَرَب (١)

وقد تذكرنا قصيدة " أبي حمو " بقصيدة أبي تمّام المشهورة في فتح عمورية بدليل أنه افتتح قصيدته بقوله :

السيف أجدر والخطي من خطب ... فيها اللجاج وقول غير منتسب
خطّ الكتائب لا خطّ الكتاب بها ... جليّة الأمر عند السمر والقضب
والحق فرض على الانسان مفترض ... والصدق أفضل ما أودعت في الكتب (٢)

فقد احتذى الشاعر قصيدة " أبي تمام" في الوزن والروى والمطلع ، بل وفي بعض المفردات التي تتسم بالفخامة والرصانة .

وما قصائد المدح التى سقنا نماذج منها في باب المدح إلا برهان على الالتزام بنمط معين من المفردات اللغوية .

وفضلا عن هذه الخصائص الفنية العامة ، فان لكل شاعر أسلوبه الخاص ومعجمه الشعرى الخاص الذى يميزه عن غيره ، لأن الأسلوب هو الرجل كما يقولون . " فابن خميس " مثلا كان متأثرا بالأساليب القديمة ، وقد ساعد على ذلك اطلاعه الواسع على الأدب الجاهلي وإلمامه بأخبار العرب

---

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ص ١٥٦ - ١٥٧ (٢) نفسه ، ص ١٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتاريخهم ، كما أن له ميزة أخرى انفرد بها عن أقرانه ، وتتمثّل في ميله للغريب وحشده له ، ولا سيما في قوافيه . ولعل خير ما نستدل به في هذا السياق ، قصيدته التي مدح بها رؤساء سبتة . وفي المقطع التالي يشكو الشاعر ما حلّ به وبقومه من جور ومن تشتيت الشمل :

سَعَيْتُمْ بني عمّ ـور في شتّ شَمْلنا ... فما تجركم ربح ولا عيشنا رِبْخُ

دعيتم إلى ما يُرْتَجَى من صلاحكم ... فردّكُمُ عنه التّعَجْرُفُ والجَمْخ

فكم فئة منا ظَفرتَمْ بنيلها ... بأبشارها من حُجْن أظفاركم بَرْخ (١)

فالكلمات رِبْخَ ، وجَمْخَ ، وَبَرْخَ تستوجب فتح المعاجم لفهم معناها . فالربخ : بكسر فسكون الوقوع في الشدة . (٢) وأما الجمخ فهو الكبر أو العجرفة . (٣) والبرخ هو الجرح والتمزيق . (٤) وكل ألفاظ القافية في هذه القصيدة تقريبا غامضة غريبة تبرز فجأة بعد أن بدأ الشاعر بألفاظ سهلة مألوفة .

ولحرف الروي المتمثل في الخاء دور في إضفاء هذا الغموض وقد دلّل " قدامة بن جعفر " في " نقد الشعر " على عيوب اللفظ باستشهاده بنموذج شعري لأحد الأعراب اتخذ الخاء رويّا له . (٥)

وعلى الرغم من صعوبة الخاء المعجمة في الرويّ وعسرها إلا أن " ابن خميس " نظم عليها قصيدة طويلة تنيف على الثمانين بيتا ، وهو يدل على مقدرة لغوية ، مما جعل " ابن الخطيب " يصفه بأنه أقدر الناس على اجتلاب الغريب . وظاهرة الغريب نراها في عدة مواضع من شعره . (٦) وقد عبر " ابن خميس عن هذا الاتجاه في الإغراب حينما قال :

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٣٧٢

(٢) لسان العرب ، جـ ٣ ، ص ١٧ ، مادة ربخ

(٣) نفسه ، ص ١١ مادة جمخ

(٤) نفسه ص ٨ مادة برخ

(٥) أنظر المصدر المذكور اعلاه ، ص ص ١٧٤ - ١٧٦

(٦) انظر على سبيل المثال همزيته في الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ص ٥٣٩ - ٥٤١ وتائيته في المصدر نفسه ص ص ٥٤٦ - ٥٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما ذاق طَعْمَ بلاغـــــــــــــــة مَنْ ليس للحُوشيّ ما ضِـــــــــغ (١)

وعلى الرغم من ذلك ، لم يكن الغريب ظاهرة عامة في شعره . فكثير من شعره يرق رقة واضحة كما أن كلماته من الكلمات السهلة الشائعة في أشعار الآخرين ولا سيما في غزله وزهده ووصفه للطبيعة وحنينه إلى وطنه ، وقد مثلنا بعدة نماذج له في عدةأماكن من هذا البحث .

وأما " أبوحمّو " ، فكان هو الآخر متأثرا بالأساليب القديمة،ولا سيما حينما يفتخر أو يصـــــف أو يتغزل . والمطلع على أساليبه يستنتج أنه كان ضليعا بالأدب الجاهلي . وقد لاحظنا هـــذه الظاهرة عندما قمنا بعرض نماذج مختلفة من شعره ، ومن ذلك ماجاء في إحدى مقدماته الطللية :

حان الفـــراق فكنتُ منه بمنـــــــزل ودنا الرحيـــل فكنت فيـــه بأوّلِ

وَبدا غُرابُ البين في عرصاتهـــــــا يرثي عليها منزلا في منـــــزل

خَلتِ المعالم والطّلـــــــول دوارس وذوى الرياض وكلّ ربع مزبـــــل

والدار أمســـتْ بلقعاً من أهلهـــــا يرثي عليها كل طـــيْر أليَـــــل (٢)

والمتأمل في كلمات الشاعر مثل منزل ، ورحيل ، وغراب البين ، والعرصات ، والطلول الدوارس ، والربع المزبل وغيرها ، قد يعود سنوات ، بل قرونا الى الوراء الى أن يصل الى العصر الجاهلي وكأن هذه الأبيات من نظم شاعر عاش في تلك البيئة البدوية الصحراوية ، ولا تربطه بالبيئـــــة التلمسانية أية روابط باستثناء وجوده في تلك البيئة . غير أن ما جاء في هذا النص لا يمكـــــن تعميمه على كل شعره ، بل كان الشاعر يستعير تلك الأساليب القديمة ويتخذها إطارا ونموذجـــا يحتذى به ، وقالبا يصب فيه أفكاره ومضامين عصره ، وقد رأينا في عدة نماذج من شعره أنـــــه قد صور لنا تصويرا صادقا ما يتصل ببيئته والأحداث التي أحاطت به .

وأمّا " أبوعبدالله التلاليسي " ، فندرك من خلال شعره ، وبخاصة من خلال مقدماته التقليدية ، أنه كان ذا نزعة أو فلسفةتشاؤمية اختص بها ، وهذه النزعة التشاؤمية تتمثل عنده في رثاء الشباب والبكاء عليه ، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده العمودية من هذه الظاهرة ، ثم إنه نظم فـــــي الموشحات وأبدع فيها . وتمتاز لغته ، سواء في قصائده العمودية أم في موشحاته ، بالسهولـــة والوضوح واختيار المفردات اللغوية المناسبة .

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٣٦١ (٢) زهرة البستان ، ص ٧ ظ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفضلا عن هؤلاء الشعراء الذين برزوا على الساحة الأدبية في تلمسان ، ولا سيما على امتداد النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، فإن لبقية الشعراء أساليبهم الخاصة ، فهناك الصياغة والألفاظ المتازة ، والوجوه البلاغية والأخيلة والموسيقى، وكلها عناصر تختلف باختلاف الشعراء واختلاف الغرض ، غير أن ما وصل إلينا من نصوصهم الشعرية القليلة لا يمكننا من تكوين فكرة واضحة عن إنتاجهم ، وبالتالي إصدار أي حكم على أساليبهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحسنـــات البديعيـــة :

وهي خاصية من خصائص الأدب العربي خلال هذا القرن شعره ونثره في مختلف أقاليمه . وإذا كانت ألوان البديع في مبتدإ ظهورها في الادب العربي مقبولة ، فإنها سرعان ما انتشرت انتشارا واسعا منذ القرن الرابع الهجرى ، ولم تفتأ تزداد حتى أثقلت الانتاج الأدبي شعرا ونثرا وطبعته بطابع التكلف والتصنع . وقد التجأ الشعراء في تلمسان مثل غيرهم الى الألوان البديعية المعروفة وإن غلبت بعض الألوان منها على إنتاجهم الشعري .

ومن المحسنات البديعية التي استأثرت باهتمام الشعراء خلال هذه الحقبة ، الجناس الذى أصبح مقدما ومفضلا لدى الشعراء والكتاب . فقد طغى الجناس على أشعار هذه الفترة بصورة واضحة وأكثر منه الشعراء حتى نجد أن كثيرا من أبيات القصيدة الواحدة كانت تشتمل على ألوان من الجناس مختلفة من ذلك ما جاء عند " أبي حمو " في الأبيات التالية :

قفا بين أرجاء القباب وبالحيّ ... وحيّ ديارا للحبيب بها حيّ
وعرّج على نجد وسلع ورامة ... وسائل ، فدتك النفس في الحيّ عن ميّ

وقوله :

تَحَلَّيْتَ في أهل الهوى بهواهم ... فَما لي سوى زي المحبة من زيّ
فيا أهلَ نجدٍ أنجدوني على الهوى ... فانّي في بحر من الشوق لجّي (١)

فالشاهد بين حيّ وحيّ وبالحيّ ، وكذلك بين حيّ وميّ ، والهوى وهواهم ، وزى وزيّ . ونجد الظاهرة نفسها عند " أبي عبدالله التلاليسي في قوله :

أأَصْبُو ورأسي بالمَشيب غدا حالي ... وحال لذا ك الشّيب لَمَّا بدا حالي
وكيف لمثلي بالتصابي وبالهوى ... وهل للتّصابي أن يمرّ علي بالي (٢)

---

(١) بغية الرواد جـ ٢ ، ص ص ٦٥ - ٦٦
(٢) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاهد ما بين حال وحـــال . وحالي ، وبالمشيب والشيب .كذلكبين حـالي وبالي .

وعند الثغرى في قولـــــه:

تَهْفُولبَرْق الأُبرقَـــيْن تَعلّـــــــلاً ... والقلبُ منه دائمٌ خفقانُـــــــــه

ويُسائل الركبـــان عن ذاك الحمـــــي ... فَتُثير كامن وجده ركبانـــــــــه

ويشوقـــه مرّ النسيم إذا ســـــــرَى ... من نحـو طَيْبَـةَ طيبا أُردانـــــــه

أتَرَى أرَى وادي العقيق ورامـــــــــة ... ويلوحُ لي رند الحجاز وبانـــــــه

وقولـــــه :

هو خاتم الرسل المكين مكانـــــــــه ... وهو المقدم والأخير زمانـــــــــه (١)

فتشتمل هذه الأبيات على ألوان كثيرة من الجناس ، وتكاد تكون ظاهرة في كل بيت ، فقد جانـــس الشاعر بين برق والأبرقـــــيـــــن ، وطيبة وطيبا والمكين ومكانه .

ومن ذلك أيضا قول " الثغرى " في إحدى مولدياته :

مَنْ لِي بزورة أحمد الهـادي الـــــــذي ... مَنْ زاره غُفِرَت لـــــــه أوزارُه

وأحُطّ رحلي في جوار محمـــــــــد ... بمقام عزّ لا يُضام جـــــــوارُه

حَرَمٌ عظيم عُظِّمت حرماتـــــــــه ... واختالَ في خلع الرضـــــي زُوّارُه (٢)

والشاهد فيه بين زاره وأوزاره وبين حرم وحرمات ، وأما عظيم وعظمت وجوار وجواره فمن الملحق بالجناس .

ومن الجناس أيضا قول " ابن خميس في أبيات زهدية :

تُراجع من دنياك ما أنتَ تـــــــارِكُ ... وتسألها العتْبَى وهاهي فـــــــارِكُ

تُؤمّل بعد الترك رجْـــــــع ودادها ... وشرّ ودادٍ ما تودّ التَّرائـــــــاء

حَلَا لك منها ما حَلَا لَكَ في الصبـــــا ... فأنتَ على حلوائه مُتهالـــــــك (٣)

---

(١) بغية الرواد ج ١ ص ٤٧ ، رحلة ابن عمار ص ١٣٣

(٢) نظم الدر والعقيان "الفصل الرابع " في محاسن الكلام " التنسي ص ٢١١ تحقيق :نورى سودان

(٣) نفح الطيب جـ ٥ ، ص ٣٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جانس الشاعر بين تارك وفارك والترك والترائك وحلالك وحلا لك،وما ورد في النماذج السابقة من جناس يؤكد أن ذلك لم يكن يرد عفو الخاطر ، ولا يفيض عن القريحة اتفاقا ، وانما كان الشعراء يعتسفونه اعتسافا ومما ساعدهم على هذا الاكثار من الجناس في أشعارهم غنى اللغة العربية بالمواءمات الصوتية ، وكثرة الألفاظ المتشابهة الحروف ، والمتقاربة المخارج .

هذا ولم يمنعهم اهتمامهم الأكبر بالجناس من توظيف ألوان بديعية أخرى كالطباق مثلا ، من ذلك ما جاء في قول " ابن خميس " :

فما الماءُ الا ما تُبِحّ مدامعي ولا النار إلا ما تجنّ الجوانحُ
خليليّ لا طيف لِعَلْوَةَ طارق بليلٍ ولا وجه لصُبحي لائح (١)

طابق الشاعر بين الماء والنار والليل والصبح . ومن الطباق أيضا قوله يصف ذكرياته عند بعض معالم تلمسان وهي ساقية الروميّ :

فكم لي عليها من غُدٍّ وروحةٍ تُساعدني فيها المنى والمنائح (٢)

طابق بين غدّو وروحة . ومن الطباق قول " أبي حمو " في إحدى مقدماته الطللية :

أو ما رأيت الرّوض أمْسَى مُقْفرا لَعبتْ به ريحُ الصّبا والشَّمأَلِ (٣)

طابق بين الصبا والشمأل وهما اسمان ، ويطابق بين فعلين في قوله :

كتمتُ حبّي فأفشَى الدمع كِتماني وزاد شوقي على قيس وغَيْلان (٤)

بين كتمت وأفشى .

ونرى " الشغري " يحفل بالطباق ، ويبحث عنه في قوله :

دَنِفٌ تذكر من عهود وداده ما لم يكن من شأنه نسيانه

وفي قوله :

---

(١) نفح الطيب جـ ٧ ، ص ١٣١
(٢) نفسه ، ص ١٣٢
(٣) زهر البستان ، ص ٧ظ
(٤) واسطة السلوك " مخطوط ص ٧ و

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو خاتم الرسل المكين مكانه وهو المقدم والأخير زمانه
لولاه ما وجد الوجود سماؤه أو أرضه أو أنسه أوجانه (١)

فقد طابق بين التذكر والنسيان ، والمقدم والأخير، وبين كل من السماء والأرض والإنس والجان .

ومن الألوان البديعية الأخرى التي وظفها الشعراء ،ردّ العجز على الصدر كما جاء في قول " أبي زيان الثاني " متغزلا :

رِفْقاً بمن حَمَلتْهُ فوق ظهورها فالحسنُ فوق ظهورها محمولُ (٢)

وقول " ابن خميس " :

قولوا وُشاة الحُبّ ما شئتُمُ مالَذّة الحبّ سِوَى أن يُقال (٣)

كما نجد هذا اللون البديعي عند " الثغري " في البيتين التاليين :

ويُسائل الركبان عن ذاك الحمى فتثير كامنَ وجده رُكبانه
ويَرُومَ سلوان الهوَى فيجيبه إن المحبّ مُحَرّم سُلْوانه (٤)

ويبدو أثر الصنعة كذلك في استخدامهم لزوم ما لا يلزم في القافية ، وهو فن عرف به " المعري " واشتهر به . يتضح ذلك من قصيدة " محمد بن صالح شقرون " التي جاء فيها :

حدث عن الملك المنصور ما شيتا تجد ألذ حديث يشبه القوتا
وذِعْ غرائب فتح كلها عجب غدا النظام بها درّا وياقوتا
ولا يريبك شك أن نصرته من السماء وما يتلوه مبخوتا (٥)

---

(١) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٤٧
(٢) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، ص ٢٢١
(٣) نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٣٦٣
(٤) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٤٧
(٥) بغية الرواد ، ص ١٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد التزم الشاعر في بعض أبياته حروفا أخرى غير الروىّ كررها باستمرار.ومن ذلك أيضا ما جاء في قصيدة " ابن الخطيب " الى " أبي حمو" :

وقف الهواءُ على ثناك لساني ... رُمْيًا لما أَوْلَيْتَ من احسان

وكأنما شُكْرى لما أوليته ... شكر الرياض لعارض النيسان

أنا شيعةٌ لك حيث كنت قضية ... لم يختلفْ في حكمها نفسان (١)

ومما سبق نستنتج أن الوجوه البيانية والبديعية تعطي الشعر بهاء وتزيده ألقًا لمالها من أثر في تحسين الكلام وتزويقه وإضفاء الجمال والرونق عليه ، غير أن الشعراء قد أسرفوا في تطبيقها ، وخاصة الجناس ، مما جعلهم يخرجون من حد الطبع والاعتدال الى حد التكلف والتصنع .

---

(١) بغية الرواد ، ص ٢٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصور الفنيـــــه :

تتمثل الصور الفنية الشعرية في شعر هؤلاء الشعراء في أشكال البيان من تشبيه واستعـــــارة وكناية . ومعنى ذلك أن التصوير الحسيّ هو الغالب عليها ، وهو الذي يراد منه ادراك الموصـــوف باحدى الحواس كتصوير السيوف بلمعان البرق كما جاء في البيت التالي :

ولاح شُعـــاعُ الهنـــد بين خميسهـــا كبرقٍ تَبَدّى بين دُرْجِ الأراقـــمِ (١)

وكتشبيه الجيش بالبحر وبالسحب دلالة على كثرته وكثافته كقول " أبي حمو" :

بِعَسْكَـــرٍ لجب ضاق الفضـــاءُ بـــه كالبحـــر اعظمُ به من عَسْكَرٍ لَجِـب

عرمرم زاخر فاضت مواكبـــــه كأنّه سحب أرْبت علي سحـــــب (٢)

وشبّهوا الفرسان وهم يمتطون خيولهم بأسد تمتطي عقبانا تدليلا على شجاعة الفرسان وجرأة خيولهم :

عقبانَ خيلٍ فوقها فرسانهـــــــا كالأُسْدِ تنقضّ انقضاض الأُجـــدل

فرسانَ عبدالواد أسادَ الوغَـــــــى حامو الذمار أولو الفخار الأُطـــول (٣)

وهذه الصور تقليدية في معظمها ، وقد رأينا أثناء حديثنا عن الغزل أن الشعراء في حديثهم عن المرأة كانوا يلتفتون الى الصور القديمة ، فبعضهم يصورها هلالا وشعرها ليلا ، وقولها غصنا ينثني، وعنقها عنق ظبي ، وأسنانها درّا ورضابها خمرا الى غيرها من التشبيهات ، كما رأينا خلال حديثنا عن الوصف أن وصفهم للناقة والرحلة والديار والصحراء كانت مستمدة من الصور القديمة في الغالب وان كنـــا لا نعدم صورا طريفة مبدعة تكون مستوحاة من بيئة الشعراء . يتضح ذلك مثلا من خلال الأبيـــات التالية التي يصف فيها الشاعر جمال الطبيعة في تلمسان . وقد اتخذ الشاعر هذه الأبيات مقدمـــة لمدح " أبي حمو الثاني " :

تَهلّل وجهُ الروض وابتسمَ الزهـــــرُ وغارت به في أفقها الأنجمُ الزهـــرُ

وضاحكتِ الأرضُ السماء مســـــرّةً وقابلها من كلّ ريحانة ثَغْـــــر

ومالَتْ قدود القضب زَهْواً كأنّهـــــا نَشاوَى تَمَشّتْ في معاطفها الخَمْـر

وغَنّتْ قيان الوَرْق خلف سُتورهـــــا وللوُرْق ان غَنّتْ بأوراقها ستـــر

لمولاي موسى أبدت الأرض زينـــــةً فتوّجها زهرٌ ووشّحها نهـــــر

---

(١) واسطة السلوك ص ١٨ (٢) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ١٥٧ (٣) نفح الطيب جـ ٧ ، ص ١٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد زفلت في حلة سندسيـــــة وشاها الصبا وشيا وذبّجها القطـــر
فللروض إيراق بنائله الـــــذي غدا الروض منه وهو فَيْنانٌ مُخْضَرّ (١)

ففي النص مجموعة من الصور اعتمد الشاعر في تشكيلها على عنصر الاستعارة في الغالب ، فقد شخّص منظره وأضفى عليه الحياة والحركة باستعارته لمجموعة من لوازم الإنسان والصاقها بالجماد . فالروض متهلّل الوجه ، والأرض تضاحك السماء ، وقد ود القضب تميل زهوا ونشوة كأنّ بها أثـــر الخمر . وهذا التشخيص من دون شك يترك أثرا وصدى لدى القارئ والسامع ، ويهز مشاعرهما لما يستثيره في نفسيهما من الاحساس والجمال . صحيح أن هذه الصور ليست جديدة كل الجدة لكن الشاعر استطاع أن يشكلها بنفسه ويعيد صياغتها وفق محيطه الطبيعي التلمساني ، ويضفي عليها سمة من الجمال والابداع .

ومن الملاحظ أن هذه الصور بصرية اتجهت الى امتاع حاسّة البصر بالدرجة الأولى بما تقدمه من علاقات مرئية بين الأشياء . وهذا المفهوم السابق رسّخته آراء النقاد القدامى التي كانت ترى في الشعر ما يشاكل الصياغة والتصوير والنقش . (٢) وانه صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير . (٣)

وهذا الاتجاه في مفهوم الصورة الشعرية نجده ماثلا عند " التلاليسي " ، وان كانت صوره تبدو اكثر إشراقا وابداعا من صور " الشغري " حيث لا تخلو بعض نماذجه الشعرية من صور نفسية وايحائية تعبر عن نفسيته المتشائمة أصدق تعبير خذ لذلك مثلا إحدى مطالعه في وصف الشيب :

أَصْبَحَ رأسي من الشّوائب وهو من الجانِبَيْن شائب
يا لهفَ نفسي على زمانٍ كنتُ لثوبِ الشّباب ساحِب
أرفل في حُلّة التصابي بَيْنَ حبيب وبين صاحب
حتّى بدا الشّيب في قَذالي بادَرْتُهُ بالسّواد خاضِب
أسترهُ كل حين حتّى عَمّ من الرأس كل جانب

---

(١) بغية الرواد ، جـ ٢ ، ص ٣١٠
(٢) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ص ١٠١ بتصرف ، القاهرة ١٩٣٤
(٣) الحيوان " الجاحظ ، جـ ٣ ، ص ١٣٢ . تحقيق عبدالسلام هارون . ط الاولى ١٩٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأقبلتْ منه لي جُيُـــــــــوشٌ ... سِهامُها للصبا مَوائِـــــــــب
فَصال شيبي على شبابِـــــــي ... صولة ذي نَجْدَة مُحـــــــارب
وسَلَّ فـي العارضـين سيفـــــًا ... أَضْحـى بهِ للشَّباب ضَـــارب
ما زال يَسْطُـو عليـه حـــــتَّى ... ظَـلَّ لما قَدْ دَهـاه هـــــارِب
وقـد مَضَى مَعْهَدُ التَّصابـــــي ... وأقبـلَ الشَّيـبُ فـي كتائـب (١)

لقد اعتمد الشاعر على عنصر التشخيص والتمثيل في ابراز صراعه مع الشيب ، ومن هنا نراه يستعير ألفاظا مثل الجيوش والسهام والمحارب والسيف والضرب والسطو والكتائب والهرب في تشكيل صوره . وهي كلمات تستعمل عادة في وصف المعارك الحربية ، غير أن شاعرنا نقلها للتعبير عن معنى آخر يتمثل في صراع معنوي بين الشيب والشباب ، وعملية إبراز هذا الصراع جعلت الشاعر يلجأ الى المقابلة بين الصيغة الحالية والصيغة الماضية أو بالأحرى بين ماضيه وحاضره ، حتى يعطي لنا إحساسا واضحا بهذه الثنائية التي اعتمد عليها في صورة الشعرية : ثنائية الصراع بين الشباب والشيب الذى حسم لصالح الشيب في هذا المقطع . وعلى هذا الأساس سيطر جوّ التشاؤم والحزن على هذه الأبيات على خلاف مقطع " الثغري " في وصف الربيع الذى سيطر عليه جوّ الفرح والمرح . وهذا يدل على أنّ للعواطف دخلا في توجيه الصور الفنية توجيها يتماشى مع الحالة النفسية للشاعر . ومن الملاحظ أن هذه الصور التي عرضناها من خلال النماذج السابقة صور جزئية ، فكل صورة في البيت تكاد تكون مستقلة عن الصور الأخرى التي تليها ولا تربطها معها إلا علاقة الاضافة أو التتابع .

وبعبارة أخرى ، فان تلك الصور لا تشكل صورة كلية ، ولعل ذلك راجع الى طبيعة القصيد الذي يعتمد على البيت المفرد، والى تعدد الأغراض الشعرية في القصيدة الواحدة .

---

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي النهاية أُشير الى أن جميع الشعراء تقريبا لم يخالفوا العروض المعروف في عصرهم ، ولعل نظرة واحدة الى النماذج الشعرية التي عرضت تؤكد ذلك ، غير أنهم لم يتقيدوا ببحر من البحور العروضية ولم يخرجوا على أعاريض واحد منها . لكن يبدوا أن الشعراء كانوا حريصين على اصطناع البحور الطويلة كالكامل والوافر والبسيط والطويل . وبذلك يمكن القول بأن الشعراء في تلمسان قد نهجوا نهج الشعراء الأقدمين في إكثارهم من النظم في البحور السابقة ، وابتعدوا عن النظم في البحور التي ابتعد الأقدمون عن النظم فيها ، كالمضارع والمجتث والمقتضب وغيرها .
وفي المقابل نجدهم يستعملون بعض البحور الأخرى ولكن بدرجة أقل كالمتدارك ومخلع البسيط . (١)

وما يمكن ملاحظته أن استعمالهم للبحور الطويلة المذكورة جاء في أغراض مختلفة ، مما يؤكد أن تخصيص كل فن شعري بوزن معين غير موجود عند شعراء تلمسان في هذا القرن ، بل هو غير موجود في الشعر القديم على وجه الإطلاق . وهذا ينفي ما ذكره " حازم القرطاجني " من أن الاغراض الشعرية تتلاءم مع الأوزان .

ولم يحاول الشعراء في الغالب الخروج عن القافية الموحّدة ، ويتضح للباحث من خلال القصائد أن الشعراء تجنبوا حروف الألف ، والخاء والزاي والشين والصاد والطاء والظاء والغين والواو ، فلم يستعملوا أيّا منها حرف رويّ وهم بذلك قد ابتعدوا عن التقعر في شعرهم ، ومالوا الى القوافي السهلة التي لا يضطرون فيها الى الاستعانة بمعاجم اللغة . ولا نستثني غير " ابن خميس " الذي جسر على النظم على بعض الحروف المذكورة لميل في نفسه للغريب ، وهو لا يشكل تيارا عامّا .

---

(١) أنظر قصيدة لابن عبد الله التلاليسي في بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ١٥٤ ، وأخرى لابن حمو في "واسطة السلوك" ، ص ص ١٠ - ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : النثـــــر الفنـــــي

كان الادباء شديدى الاهتمام بالنثر عامة من حيث اعتناؤهم بترتيب المعانى وتنسيق الافكـــار ، وتنميق العبارة ليخلعوا عليها ثوبا من الجمال الفنى الممتع . وكانت طريقة السجع والعناية بالمحسنات البديعية والبيانية من جناس ومجاز واستعارة وغيرها هى الطريقة المثالية فى هذا القرن فى مختلـــف الوان الكتابة الفنية عامة وفى الرسائل الديوانية والاخوانية خاصة . فقد اسبغ الكتاب على تلك الرسائل حلة من الاناقة ، متوخين الجمال والتأثير ويتجلى ذلك فى انتقائهم الالفاظ والتزام السجع لا يحيدون عنه ، يطرزونه بآى من القرآن الكريم ، ويحلونه بالشعر والامثال وضروب الصناعة الاخرى ، مما يعد فـــى هذه العصور اية على بلاغة الكاتب ومهارته الفنية .

ووقفة عند بعض النماذج فى هذا القرن تكشف لنا صورة الكتابة الفنية . فمما جاء فى رسالـــة " ابن خميس " الصوفية قوله مفتخرا :

" وما زالت تخبط فى شعاب الانساب فترشد، وتنشد ضالتها اليمانية فتنشد :

ان كنت من سيف بن ذى يـــــزن فانزل بسيف البحـــر من عـــدن

وذر الشآم وما بناه بـــــــــه الرومـــىّ من قصر ومن فـــــــــدن

تعلف سيل العرم ، وترد غسان ، وتمهد لها اهضام تبالة ، فتقول مرعى ولا كالسعدان " ، تساجل عن سميحة بابن خرام ، وتناضل بسمير يوم خزام ، وتنسى قاتل ستة الاف وكاسى بيت الله الحرام ثلاثـــة الافواف ، فلو ساجلت بنبعها ابا كرب ، وأريته ضراعة خدها الترب ، لساجلت به اخضر الجلدة فى بيـــت العرب ما جدا يملأ الدلو الى عقد الكرب . " (١)

فقد استعمل الكاتب سجعا طويل الفقرات ، متنوع القافية فاسجاعه فى هذه الفقرة تتألف مـــن حروف الروى التالية : الدال والنون والميم والفاء واخيرا الباء . وهذا التقابل فى هذه الاسجـــاع والتلوين فى نغماتها الموسيقية يدل على ان الكاتب كان يهدف من ورائها الى بيان مهارته فى صـــوغ الاسجاع ، وقد وشى هذا السجع ببعض ضروب الصناعة الاخرى مثل تضمينه لبيتين من الشعر للتمثيل

---

(١) الاحاطة جـ ٢ ، ص ٥٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهما لم ينسبهما لقائلهما ونثره لبيت من الشعر وهو قوله : فلو ساجلت بنبعها اباكرب (العبارة) ، فهي مضمنة من بيت " للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب " أشرت اليه سابقا كما نلاحظ استخدامه للجناس في : ترشد وتنشد ، وغسان والسعدان ، وخرام وخزام ، والاف وافواف ، وكرب وترب ، كما نراه يلجأ الى الطباق في بعض المواطن من الرسالة كما جاء في قوله يرد على خصومه من الفقهاء :

" استصغرتم الكبائر وابحتم الصغائر ، اين غنيكم الشاكر ، يتفقد فقيركم الصابر ، اين عالمكم الماهر ، يرشد متعلمكم الحائر ، مات العلم بموت العلماء ، وحكم الجهل بقطع دابر الحكماء " . (١) طابق بين الكبائر والصغائر والغنى والفقير والعالم والمتعلم ، والعلم والجهل . ويسير ابن خميس في هذه الرسالة على هذا النمط من الاسلوب في التزام السجع والصناعة اللفظية وخاصة الجناس الذي يهيمن على الرسالة ، مما يجعل من رسالته صورة من صور التصنع والتكلف ، وزادها تعقيدا واشكالا ما كان من توظيفه للغريب واستعماله لمصطلحات صوفية لا يدرك كنه اسرارها الا من كان ملما بالتصوف او كان من المتصوفة أنفسهم .

ولعل هذا الاتجاه في الاغراب والتعقيد هو الذي جعل القاضي" ابن دقيق العيد" يصدر حكما نقديا تقييميا على رسالة " ابن خميس "، فذكر انه مَعَرِيّ النزعة، (٢) واذا كان السجع وما يتبعه من ضروب الصناعة البديعية من تأثير على المعاني والافكار بسبب احتفاء الكاتب باللفظ على حساب المعنى فان ذلك لا يحول دون وضوح الافكار وبيان المقصود خصوصا اذا اعتدل الكاتب في توظيفه ، ووقف في حدود الاعتدال والوسطية ، وابتعد عن الحذلقة والدوران والجري وراء الالفاظ كما يتضح من اسلوب بعض الرسائل . من ذلك ما جاء في احدى رسائل " أبي تاشفين " الى سلطان مصر " الناصر محمد " ، وهي من انشاء أحد كتاب ديوان الأنشاء :

" ... فانّا نعرفكم بوصول كتابكم الخطير الاثير ، فتلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم ، وتتبعنا فصوله ، واستوعبنا فروعه وأصوله ، وتحققنا مقتضاه ومحصوله ، وعلمنا ما انطوى عليه من المنن والأفضال واشتمل عليه من التفصيل والاجمال ، ومن أعظم ذلك اذنكم لنا في أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر الشفيع في المحشر .... " (٣) فعلى الرغم من التزام كاتب الرسالة بالسجع في اسلوبه، شأنه في ذلك شأن معاصريه، الا ان المطّلع على هذه الرسالة يلاحظ أنه لا يوجد تعقيد لفظي

---

(١) الاحاطة جـ ٢ ، ص ٥٦٢ . (٢) ازهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ (٣) صبح الاعشى ، جـ ١٠ ، ص ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في عباراتها ولا اشكال في معانيها ، فعباراتها تنساب بشكل طبيعي ، لم يؤثر عليها احتفاء الكاتب بالسجع وغيره من الزخرفة اللفظية ، على خلاف ما جاء في رسالة " ابن خميس السابقة .

أما ابن مرزوق فقد التزم هو الآخر بالسجع في رسائله الاخوانية والديوانية ليدلل على مبلغ تفننه وجودة ترسله كغيره من كتاب عصره . جاء في احدى رسائله الى ابن الخطيب :

الحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تحصى ، حمدا يوفي به جميعنا المقصد الأسنى فيبلغ الأمد الأقصى ، فطالما كان معظم سيدي للأسى في خبال ، وللأسف بين اشتغال بال واشتعال بلبال" (١) فالتكلف بادٍ على هذه الفقرة يتمثل في التزامه بسجع طويل الفواصل مع توشيحة وترصيعه بالجناس الناقص في حبال وبال وكذلك بلبال ، وبالجناس التام في اشتغال واشتعال . ويمضي الكاتب قدما في باقي الرسالة على هذا النمط من التزامه لهذا النوع من السجع الطويل الفقرات ، مع التلوين والتنويع في قوافيه ، ولا عجب في ذلك فان الترصيع والتجميل هما غايته وهدفه من هذه الرسالة وفي غيرها من كتاباته الفنيه . ومن ذلك مثلا ما جاء في احدى خطبه الدينية المنبرية ، حيث قال :

" أيها الناس ، رحمكم الله : قدموا لأنفسكم واتقوا الله حق الأتقاء ، واحذروا مخالفة اوامره ونواهيه والمخالفة سبب الاشقاء ، واعملوا على لقائه فما أقرب هذا اليوم من يوم اللقاء ، وتيقنوا أن الدنيا دار الانتقال والانقضاء والآخرة دار القرار والجزاء ، واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله يوم الفصل والقضاء يوم تظهر الفضائح ويوم تعدد القبائح ويشهد الحق ولا معارضة لشهادة الأعضاء ، يوم اشفاق الرسل والأنبياء ، يوم يبرأ الآباء من الأبناء ، جعلني الله واياكم ممن عامل الله بالصدق والوفاء ، وحشرنا أجمعين في زمرة من أنعم عليه من النبيين والصديقين والشهداء .. (٢)

وأول ملاحظة تسترعي الانتباه ، هو التزام الكاتب بروى واحد لأسجاعه في الفقرة السابقة وفي الخطبة كلها ، وهو حرف الهمزة . وبهذا يؤكد أنه كان يتعمد ذلك ويقصده قصدا . وبجانب عنايته بالسجع نراه يعنى ببعض ألوان البديع كالطباق في قوله :

واحذروا مخالفة أوامره ونواهيه ، وفي قوله ، ان الدنيا دار الانتقال والآخرة دار القرار ، غير أن الجناس يطغى على هذه الفقرة وعلى الخطبة نتمثله في الفقرة السابقة بين اتقوا واتقاء والاتقاء والاشقاء ،،

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٦٤

(٢) ديوان خطب ابن مرزوق . خطوط رقم ٤٠٧٠ . الخزانة الملكية . الرباط .. اظر مقالا بعنوان " الخطب الدينية لابن مرزوق " ماريا خيسوس بيغيرا . دراسات عربية واسلامية ص ٨٣ الجامعة الامريكية بيروت ١٩٨١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومخالفة والمخالفة ، ولقائه واللقاء .

هذا وتسيطر على مادة الخطبة المعانى الأسلامية ، وهو شيء بديهي ، فهي احدى الخطب التي كانت تلقى على جمهور المصلين أيام الجمعة فى المسجد ، مما جعل الكاتب يقتبس من القرآن الكريم بعض الآيات أو يضمن معناها ليوشي بها خطبته . وهكذا يتضح أن انشاء " ابن مرزوق " فى رسالته وفي خطبته مثقل بالمحسنات اللفظية ، وهو لا يختلف فى ذلك عن انشاء كبار الكتاب مثل "ابن الخطيب " وابن عبدالمهيمن الحضرمي ، وغيرهما من كتاب المغرب والاندلس .

ونستنتج مما سبق ان ظاهرة السجع والصناعة البديعية كانت منتشرة فى الخطب وفي الرسائل بأنواعها ، باستثناء تلك الرسائل التى وجهها " بنو عبدالواد " الى ملوك " أرجون " حيث جاء اسلوبها مختلفا عن بقية الرسائل الاخرى كما راينا ، فقد سلمت تلك الرسائل المذكورة من اناقة البديع وزخارفه الى حد كبير ، ولا سيما المعاهدات منها ، لأنها تحتاج الى أن تكون عباراتها واضحة الدلالة بيّنة المعنى ، ولا سبيل الى ذلك الا الأسلوب الطبيعي المرسل ، ولعل ما جاء فى تلك المعاهدة التى تمّت ما بين "أبى حمو الثانى " وسلطان "أرجون بيدروالثاني " تغنى عن كل تعليق جاء فى أحد بنودها :

" ولا تشن فى مدة المصالحة المذكورة غارة ولا تذعر سيارة ؛ فان كان من جهة النصارى فعلى السلطان المذكور تسريح الأسرى ورد ما يأخذونه للمسلمين على جهة النهب والسلب أو الأنصاف من القيمة ان عدمت العين ، واعوزت على الطلب ، وكذلك ما يؤخذ على جهة الاختلاس ، وعلى مولانا السلطان أعزّه الله مثل ذلك سواه ... (١)

وتسير المعاهدة التى عرضنا نماذج منها فى غير هذا المقام على هذا الأسلوب الطبيعي الخالي من السجع والزخارف اللفظية ، وذلك لأن مثل تلك المعاهدات يراد بها التسجيل لا التأثير ، ولا سيما اذا علمنا أنها كانت تترجم الى اللغة اللاتينية ، وهي لذلك تتطلب الدقة والوضوح والابتعاد عن الصناعة والتصنع الذى يؤدى الى الغموض والتأويل في تفسير بنودها .

---

(١) Les etats de L'occident musulman P: 520

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كانت القاعدة أن الغالبية الكبرى من الكتاب قد ولعت بالسجع وأكبرته في هذا القرن لا في تلمسان فحسب بل في أرجاء المغرب بمفهومه الواسع ، وفي البيئة الأدبية في المشرق فان هناك من قام بثورة ضد هذه الموجة العارمة من الصناعة اللفظية في الكتابة الفنية ، والرسائل السلطانية منها خاصة . وتتمثل هذه الشخصية في المؤرخ الكبير " عبدالرحمن بن خلدون " الذي لم يكن يرى السجع في الكلام جمالا ، بل انتقد ذلك في مقدمته وأخذ على معاصريه من الكتاب أنهم ادخلوا أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدى الأغراض مما جعل هذا المنثور - كما ذكر - من باب الشعر وفنه ولا يفترق عنه الا في الوزن (١) بيد أن انتقاد " ابن خلدون " كان موجها في الحقيقة الى كتاب المشرق على وجه أخص ، حيث ذكر أن الكتاب المتأخرين استمروا على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، الأمر الذى أدى الى خلط الاساليب وهجر المرسل وتناسيه من طرف الكتاب ولا سيما كتاب المشرق . (٢)

ولا يكتفي " ابن خلدون " بتحديد مواطن العلة وابرازها ، بل نراه يعطي العلاج والحلول ويبدى رأيه الشخصي ، فيرى أن " المحمود في المخاطبات السلطانية الترسل،وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الأقل النادر ، وحيث ترسل الملكة ارسالا من غير تكلف له ، ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فان المقدمات مختلفة ، ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب أو ايجاز أو حذف أو اثبات أو تصريح وأشارة وكناية واستعارة . (٣) ولا يعني ما سبق أن ابن خلدون قد جافى البديع أو خاصمه ، بل عابه على كتاب الدواوين لأنهم ابتذلوه ووضعوه في غير موضعه ، أو خرجوا عن القوانين المرعية والقواعد المحددة وما عدا ذلك فالبديع ضرب من التحسين والتزيين يعطي الكلام رونقا وجمالا ، ويجعل وقعه لذيذا على الأسماع .

وعلى هذا الأساس وضع " ابن خلدون " لاستعمال الالوان البديعية شرطين هما :

- أن تقع من غير تكلف،لأن تكلفها يصير الى الغفلة عن التراكيب الأصلية ، للكلام،فتخل بالأفادة من أصلها وتذهب بالبلاغة راسا ، وأصحاب الذوق يستهجنون هذا التكلف،وضرب لذلك بأحدهم وهو " أبو البركات البلفيقي " الذى كان يشتهي "أن يشاهد من ينتحل فنون البديع في

---

(١) المقدمة ، ج ١ ، ص ١٠٩٤ بتصرف (٢) نفسه ، ص ١٠٩٤ ، بتصرف
(٣) المقدمة ، ص ١٠٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نظمه أو نثره وقد عوقب بأشد العقاب ونودي عليه " . (١)

- الأقلال منها واستشهد في هذا السياق بقول الشيخ أبي القاسم الشريف السبتي، ومفاده ان "هذه الفنون البديعية اذا وقعت للكاتب أو الشاعر ، فيقبح أن يستكثر منها لانها من محسنات الكلام ومزيناته ، فهي بمثابة الخيلان في الوجه ، يحسن بالواحد والاثنين، ويقبح بتعدادها . (٢)

واذا تخطينا الرسائل الى الكتابة الفنية الأخرى ، مثل التصانيف التاريخية وغيرها ، فاننا نجد هناك تفاوتا بين الكتاب في استخدامهم للسجع ، بين متخفف منه أو مبالغ فيه ، غير أنهم كانوا يتفقون في استعماله في عناوين المؤلفات وفي مقدماتها . ويكفي تصفح عناوين بعضها حتى تتضح الصورة منها :

كتاب " واسطة السلوك في سياسة الملوك " لأبي حمو ، وكتاب " زهر البستان في دولة بني زيان " لمؤلف مجهول ، وللمقرى الجد تآليف منها : كتاب " الحقائق والرقائق " و " عمل من طب لمن حب " و " الطرف والتحف "، الى غيرها من المؤلفات المختلفة الأنماط والاتجاهات ، وكلها تعبر عن ولع الكتاب بالسجع واعجابهم به .

أما اللجوء الى السجع في الديباجة ، فهو أمر شائع أيضا عند كتاب العصر الذين كانوا يعدون الديباجة وسيلة لأظهار براعتهم في التلاعب بالمفردات وبالمعاني ، ومهارتهم في الصياغة اللفظية ، فمما جاء في مقدمة " بغية الرواد " ليحيى بن خلدون :

"الحمد لله الذى خلق الدول أجنّة في بطون الأعصار ، وذرأ منها غررا مستهلة في مهود الأمصار ، ثم كفلها من السياسة بالأضار ، وألبسها أقمطة الشرائع رائعة الظهار ، واكنفها آيات الليل والنهار، فمنها الرضيع واليفعة والطار ، فالشاب فالكهل فالهرم فالهار ، ثم تصير خبرا تتلوه ألسنة الأعصار، ان في هذه لعبرة ونكرى لأولى الأبصار ...." (٣)

التزم الكاتب بحرف الراء رويا لأسجاعه في هذا النص ، ورصع سجعه بالجناس في أعصار وأمصار وأبصار وأضار وظهار . والطباق في الليل والنهار والشاب والكهل والهرم والهار . ويسير على هذا النمط

---

(١) المقدمة ، ج ١ ، ص ١١٢٠ بتصرف

(٢) نفسه ، ص ١١٢١

(٣) بغية الرواد ، ج ١ ، ص ٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الأسلوب في باقي المقدمة من تنويع لقوافي أسجاعه وتحلية ذلك بالطباق والجناس وما شاكل ذلك مما يعبر أصدق تعبير على أنه كان يتكلف هذه المحسنات ويجرى وراء زخرف الالفاظ . ويسير " أبو حمو " في واسطة السلوك وابن مرزوق في " المسند " وغيرهما على هذا المذهب البديعي في مقدمات كتابيهما على غرار معاصريهما من الكتاب في المغرب والأندلس والمشرق . فالالتزام بالسجع في ديباجة الكتب ظاهرة لا يكاد يستثنى كاتب منها ، فحتى " عبدالرحمن بن خلدون " المؤرخ الكبير الذى نادى بثورة الترسل لم يسلم من ذلك ، ولم يملك الا أن يخضع لهذا النمر الأدبي ، ويسير في ركاب هذا التيار . فمما جاء في ديباجة المقدمة :

" الحمد لله الذى له العزّة والجبروت ، وبيده الملك والملكوت ، وله الاسماء الحسنى والنعوت ، العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت ، القادر فلا يعجزه شيء في السموات والأرض ولا يفوت ..."(١)

فالصناعة اللفظية من سجع وجناس وطباق أوضح من أن تبين .

وهكذا عني المؤلفون بمقدمات كتبهم يتأنقون فيها ، ويسيرون فيها على نسق الرسائل الفنية ، فيسجعون ويجانسون ، ويطابقون حتى ولو أن المقدمة كانت لغير كتاب أدبي ، كما فعل " على بن محمد بن مسعود الخزاعي التلمساني " في مقدمة كتابه " تخريج الدلالات السمعية " حيث جاء فيها :

" الحمد لله الذى خلق الخلق من غير افتقار اليهم ، وبسط الرزق جودا منه عليهم ، وبعث فيهم رسلا منهم أقاموا لهم على وجوده ووحدانيته سبحانه أوضح حجة ، وحملوهم في الايمان به وامتثال أوامره ونواهيه على افسح محجة "لئلا يكون للناس على الله حجّة .. (٢) .

وينطبق هذا الحكم أيضا على مقدمة كتاب " مفتاح الوصول الى قواعد الأصول " للشريف التلمساني .

وفيما عدا المقدمات ، فان هناك تباينا واضحا بين الكتاب من حيث التزامهم بالسجع في باقي المتن . فيحيى بن خلدون يسير على نهج مقدمة تأليفه في مقدمات بعض الأبواب والفصول ، ولاسيما

---

(١) المقدمة ، جـ١ ، ص ١ (٢) تخريج الدلالات السمعية على ماكان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ، على ابن مسعود الخزاعي ص ٦ ، تحقيق د. احسان عباس ط : الاولى . بيروت ١٩٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حينما يكون في موقف المدح والتفريظ، علما بأن الهدف من تأليفه السابق هو مدح ملوك "بني عبد الواد" عامة و "أبي حمو" خاصة .

ومن أمثلة ذلك ماجاء في مقدمة الباب الأول من القسم الثاني ، حيث يمدح "يغمراسن بن زيان" مؤسس الدولة :

" فارع الثنية ، وعاطف الحنية ، والمستأثر دون الملوك بالخلال السنية ، مظهر الربع والربعان ، ومقيم حفلي الطعام والطعان ، خليفة الله المرتضى ، وسيف حمايته المنتضى ، ووعد أمنيّه الصادق المقتضى ، مسير الاحلاك ، وناظم الاسلاك ، وملك الشرفاء وشريف الأملاك ... (١)

وهذا اللف والدوران والحذلقة في توظيف السجع والجناس كادت تضيع المعنى وراءها غير ان وصف الاشخاص ، وخاصة اذا كانت الغاية مدح الموصوف واطراءه ، يقبل هذا النوع من الكتابة المنمقة ويستسيغها . والكاتب يسير على نهج كتاب عصره في هذا المقام، ويندر أن يبتعد أديب عن أسلوب عصره . ومن نثره الفني في "أبي حمو" قوله :

" اشتمل هذا الخليفة أيده الله من خلال الكمال وكمال الخلال على آي لا تحصى ، وانفرد من عوالي المعالي والمعالي العوالي بالمطمح الأقصى ، عيص ريحاني الشجار ، وخلق طالبي النجار، وخلق للمحاسن في آيات فرقانه آي اشتجار، فما شئت من شرف ملتف الوشيج ، ودين سابري النسيج وفضل على ائمة الأمة ليس بالمريج " قلت:

خلال نمتها للكمال عصابة	فمنهم وصي طاهر وبتول
صفوح على الجاني كظوم لغيظه	فؤول لما شاء الكمال فعول
عطوف على الراجي رؤوف بقومه	فصول لأجل الله فيه وصول
نهوض لكسب الحمد ينظم شمله	وقور اذا هول الخطوب مهول
غمام اذا اعطي همام اذا سطا	فلا صعب الا في يديه ذلول

فلمقامه الكريم مثل المحامد الاعلى ولسلطانه الشريف حيز قدح المفاخر المعلى ، وفي فرات اخلاقه تكرع ظمأ المعالي نهلا وعلا ، ولتداول بشره واعتراضه تقرأ " والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى " ،

---

(١) بغية الرواد ، ج ١ ، ص ٢٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فان سفر فالقمر ليلة تمامه ، أو التثم فذكاء من وراء غمامه ، أو ركب فالعسكر اللجب مهابة وجلالا أو مشى فالروض المعجب نضارة وجمالا ... " (١)

استعمل الكاتب سجعا طويل النفس ، متساوى الفقرات والفواصل غالبا ، وجاءت هذه الأسجاع متنوعة القوافي مما يعطي لهذا النص النثرى نغمة موسيقية قريبة من الشعروفي النص ضروب من الجناس مختلفة من ناقص وتام نجدها في :

كمال الخلال وخلال الكمال ، وفي عوالي المعالي والمعالي العوالي ، وفي شجار واشتجار ، وخلق وخلق ، كما حلّى هذا النثر بنظم من انشائه ، وهي ظاهرة لاحظناها في الرسائل والاخوانية منها على وجه الخصوص فتسربت آثارها الى المصنفات أيضا . ولا عجب في ذلك فان هذا الاسلوب المسجع في التآليف التاريخية والأدبية يشبه أسلوب الرسائل ، ان لم نقل انه مستعار منها ، كما نراه يضمّن آيا من القرآن الكريم كما جاء في قوله " والليل اذا يغشى " الآية (٢) ويكثر من استعمالة للاستعارة من ذلك ما جاء في قوله : وفي فرات أخلاقه تكرع ظمأ المعالى وفي قوله : فان سفر فالقمر ليلة تمامه ..... الخ .

وكل ذلك يدل على دقّة وصفه وبراعة تصويره ، وسعة خياله .

ولعل ما أوردنا يعبر عن مستوى انشاء " يحيى بن خلدون " الفني وهو لا يختلف عن مستوى انتاج كبار الأدباء في وقته مثل " لسان الدين بن الخطيب " و " ابن رضوان المالقي " وغيرهم من الأدباء الذين تتلمذ عليهم وتأثر بأسلوبهم .

وعلى الرغم من أن " يحيى بن خلدون " كان يستعمل السجع بين الحين والآخر كما رأيناه ، فان أسلوبه في باقي المتن وهو الغالب أسلوب مرسل تجنب فيه السجع والكثافة البديعية . ويكفي أن نطلع على بعض النماذج حتى ندرك مدى الفرق بين الأسلوبين والمذهبين (المرسل والمسجع) في الكتابة .

يقول " يحيى بن خلدون " في التعريف بأولية بنى عبدالواد :

" ... ولم يزل هذا القبيل المبارك بصحرائه كما ذكرنا ، وينتجعون أحيانا تل تلمسان للميرة على

---

(١) بغية الرواد ، ج ٢ ، ص ص ٥ ــ ٦

(٢) سورة الليل الاية الاولى والثانية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عادة البوادى الى العشرة الثانية من المئة السابعة ، ففيها صاروا أجنح الى التلّ منهم الى الصحـــراء ، بما أنسوه من خصبه وغضارة عيشه ، فاتخذوه مربعا ومصطافا ، سلما للدولة المؤمنية بخلاف بنى مريـــن ، فكانوا عند ملوكها أرفع رتبة وأحظى منهم ، واتخذهم بنو عبد المؤمن بن علي أولياء وانصارا وحمـــاة لقطر تلمسان ... " (١)

وجاء في ترجمته لأحد علماء تلمسان وصلحائها وهو أبو أسحاق التلمساني :

" الفقيه العالم الفرضي أبو أسحاق أبراهيم بن أبي بكر بن عبدالله بن موسى الأنصارى التلمســـاني ناظم الارجوزة الشهيرة في الفرائض عند بلوغه عشرين سنة من العمر ، مدرك محقق معروف الفضل والدين رحمة الله عليه . " (٢)

فنلاحظ لأول وهلة تجنبه في هذين النصّين للزخرفة اللفظية والزركشة البديعية ، فأسلوبـــه هنا أسلوب مؤرخ،وهذا يحتم عليه عدم الاهتمام أو الأكثار من العبارات المسجعة والاستعارات وغيرهـا حتى يستقيم كلامه ، ويكتسب دقة ووضوحا ، ولن يتسنّى له ذلك الا باللجـوء الى المفر دات البسيطـة الواضحة التى تعبر عن المضمون بدقة . وعلى هذا النمط من الكتابة المرسلة السلسة روى المؤلف جـلّ أخباره .

وهذه الازدواجية في أسلوب الكتب التاريخية الأدبية تنطبق أيضا على كتاب " زهر البستان " و" المسند " لابن مرزوق وعلى كثير من الكتب التاريخية المغربية الأخرى مع اختلاف نسبي بينهـم فابن مرزوق مثلا لم يحفل بالسجع الا في مقدمة كتابه " المسند " ، اما في باقي المتن فاسلوبـــه مرسل سلس . وقد جاءت تراكيبه وجمله سهلة في مجملها خالية من الزخرف والتنميق والسجـــع المتكلف ، وذلك ما يناسب الموضوع الذى تناوله،لأن الأمر يتعلق ببسط أفكاره ، وعرض حوادث معينة وشرحها . ومن هنا فلا مجال للعاطفة وجموح الخيال .

أما " أبو حمو "،فان السجع يحتل منزلة كبيرة في كتابه " واسطة السلوك " فهو يكاد ان يعـمّ الكتاب المذكور . ويمكن للباحث أن يأخذ عينات ونماذج في عدة أماكن من كتابه . يقول مثلا يوصـــي

(١) بغية الرواد ، جـ ١ ، ص ١٩٨
(٢) نفســـــه ، ص ٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابنه على عدم المخاطرة بنفسه عند لقاء العدو :

" يا بنيّ أياك والمخاطرة ، فانها غير محمودة الا في طلب الملك والسلطان ، فانها محمودة في هذا الشأن ، لأن الملك اذا خاطر بنفسه في طلب سلطانه واسترجاع بلاده وأوطانه ، حمدت مخاطرته في سره وإعلانه ، فانه ان نجح سعيه ، وانتج رأيه ، نال غاية مطلوبه ، وبلغ نهاية مرغوبه ، وان عاقه حلول منيته ، دون بلوغ أمنيته ، فله في ذلك أوضح عذر وأجمل ذكر ، وأعظم فخر كما قال امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك انما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد خاطرنا نحن في ذلك ، وسلكنا بحول الله أحسن المسالك ، وأوردنا العدى موارد المهالك ، وذلك لما هاجتنا الحمية ، ودعتنا النفوس الابية ، للانتصار لملكنا وسلطاننا ، واستخلاص بلادنا وأوطاننا ورد دولتنا الى نصابها ، واستخلاصها من أيدى غصابها ... " (١) وقوله في باب الشجاعة :

" اعلم يا بنيّ أن الشجاعة وصف محمود وبها يتفاخر الوجود .. وأصل الشجاعة الصبر في المواقف وربط الجأش عند المخاوف ، ورأسها الحذر والتوقي ، وسياستها الممارسة عند التلقي ... " (٢)

---

(١) واسطة السلوك ص ١٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــــــــــــــة

الأدب العربي كلّ متشابه في اطاره العام من حيث شكله ومضمونه ، ومـــا وجد من ظواهر التفرد فهو يرجع الى الطبيعة الذاتية للشعراء والكتـــاب ، والى عوامل البيئة التي لها هي الأخرى دورها في هذا المجال . ولـــذا فان الأدب في تلمسان لم يكن في معزل عن الادب العربي العام ، وانما كان فرعا من فروعه ، ورافدا من روافده بحكم الانتماء الى لغة واحـــدة وتراث واحد هو الشعر العربي والفكر العربي الاسلامي ، ونتيجة للتفاعل الثقافي والفكرى بين المغرب والمشرق .

واذا ادركنا هذه الخطوط العامة التي تربط أدب تلمسان شعرا ونثـرا في القرن الثامن الهجرى بغيره ، فاننا نسجل الملاحظات التالية :

أن أهمّ الأغراض الشعرية التي سادت في هذا القرن ، ولا سيما في منتصف القرن الثامن الهجرى منه ، هي قصائد المولد النبوية التي تحفل بالتشوق الى النبيّ عليه الصلاة والسلام . وكان لانتشار التصوف في هذه الفترة أثره البالغ في ذيوع هذا النوع من القصائد الذى كان يهزّ المشاعـــر الدينية ، ويضيف الى الشعر الديني رصيدا مختارا من كل سنة يتنافس في تقديمه المتنافسون. وقد فرض هذا الاتجاه في الشعر نفسه على الشعراء في عهد "أبي حمو الثاني" بشكل خاص ، اذ انه كان حريصا على طـــرق الموضوعات الدينية في شعره الكثير ، مما جعل هذا الاتجاه يفرض نفســـه على شعراء البلاط في وقته ، إذ شارك فيه كل من " الشغرى " و " ابـــن خلدون" و " التلاليسي " وغيرهم ، وان لم يصرفهم هذا عن نظم الشعـــر في مدح " أبي حمو " نفسه والاشادة بعمران تلمسان زمانه . وقـــد بلغ مجموع قصائد "أبي حمو" وقصائد الشعراء الذين مدحوه حدّا مـــن الكثرة مكن عبدالله التنسي " من جمع كتاب كامل منها سمـــاه " راح الارواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه مـــن الامداح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كان هذا المصدر المهم من المصادر المفقودة اليوم ، فانه يبقى دليلا على نشاط الحركة الشعرية في تلمسان زمن " أبي حمو الثاني".

وكانت القصائد المولدية ، وقصائد المدح السلطانية من أهم الاغراض التي تعطى لصاحبها طابع التفوق ، ووسيلة الحظوة ، وعنوان الشهرة ولا سيما من كان متصلا برجال الحكم ،لأن هذه المناسبات الدينية والسياسية كانت تتيح للشاعر فرصا ثمينة ليظهر موهبته ويسجّل خواطره ، ويعرب عما تجيش به نفسه من مطامح ورغبات ، وما يكنه للحاكمين من محبة وتقدير .

غير أن هذا لم يمنع الشعراء من أن ينظموا في أغراض شعرية أخرى مع تفاوت نسبي بينهم . فقد نظم الشعراء في الرثاء والفخر والزهد والتصوف وغيرهامن الاغراض التقليدية فضلا عن الاغراض الثانوية التي كانت تأتي في ثنايا القصائد أو في مقدماتها كالغزل والوصف . وهذا يعني أن الشعراء نظموا في جل الأغراض الشعرية،حتى إننا نجد شعرا في تفريظ الكتب ، والالغاز والمعميات وغيرها)وان جاء هذا قليلا جدا في المصادر .

ومن الظواهر التي يلاحظها الباحث لدى شعراء تلمسان في القرن الثامن الهجرى ، أنه لم يوجد شاعر متخصص انقطع للشعر دون سواه من الفنون . فكثير من الشعراء كان يجمع بين الشعر والكتابة،حتى أننا نجد بعض المصادر تصنف بعض الاعلام بانهم شعراء ناثرون ، كابن خميس وابن مرزوق والشغرى والتلاليسي و أبي حمو الثاني ، والمقرى الجد، وكثير من كتاب ديوان الأنشاء ، وهي ظاهرة عامة في المغرب كله ولعلها كانت موجودة في المشرق كذلك .

ومع أن القرن الثامن الهجرى كان حافلا بالنشاط الأدبي والتأليفي/فان معظم ما وصلنا كان يمثل النصف الثاني من القرن ، في حين لم يصلنا الا القليل من انتاج النصف الأول منه ، على الرغم من اشارات المصادر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لعدة مؤلفات وأعلام .

ومن جهة أخرى فان المصادر التي اهتمت بتاريخ بني عبد الواد لا تذكر الانتاج الأدبي شعرا ونثرا خلال فترة الحكم المريني ، مع أن شعلة الثقافة والفكر لم تنطفيء في هذه الفترة ، لا سيما وأن تلمسان صارت مقر السلاطين من بني مرين طيلة سنوات عديدة ، أوحتى وفاة " أبي الحسن " على أقل تقدير .

وقد أشرت في غير هذا الموضع الى أن السبب وراء اهمال هذه الفترة من قبل مؤرخي بني عبد الواد هو أنهم لم يريدوا الاشادة بخصوم بني عبد الواد في مؤلفات خصّصت أصلا لتمجيد هؤلاء وذكر مآثرهم .

وعلى هذا الأساس ضاع جانب مهم من الكتب التي سجلت الحياة العلمية والأدبية ، نتيجة لهذه النظرة الضيقة في كتابة التاريخ خلال هذه الفترة . ثم ان هذا القرن، وما عرف فيه من اضطرابات سياسية، وما صحبها من حروب وفتن، كان له تأثير سلبي على استقرار الادباء والنخبة من من العلماء ورجال الفكر ، اذ انه نتيجة لذلك هاجر كثير من الادباء والعلماء من تلمسان الى الحواضر الاخرى، كالمقرى الجد، وابن مرزوق الخطيب، والآبلي، وغيرهم . على أن هذا كان في فترات محدودة ولا يقلل من أهمية تلمسان التي عرفت في هذا القرن ازدهارا في مجال الفكر والابداع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجـــــــــع

أولا : المصادر المخطوطـــــة

(١) زهر البستان في دولة بنى زيان (السفر الثاني) مؤلف مجهول ، مكتبة جامعة مانشستـــــــو (انجلترا) رقم ٢٨٣ (القسم العربي) . نسخة مصورة بمكتبة الجامعة الاردنية .

(٢) فصل الخطاب في ترسيل الفقيه أبي بكر بن خطاب ، ابو بكر محمد بن عبد الله الخافقـــــي الرباط الخزانة الملكية نسخة مصورة بمكتبة الجامعة الاردنية .

(٣) نيل الابتهاج في تطريز الديباج فاس ١٨٩٩م، ١٣١٧هـ نسخة بمكتبة الجامعة الاردنية .

(٤) واسطة السلوك في سياسة الملوك أبو حمو موسى الزياني الخزانة العامة بالرباط رقـــم ١٤٤٧، نسخة مصورة بمكتبة الجامعة الاردنية .

ثانيا : المصادر المطبوعـــــة

(٥) الاحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب تحقيق محمد عبدالله عنان مكتبـــــة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٣

(٦) احكام صنعة الكلام أبو القاسم الكلاعي تحقيق : محمد رضوان الداية بيروت ١٩٦٦

(٧) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض " المقرى احمد . تحقيق : مصطفى السقا ، وابراهـــيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي . مطبعة لجنة التأليف والتـــرجمة والنشـــر ١٩٣٩ ، وتحقيق سعيد أحمد أعراب ، حمد بن ثانيت ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي .

(٨) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الناصرى . تحقيق وتعليق ولدى المؤلف الاستـــاذ جعفر الناصرى ، والاستاذ محمد الناصرى . مطبعة دار الكتب الدار البيضاء ١٩٥٤

(٩) أسرار البلاغة،الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن، تعليق : أحمد مصطفى المراغـــى القاهرة المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١٠) "الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام". عباس بن ابراهيم المراكشي . المطبعة الجديدة، فاس

(١١) "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" ابن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ١٩٧٢

(١٢) "البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان" ابن مريم المطبعة الثعالبية الجزائر ١٩١٣

(١٦) البلدان، اليعقوبي ط : الثالثة النجف ١٩٥٧

(١٣) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، يحيى بن خلدون، تحقيق : الفرد بل (جزآن) الجزائر ١٩١٣ وتحقيق : د. عبدالحميد حاجيات (الجزء الاول) الجزائر ١٩٨٠

(١٤) "بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس"، الظبي أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، دار الكاتب العربي ١٩٦٧

(١٥) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للحافظ جلال الدين السيوطي تحقيق : محمد ابراهيم الطبعة الاولى ١٩٦٥

(١٧) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب" تحقيق : محمد بن تاويت وامبروس هويس مرانده، تطوان ١٩٥٠

(١٨) البيان والتبيين . الجاحظ ابوعثمان عمرو بن بحر تحقيق وشرح : عبد السلام محمد القاهرة مكتبة الخانجي ١٩٦٠ - ١٩٦١ ط : الثانية

(١٩) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدى ، تحقيق د : حسين نصار مطبعة الكويت ١٩٦٩

(٢٠) تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، والمكتبة العربية ببغداد ١٩٣١

(٢١) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان . مقتطف من نظم الدر والعقيان لمحمد بن عبدالله التنسي تحقيق، محمود بو عياد الجزائر ١٩٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢٢) "تاريخ الدولتين : الموحدية والحفصية" تحقيق محمد المغدور، المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦

(٢٣) "تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية " ، على ابن مسعود الخزاعي التلمساني، تحقيق د: احسان عباس ط الاولى بيروت ١٩٨٥

(٢٤) "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا " ، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق ابن تاويت ط ١٩٧٩

(٢٥) "تعريف الخلف برجال السلف" ، تحقيق ، محمد أبو الاجفان وعثمان بطيخ ، مؤسسة الرسالة ط: الاولى ١٩٨٢

(٢٦) "تقويم البلدان" أبو الفدا الملك المؤيد ، باريس ١٨٤٠

(٢٧) "تهذيب تاريخ دمشق الكبير" ، ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ، هذبه ، ورتبه الشيخ عبد القادر بدران ط : الثانية ، دار المسيرة بيروت ١٩٧٩

(٢٨) "جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس" ، أحمد ابن القاضي المكناسي ، دار المنصور للطباعة والنشر الرباط ١٩٧٣

(٢٩) "جمهرة أنساب العرب" ، ابن حزم الاندلسي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط: الاولى ١٩٧٣

(٣٠) "الحلل السندسية في الاخبار التونسية" الوزير السراج ، تحقيق ، محمد الحبيب الهيلة تونس ١٩٧٠

(٣١) "الحيوان" ، الجاحظ تحقيق ، عبد السلام هارون ، ط : الاولى ١٩٣٨

(٣٢) "خزانة الادب ولب لباب لسان العرب" البغدادي تحقيق : عبد السلام محمد هارون القاهرة

(٣٣) "خريدة القصر وجريدة العصر" ، عماد الدين الاصفهاني ، تحقيق الاستاذين : عمر الدسوقي ، وعلي عبد العظيم دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٣٤) "دار الطراز في عمل الموشحات " ابن سناء الملك ، تحقيق جودت الركابي، ط: الثانية دمشق ١٩٧٧

(٣٥) " درة الحجال في أسماء الرجال " ابن القاضي ، ابو العباس أحمد بن محمد ، تحقيق : محمد الاحمدى ابو النور، دار التراث، القاهرة المكتبة العتيقة، تونس

(٣٦) "الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة" شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة، ط: الثانية ١٩٦٦

(٣٧) "الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب" ابن فرحون تحقيق :محمد الاحمدى ابو النور القاهرة ١٩٧٦

(٣٨) ديوان أبى تمام ، تحقيق ، : محمد عبده عزام، دار المعارف . القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٦٥

(٣٩) ديوان ابن الخطيب " الصيب والجهام والماضي والكهام" تحقيق : د. محمد الشريف قاهر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: الاولى ١٩٧٣ . الجزائر

(٤٠) ديوان ابن خفاجة ، تحقيق :كرم البستاني ، دار صادر ،بيروت ١٩٦١

(٤١) ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف ط: الثانية ١٩٦٤

(٤٢) ديوان السموأل ، تحقيق عيسى بابا ، بيروت ١٩٥١

(٤٣) رحلة التيجاني : التيجاني ابو عبدالله بن محمد بن احمد، المطبعة الرسمية ، تونس ١٩٥٨

(٤٤) "الرسالة القشيرية في علم التصوف" ، ابو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى ، القاهرة محمد على صبيح ١٩٥٧

(٤٥) "الرحلة المغربية" العبدرى محمد بن على بن احمد ، تحقيق : احمد بن جدية ، الجزائر ، كلية الاداب

(٤٦) "روضة النسرين في دولة بنى مرين" اسماعيل ابن الاحمر ، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط ١٩٦٢

(٤٧) "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب" ابن الخطيب ، تحقيق : محمد عبدالله عنان مكتبة الخانجي بالقاهرة ط: الاولى ، ١٩٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٤٨) "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون"، ابن نباتة المصري، تحقيق : محمد ابو الفضل
دار الفكر العربي ١٩٦٤

(٤٩) "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، محمد بن محمد مخلوف، نسخة مصورة عن الطبعة
الاولى . المطبعة السلفية ١٩٤٩

(٥٠) "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، ابن العماد الحنبلي، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩

(٥١) "الشعر والشعراء"، ابن قتيبة، تحقيق مفيد قميحة، مراجعة الاستاذ نعيم زرزور،
دار الكتب العلمية بيروت ط : الثانية ١٩٨٥

(٥٢) "صبح الاعشى في صناعة الانشاء"، القلقشندي نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية

(٥٣) "صورة الارض"، ابن حوقل، ط: الثانية، ليدن ١٩٦٧

(٥٤) "الضوء اللامع لاهل القرن التاسع"، السخاوي محمد بن عبد الرحمن ، دار مكتبة الحياة
بيروت

(٥٥) "العبر وديوان المبتدا والخبر"، ابن خلدون عبدالرحمن، دار الكتاب اللبناني للطباعة
والنشر ، بيروت ١٩٥٩

(٥٦) "العقد الفريد للملك السعيد" ، أبو سالم النميري، القاهرة، مطبعة الوطن
: ١٨٨٨ م / ١٣٠٦ هـ

(٥٧) "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"، ابن رشيق ، تحقيق : محمد محي الدين
عبد الحميد بيروت ١٩٧٢

(٥٨) "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" ، تحقيق : عادل نويهض
بيروت ، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٩

(٥٩) "الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية"، ابن قنفذ القسنطيني، تحقيق : محمد الشاذلي
النيفر، وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية ١٩٦٨

(٦٠) "فتح الباري بشرح صحيح البخاري"، ابن حجر العسقلاني، ج ١، ص ١٦٤، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٦١) "فوات الوفيات" محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د: احسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٦٢) "القارة الافريقية وجزيرة الاندلس"، مقتطف من كتاب "نزهة المشتاق في اختراف الآفاق" للادريسي ، تحقيق : اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٣

(٦٣) "القاموس المحيط" الفيروز آبادى، دار الجيل، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت

(٦٤) "اللحمة البدرية في الدولة النصرية" ابن الخطيب، لسان الدين ، تحقيق : لجنة احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٠

(٦٥) "المؤنس في أخبار افريقيا وتونس" ابن أبي دينار، ابو عبدالله محمد بن أبى زرع القاسم ، تحقيق وتعليق محمد شمام . المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٧

(٦٦) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد . مكتبة البابى الحلبى مصر ١٩٣٩

(٦٧) "المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" ، ابو الحسن النباهى . تحقيق : لجنة احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٠

(٦٨) "مستودع العلامة ومستبدع العلامة" اسماعيل ابن الاحمر، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط

(٦٩) "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن" تأليف محمد ابن مرزوق التلمساني دراسة وتحقيق د : ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨٢

(٧٠) المعجب في تلخيص اخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي . تحقيق : محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣

(٧١) "معجم الادباء" ياقوت الحموى، دار احياء التراث العربي، ط: الاخيرة، بيروت

(٧٢) معجم البلدان ، ياقوت الحموى، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩

(٧٣) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الى الوجيهة الى الحرمين مكة وطيبة ، تحقيق : د . محمد الحبيب ابن الخوجة ، الدار التونسية تونس ١٩٨٢

(٧٤) "منهاج البلغاء وسراج الادباء" ، حازم القرطاجني، تحقيق وتقديم : محمد الحبيب ابن الخوجة تونس ١٩٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٧٥) "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" ، المعروف بالخطط المقريزية ، المقريزي ، بيروت لم يذكر السنة .

(٧٦) "نحلة اللبيب باختيار الرحلة الى الحبيب" ، ابن عمار ، ابو العباس سيدى أحمد ، مطبعة فونتانة الجزائر ، ١٩٠٢

(٧٧) "نسب قريش" ، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيرى ، نشر ليفى بروفنسال ، دار المعارف للطباعة والنشر ، دار المعارف ١٩٥٣

(٧٨) نظم الدر والعقيان في محاسن الكلام ، القسم الرابع ، محمد بن عبدالله التنسي ، تحقيق نورى سودان بيروت ١٩٨٠

(٧٩) "نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب" ، المقرى ، احمد بن محمد التلمساني ، تحقيق : د. احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٨

(٨٠) "نقد الشعر" ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، ط: الثالثة ، مكتبة الخانجي الـ القاهرة ١٩٧٨

(٨١) "النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة" ، جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكي ، مصورة عن دار الكتب . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٣٥

(٨٣) "واسطة السلوك في سياسة الملوك" ، أبو حمو الثاني تونس ١٨٧٠

(٨٣) "الوافي بالوفيات" باعتناء احسان عباس ، بيروت ١٩٧٢

(٨٤) "الوساطة بين المتنبي وخصومه" ، القاضي على بن عبدالعزيز الجرجاني ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلى محمد البجاوى ، دار احياء الكتب العربية ، ط : الاولى ١٩٤٥

(٨٥) "وصف افريقيا" للحسن الزيانى المعروف بليون الافريقي ، ترجمه عن الفرنسة محمد حجي ، محمد الاخضر ، دار الغرب الاسلامى ، ط: الثانية ١٩٨٣ بيروت ، الشركة المغربية للناشرين المتحديث ، الرباط

(٨٦) "وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان" ابن خلكان تحقيق د. احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : المراجـــــع :

(٨٧) "الاعلام" خير الدين الزركلي (قاموس وتراجم) دار العلم للملايين بيروت ط ٤ ١٩٧٩

(٨٨) "أبو حمو موسى الزياني" : حياته وآثاره" د : عبد الحميد حاجيات

(٨٩) "تاريخ الادب الجزائري" محمد بن عمرو الطمار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيـــــــع الجزائر ١٩٧٠

(٩٠) "تاريخ افريقيا الشمالية" شارل آندري جوليان ترجمة محمد مزالي ، والبشير بن سلامـــة تونس ١٩٦٩

(٩١) "تلمسان عبر العصور" دورها في سياسة وحضارة الجزائر" محمد بن عمروالطمار، المؤسســة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٤

(٩٢) "دائرة المعارف الاسلامية" بطرس البستاني، مؤسسة مطبوعاتي

(٩٣) "دراسات في الادب المغربي القديم" د . عبدالله حمادى ط: الاولى ١٩٨٦، دار البعـــث للطباعة والنشر قسنطينة (الجزائر)

(٩٤) "ابن زمرك الرناطي : سيرته وأدبه" د : احمد سليم الحمصى ط: الاولى ١٩٨٥

رابعـا : دوريات ومجلات

الاصالة الجزائر عدد ٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٥٠

دراسات عربية واسلامية الجامعة الامريكية بيروت ١٩٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : المراجع باللغة الاجنبيـــــة

1. Les ′etats de L′occident musulman aux XIII , XIV et XV siecles. institutions Govvernementales et administratives Atallah Dhina Office des publication universitaires Alger enal alger 1984

2. Le royaume abdelwadide a L′epoque D′abou hamou moussa 1^er et d′abou tachfine 1^er Office des publications universitaires - Alger enal Alger 1985

3. Tlemcen (Les villes d′art celebres) marsais georges Paris 1950

All-Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خريطة تقديرية لمدينة الزهراء

(١) أسس هذا الجزء أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ١٣٩
(٢) أسطر الزيادة سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(٣) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(٤) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(٥) تنسب إلى أبي عبدالله الأشيلي بناها بعد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(٦) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(٧) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(٨) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(٩) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١٠) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١١) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١٢) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١٣) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١٤) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١٥) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١٦) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١٧) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١٨) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩
(١٩) أسسه أبو تاشفين الأول بعيد الزهراء سنة ٧٥٣ هـ بعد الزهراء الجامع، الاستقصا ج ١ ص ١٣٩

ABSTRACT

This thesis attempts to focus on some aspects of literature and literary life in Tlemcen in the 8 th century of Hijra 14th century of Christian era.

It begins with a background on the political, social and cultural life in Tlemcen in the period under study, in order to shed more light on the literary life.

However this thesis is divided into three main chapters, the first of which is dealing with poetry and its subjects. The most eminent of these poetical subjects was the poems recited in the occasion of the Prophet's birthday which one can name " Mawlidiyyat".

Eulogies, elegies, love poems and all traditional subjects can also be found in the poetical heritage of Tlemcen.

In the second chapter I traced the prose genres such as the belles-letres which were despatched from the court of Tlemcen kings or by men of letters to many parts of the world, I studied also the compilations of Tlemcen authors.

Chapter three of this thesis outlines the technical characteristics of both poetry and prose of Tlemceni poets and men of letters.

The scolar could conclude from this chapter that literature in Tlemcen continued to follow the literary traditions found in the earlier Arabic literature.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit